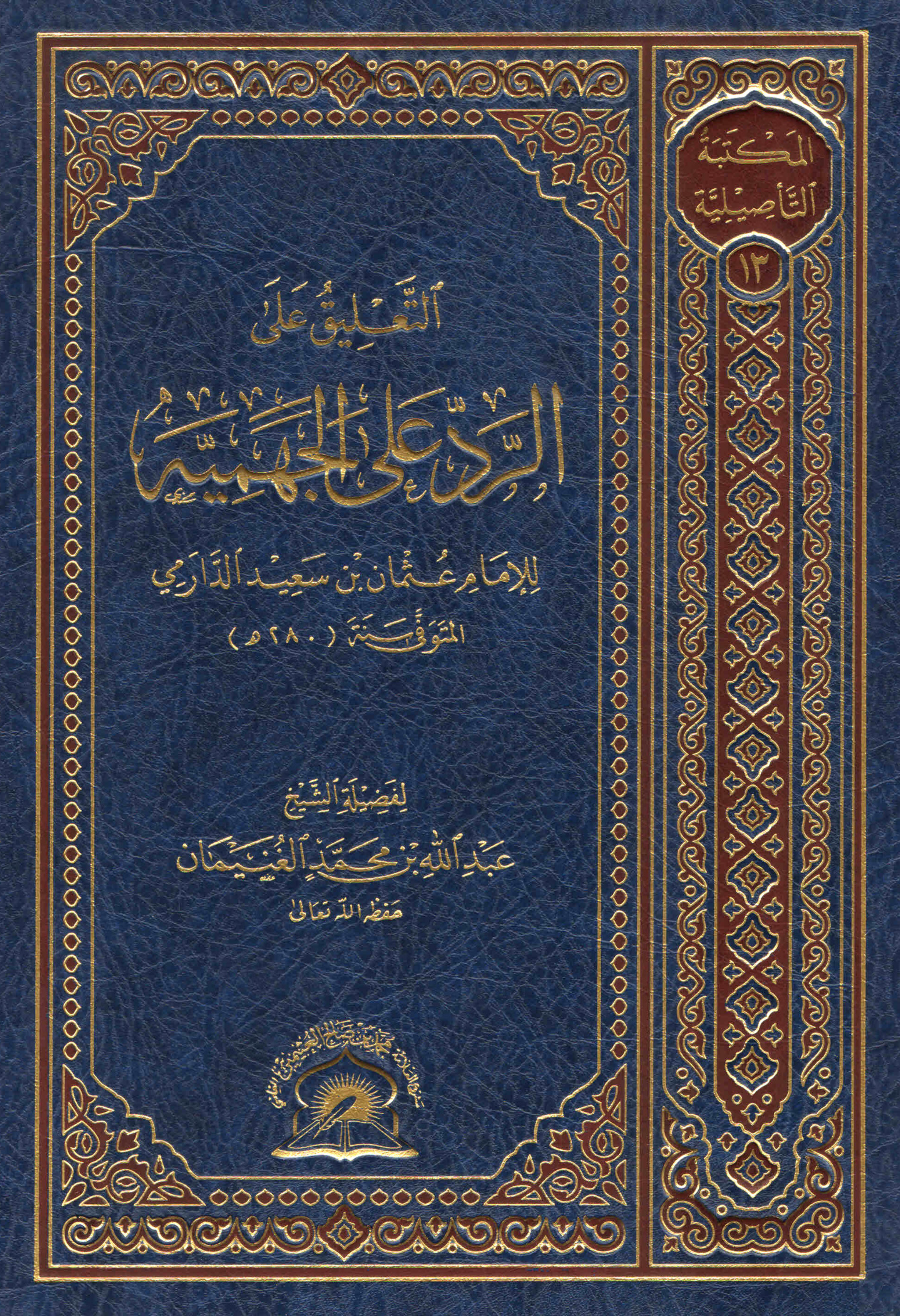


المكتبة التأصيلية
١٣
التعليق على
الرد على الجهمية
للإمام عثمان بن سعيد الدارمي
المتوفى سنة (٢٨٠ هـ)
لفضيلة الشيخ
عبد الله بن محمد الغنيمان
حفظه الله تعالى

التعليق على

الرد على الجهمية

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

ردمك : ٤-١٨٩٧-٠-٩٩٢١-٩٧٨

المـوزع الرسمـي



دار ركائز للنشر والتوزيع

rakaezkw.com rakaez.kw@gmail.com

@dar_rakaezkw t.me/rakaezkw

+٩٦٥ ٥٠٦٧٤٥٣٣





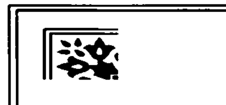
مشروع العلامة

محمد بن صالح العثيمين

العلمي

دولـة الكـويت


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الناشر

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد:

فيسرُّ مشروع العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمي بدولة الكويت أن يقدم لطلبة العلم الكرام **الإصدار الثالث عشر** من «المكتبة التأصيلية»، وهو تعليقٌ على كتاب «الرد على الجهمية» للإمام الحافظ عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ، المتوفى سنة (٢٨٠هـ)، حيث قام فضيلة الشيخ **عبد الله بن محمد الغنيمان** ـ حفظه الله ـ بالتعليق على هذا الكتاب، وذلك من ضمن دروس الدورة العلمية التاسعة، والتي عُقِدتْ في مسجد فهد الزبن بمنطقة «بيان» بعد صلاة المغرب، وذلك بتاريخ ١٥ ـ ٢٤ من شهر رجب سنة ١٤٣١هـ، الموافق ٦/٢٦ إلى ٥/٧/٢٠١٠م.

ثم فُرّغت هذه الدروس وهذبت بما يناسب إخراج الكتاب، وتكرَّم الشيخ ـ حفظه الله ـ بمراجعته، وتعديل ما يلزم تعديله، وإضافة ما يحتاج إلى إضافة وتوضيح، ثم أذِن بطباعته، فجزاه الله خيراً، وشكر سعيه، وبارك في عمُره ووقته، وأجزل له المثوبة.

وختاماً نسأل الله تعالى أن يجعلَ هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ونشكر كلَّ مَن أسهم في إخراج هذا العمل، وأن يَعمَّ نفعه للإسلام والمسلمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

مشروع العلامة

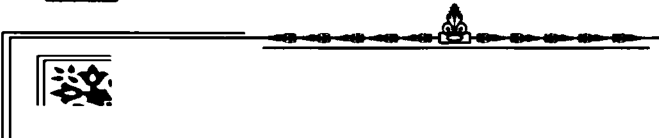
محمد بن صالح العثيمين

العلمي

دولـة الكـويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد
وبعد سبق أن ألقيت دروسا في دورة الشيخ محمد
بن عثيمين رحمه الله وقد أذنت للقائمين عليها
في طباعة تلك الدروس وفوضت إليهم التصرف
فيها والله ولي الجميع بالتوفيق وصلى الله وسلم على
نبينا. قاله وكتبه عبد الله بن محمد الغنيمان في ٢/١٢/١٤٢٨هـ



تقديم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فهذا شرح مختصر للرد على الجهمية للإمام الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو عبارة عن دروس علمية ألقاها فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان في بعض الدورات العلمية، فُرّغت وجُمعت وروجعت وخُرجت أحاديثها وعُزيت الأقوال والمنقولات، اجتهد مكتب الشيخ حفظه الله في إخراجها بالتعاون مع الشيخ عبد العزيز بن حمود البليهي الذي قام - مشكوراً - بتفريغ المادة العلمية، فجزاه الله خير الجزاء.

كما قام الإخوة في دورة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في الكويت مشكورين بطباعتها ونشرها، نسأل الله لنا ولهم القبول.

ونسأل الله العلي العظيم أن ينفع بها من قرأها واجتهد في نشرها، إنه سميع عليم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكتب الشيخ عبد الله الغنيمان
المدينة النبوية
١٤٤٠/٣/١٣هـ

للتواصل: hks199@gmail.com

التعليق على
الرد على الجهمية

قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله:

الحمد لله الذي له مافي السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، يعلم سر خلقه وجهرهم ويعلم ما يكسبون، نحمده بجميع محامده، ونصفه بما وصف به نفسه ووصفه به الرسول ﷺ، ....

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، نحمد ربنا ونشكره، ونصلي ونسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته، ومن سار على نهجه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا الكتاب من الكتب النافعة في بيان عقيدة أهل السنة والرد على من خالفها.

والمؤلف قصد به الرد على طائفة معينة وليس رجلاً معيناً، وهم الجهمية، ومن قال بقولهم.

بداية يجب أن نعلم أن هذا القول الذي يذكره عن هذه الطائفة أن القائلين به موجودون الآن، وهم يزعمون أنهم على الحق، ويجادلون في ذلك، حتى إن هذا الكتاب أول ما طبع في مصر قامت ضجة هناك ودعاوى بأن يحاكم الذي طبعه، ويجب أن يحرق هذا الكتاب، وأقيمت

فهو الله الرحمن الرحيم، قريب، مجيب، متكلم، قائل، وشاءٍ، مريد، فعال لما يريد.

دعوى على هذا حتى عقدت لجنة في الأزهر، وبقيت شهوراً تدرس الكتاب وتنظر في هذه الدعوى، ثم بعد ذلك قرروا أن الكتاب ليس فيه مخالفة للحق، فغضب هذا الذي أقام الدعوى وكتب كتابات وسمى هذا الكتاب «كتاب الزندقة» و«كتاب الكفر»، وقال: إن هذا يدل على التشبيه.. إلى آخر ما قال، مع أن هذا الرجل كان من العلماء هناك الذين لهم اطلاع، ولهم كتب، وله أيضاً ذكر واسع في العالم الإسلامي!!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**متكلم، قائل، شاءٍ، مريد**» ليست هذه من الأسماء وإنما هذا من باب الخبر، لا يجوز أن نصف ربنا جل وعلا إلا بما وصف به نفسه، ولا نسميه إلا بما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله ﷺ، وباب الخبر أوسع من باب الوصف والتسمي[1]، لهذا يقول جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤]، إذاً، فلا نسمي ربنا زارعاً، وإنما يخبر جل وعلا أنه هو الذي برحمته ينبت النبات الذي فيه تغذية لنا وتغذية لبهائمنا، فهو الذي يشاء ذلك.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**متكلم**» لم يأت في النصوص أنه سمى نفسه متكلماً، أو يوصف بأنه متكلم؛ لأن التكلم يطلق على كلام الخير وكلام الشر وأسماء الله كلها حسنى لا يجوز أن تكون بأمر محتمل.

والحسنى: هي التي لا يتطرق إليها عيب ولا نقص بوجه من الوجوه، أما إذا تطرق إليها شيء من النقص فلا يجوز أن تكون داخلة في أسماء الله تعالى وتقدس.

كذلك قوله: «**قائل، شاءٍ، مريد**»، وإنما جاء ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾

---

(١) انظر شرح الأصبهانية لابن تيمية (ص ٩ وما بعدها)، وبدائع الفوائد (١/ ٢٨٥).

الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، و﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤] ﴿يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ويتكلم، ويرضى ويسخط ويغضب، ويحب ويُبغض ويكره، ويضحك، ويأمر وينهى، ....

[البروج: ٦] هذا وصفه ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾، أما مطلق الإرادة فتكون للخير وللشر، وتكون للفجور، وتكون لغير ذلك، فلهذا لا يكون ذلك وصفاً لله جل وعلا.

ولهذا نقول: إن هذا من الإمام الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ من باب الخبر، والخبر يجوز أن تقول: الله موجود، والله شيء، لكن ما نسميه شيئاً، ولا نسميه موجوداً، وإنما هو من باب الإخبار فقط. فهذا مثله، فيجب أن نحمله على هذا.

قوله جل وعلا: ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، هذا دليل على التفرقة بين الخلق والأمر.

فالأمر: يكون بقوله وبكلامه، يقول ويأمر، وبذلك أرسل رسله.

أما الخلق: فهو بفعله جل وعلا، فالخلق يكون بالفعل، والخلق يكون أيضاً من الوصف.

قوله: «**الأول قبل كل شيء.. إلخ**» هذه إخبارات عما يخبر الله جل وعلا به عن نفسه، ومن يتكلم يكون أكمل ممن لا يتكلم.

قوله: «**يرضى ويسخط**» جاء في النصوص أن الله جل وعلا يغضب، ويحب، ويُبغض، وكذلك كونه يضحك تعالى وتقدس. ولكن إذا أخبر عن الله تعالى بهذه الأوصاف والأفعال التي ذكرها هنا، فهي تدل على أن الله جل وعلا يوصف بالفعل الذي يفعله، كما أنه يوصف بالأسماء

ذو الوجهِ الكريمُ، والسمعِ السميعُ، والبصرِ البصيرُ، والكلامِ المبينِ، واليدين والقبضتين، والقدرة والسلطان، والعظمة والعلم الأزلي، لم يزل كذلك ولايزال، استوى على عرشه، فبان من خلقه، لاتخفى عليه خافية، علمه بهم محيط، وبصره فيهم نافذ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

التي يتسمى بها.

ثم يجب أن نفرق بين الاسم وبين الوصف؛ لأن الاسم يدل على المسمى، فيمكن أن يقال: إن الاسم ما دل على الذات، فالرحمن اسمه، والعزيز اسمه، والرحيم اسمه تعالى وتقدس، فهذه أسماء تدل على ذاته.

أما الوصف: فهو المعنى الذي يقوم بذاته والأصل هو هذا، فالرحمن أخذ من الوصف الذي هو الرحمة، وهو أصله، والعزيز مأخوذ من العزة وهي وصفه تعالى وتقدس.

أما الخبر: فهو الذي يخبر بأنه يفعله، أو يُخبر عنه بأنه يفعله، فهذا فرق يجب أن نعتبره، حتى لا نقع فيما يخالف ضوابط أهل السنة والجماعة في هذه المسائل.

وقوله: «**ذو الوجه الكريم**» الكريم وصف لـ (ذو).

وقوله رحمه الله: «**السميع**» وصف لـ (ذو) وليس للسمع، لا يقال: السمع سميع.

وقوله رحمه الله: «**البصر البصير**» وصف لـ (ذو) كما تقدم.

قوله رحمه الله: «**الكلام المبين**» المبين وصف للكلام.

وكذلك قوله رحمه الله: «**واليدين والقبضتين**» أي ذو القبضتين، إلى آخر ما ذكر.

فبهذا الرب نُومن، وإياه نعبد، وله نصلي ونسجد، فمن قصد بعبادته إلى إله بخلاف هذه الصفات، فإنما يعبد غير الله، وليس معبوده بإله، كفرانه لا غفرانه، ....

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فبهذا الرب نؤمن وإياه نعبد**» يعني أننا عرفنا ربنا بما تعرَّف به إلينا من أسمائه وصفاته، وكذلك أفعاله التي يفعلها؛ ولأنه جل وعلا غيب ما يُطَّلع عليه وما يُشاهَد تعالى وتقدس، ولهذا جاء في تفسير السلف في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، قالوا: بالله[(١)]؛ لأنه يُؤمَنُ به على حسب ما أخبر عن نفسه تعالى وتقدس، أو أخبرت عنه رُسُله، وهو جل وعلا لا يرى إلا يوم القيامة، يراه المؤمنون دون الكافرين، ولهذا جاء في صحيح مسلم قوله ﷺ في حديث الدجال: «وتعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه ﷻ حتى يموت»[(٢)]، فالذي يدّعي أنه يرى الله في الدنيا كاذب، وإن كانت الرؤية قد تطلق ويراد بها رؤية المنام، ورؤيا المنام على حسب حال الرائي، كما هو معلوم، لأنها أمثال تُضرب له، فنعبد ربنا جل وعلا على ما أخبرنا به عن نفسه، وأخبرنا به رسوله ﷺ، وليس عن مشاهدة ورؤية.

وإنما معرفة الله جل وعلا بهذا الطريق: بأسمائه، وأوصافه، وأفعاله، ويدخل في أفعاله مخلوقاتُه، لأنها مقتضى أفعاله وصفاته، ولهذا يخبر جل وعلا بذلك: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، إلى آخر الآيات. وقوله جل وعلا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فيجب أن يكون هذا من الأدلة التي يدلنا ربنا جل وعلا بها على نفسه تعالى وتقدس.

---

(١) وهو قول عطاء وسعيد بن جبير. انظر زاد المسير (١/ ٢٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفتنة وأشراط الساعة، رقم (٢٩٣١)، وأخرجه المصنف في هذا الكتاب ص (١١٥).

فنشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، ....

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فنشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له**» يعني: أنه لا بد من هذا أولاً، أن نشهد أن الإله الحق هو الله، والإله اسم جنس، واسم الجنس هو الشائع في نوعه، كقولك: شجرة، ما تقصد شجرة معينة، وإنما تطلق على أي شجرة، رجل يصدق على كل رجل، فمثل هذا يسمى اسم جنس، وأسماء الأجناس هي الشائعة في نوعها التي لا يتعين واحد منها إلا بالتعيين، فلهذا تدخل عليها: «لا» النافية للجنس، التي تعمل عمل إن، يقول جل وعلا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٢]، فإله هنا جنس يطلق على الإله الحق والإله الباطل.

ومن هنا كره العلماء تسمية عبد الإله، فلا بد أن يعين أنه الإله الحق، ولذلك قال جل وعلا: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣] فالتأله يجب أن يكون للإله الحق جل وعلا .

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وأن محمداً عبده ورسوله**» وهكذا أيضاً يجب أن تكون الشهادة للرسول ﷺ بالتعيين باسمه العلم، الذي هو: «محمد»، ولا تقول: أشهد أن سيدنا رسول الله، لأنه ما يتعين بهذا، ولأجل ذلك جاء تعيين اسمه في الأمور التي لا بد منها، مثل: الدخول في الإسلام لا بد أن يذكر هذا، والرسول ﷺ كان يقول: أشهد أن محمداً عبده ورسوله، ويُعلم أصحابه أن يقولوا ذلك[1].

(١) من أمثلة ذلك: حديث ابن مسعود رضي الله عنه في تعليم النبي ﷺ التشهد في الصلاة لأصحابه، وفيه: «فإذا صلى أحدكم فليقل: التحيات لله... إلى أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» أخرجه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢).

اصطفاه لوحيه، وانتجبه لرسالته، واختاره من خلقه لخلقه، فأنزل عليه كلامه المبين، ....

وهو ﷺ بدأ بالعبد قبل الرسول بقوله: «**أن محمداً عبده ورسوله**»، فمعنى ذلك أنه عبد ليس له مع الله شيء، لا في الخلق، والإيجاد، والتصرف، ولا التأله وهو العبادة، وإنما أكرمه الله بكونه رسوله.

قوله رحمه الله: «**اصطفاه لوحيه**»، الاصطفاء هو الاختيار، وقد اختاره سبحانه من بين عباده، لأن يجعله أميناً على وحيه يبلغه عباده.

قوله رحمه الله: «**وانتجبه لرسالته**»، ويحتمل أنها «وانتخبه» بالخاء. والانتجاب هو من الاختيار، فمعناه: أنه اختاره وصار نجيباً أي مختاراً من بين الخلق، وهو معنى الاصطفاء[1]، اختاره لرسالته من خلقه لخلقه، وهذا من رحمته جل وعلا.

قوله رحمه الله: «**فأنزل عليه كلامه المبين**» صدّر كلامه بالإشارة إلى صفة الكلام؛ لأن من أهم ما سيذكر في هذا الكتاب إثبات الكلام لله جل وعلا، لأن أهل الباطل زعموا أن الله لايتكلم، تعالى الله وتقدس، ولا يزال هذا الزعم موجوداً عند كثير من الناس، ولا سيما عند الذين يدعون أنهم أهل السنة، وأقصد بذلك الأشاعرة، الذين يقولون: إن الكلام ينقسم إلى قسمين[2]:

القسم الأول: الكلام اللفظي، أي: بحرف وصوت، وهذا لا يتكلم الله به عندهم، فهذا من الممتنعات عندهم.

القسم الثاني: كلام معنوي، وهذا هو الذي يثبتونه، يقولون: هو

---

(١) قال الخليل بن أحمد في كتاب العين (١/ ١٥٢): «وانتجبته: أي استخلصته واصطفيته اختياراً على غيره» اهـ. وانظر لسان العرب (١/ ٧٤٨).

(٢) انظر: تحفة المريد للباجوري الأشعري (١٢٩ ـ ١٣٠).

وكتابه العزيز الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾ [الزمر: ٢٨]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٩]، فيه نبأ الأولين، وخبر الآخرين، لا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، غير مخلوق، ولا منسوب إلى مخلوق.

المعنى الواحد القائم بالذات، وهذا أمر لا حقيقة له، يجعلون هذا وصف الله جل وعلا، ثم يزعمون أنهم أهل السنة، وهم من أبعد الناس عن السنة في مثل هذه الأمور، وإن كان هذا الذي يقولونه وغيره من الصفات التي خالفوا فيها أهل السنة لم يقصدوا به الباطل، وإنما أداهم التأويل إلى ذلك، فلهذا هم ما خرجوا عن الدين الإسلامي بذلك، ولكنهم ضلوا، إذا كانوا غير معذورين بأن تبين لهم الحق، ثم تمادوا بذلك فهم آثمون ظالمون، والله يجزيهم على ذلك.

أما إذا كانوا عن نية يقصدون بها الخير وطلب الحق، ولكنهم أخطؤوا فالمجتهد الذي هو أهل للاجتهاد يُعذر باجتهاده، ويكون خطؤه معفوّاً عنه؛ لأن هذا لا يشملهم كلهم، وإن منهم من يعرف الحق ثم يتمادى في تركه إما تعصباً أو بغضاً للحق وأهله، وهذا سيلقى جزاءه عند ربه جل وعلا.

وقوله: «**وكتابه العزيز الذي**: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾» يعني: لا يأتي الباطل إلى كلام الله جل وعلا لا متقدماً ولا متأخراً، فكلام الله كامل، جاء بالحق البين، ويجب أن يوصف الله جل وعلا به، ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، فهو حكيم حيث أنزله، وحيث وضعه في موضعه. وقوله: «حميد» يعني محمود يجب أن يحمد على ذلك.

قوله: «﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾» يعني: جعله الله جل وعلا عربياً

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: ٦].

تكلم به حقيقة، فأسمعه جبريل، وجبريل جاء به إلى محمد ﷺ، ومحمد أبلغه الأمة، وكل ما قاله الله جاء به إلينا حتى القول الذي يُوجه له، كقوله جل وعلا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]، فقال لنا: ﴿قُلْ﴾، وقال الله له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١]، فقال لنا مثل ما قيل له: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾، وهذا دليل على أنه بلغ كل ما سمع، وكل ما جاء به جبريل.

وبعض الذين يُقرئون الآن القرآن، يجيزون من أخذ عنهم بأسانيدهم، وهذه الأسانيد أحياناً تشتمل على باطل، والباطل قد يكون مقصوداً وقد لا يكون مقصوداً، يقول: أقرأني فلان، وفلان أقرأه فلان إلى أن يقول: أقرأني رسول الله، ورسول الله أقرأه جبريل، وجبريل أخذه من اللوح المحفوظ، هذا خطأ، جبريل أخذه من الله، وليس من اللوح المحفوظ، ولكن هذه عقيدتهم هكذا، يزعمون أنه أخذه من اللوح المحفوظ، وذلك هروباً من أن يكون الله جل وعلا تكلم به حقيقة[1]، أنزله جل وعلا على محمدٍ ﷺ بواسطة جبريل الذي سماه: الروح الأمين، فهو روح لأن الله سماه روحاً، وبه تحصل الحياة التي هي الحياة الحقيقية، حياة القلوب بما يأتي به من عند الله جل وعلا، نزل به على قلبك ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٤] على قلب الرسول أي هذا خطاب له ﷺ، وهو خطاب للأمة كلها.

قوله: ﴿لَتُلَقَّى﴾ يعني: تتلقاه، وتلقّيه من جبريل عليه السلام كما هو معلوم.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/٥٠٢) فقد نبه شيخ الإسلام على أن من قال: «إن الله لم يكلم جبريل بالقرآن، وإنما أخذه من اللوح المحفوظ؛ فهو ضال مفتر كاذب باتفاق سلف الأمة وأئمتها، وحقيقة قوله قول الجهمية».

وقـــال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]، من قال به صدق، ومن تمسك به هُدي إلى صراط مستقيم.

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦]، فقرأه كما أمر، ودعا إليه سراً وجهراً، فلما سمع المشركون آيات مبينات قالوا: ساحر، وكاهن، وشاعر، ومعلم مجنون، ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٦-٧]، و﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ٢٥]، ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ

وقال جل وعلا: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، أي: أن الله تكلم بلسان عربي، وهذا من شرف العرب وتكريم الله لهم، فيجب أن يحمدوا الله جل وعلا، لأن الله خصهم بأن أنزل القرآن بلغتهم، ومعلوم أن من نزل القرآن بلغته فإنه يكون أقرب إلى الفهم، خلاف الذي يتعلم اللغة فإنه قد يلاقي أموراً صعبة، حتى يعرف مراد الله جل وعلا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**من قال به صدق، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم**» يعني حكم به، وكذلك اعتقد ما دل عليه وعمل به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾» [الإسراء: ١٠٦]

قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ المقصود بـ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ هنا: أنه جُعل بيّناً، واضحاً، جليّاً لا خفاء فيه، قال: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ يعني بيّناه ووضّحناه وفصّلناه.

قوله: «**قالوا: ساحر وكاهن وشاعر ومعلم مجنون.. إلخ**» ذكر عن الكفار أنهم اختلفوا في هذا، مرةً يقولون: سحر، ومرةً يقولون: كهانة، ومرة يقولون: أساطير الأولين، ومرةً يقول: إنه مختلق، أي مكذوب

ﵟٱلۡأَوَّلِينَﵞ [الأنفال: ٣١]، وقالوا: ﵟإِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَﵞ [الفرقان: ٤]، ﵟوَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلٗا ۝٥ﵞ [الفرقان: ٥] ﵟإِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞﵞ [النحل: ١٠٣]، مخلوق بكلام مخلوق مختلق.

فكذب الله ﷻ قولهم، وأبطل دعواهم؛ فقال تعالى: ﵟفَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗاﵞ [الفرقان: ٤] وقال تعالى: ﵟقُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦ﵞ [الفرقان: ٦] وقال تعالى: ﵟقُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٠٢ﵞ [النحل: ١٠٢]، وقال: ﵟلِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌﵞ [النحل: ١٠٣]، ثم قال: ﵟلَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗاﵞ [الإسراء: ٨٨].

وكذب، وكل هذا يدل على ضلالهم، وأنهم حاروا فيه، ولم يقولوا قولا يتتابعون عليه، فإذا اختلفت الأقوال دلت على أنها باطلة، فكل قول قالوه في هذا فهو باطل وكذّبهم الله جل وعلا به، فهو قول الله جل وعلا، ولهذا تحداهم بأن يأتوا بشيء من مثله، فما استطاعوا مع شدة عداوتهم للرسول ﷺ، وحرصهم على إبطال دعوته، وقد أوتوا من الفصاحة والبلاغة والبيان والمقدرة على الكلام ما هم معروفون به ومع ذلك عجزوا؛ لأنه لا يمكن لبشر أن يأتي بشيء من مثل كلام الله جل وعلا.

ولهذا تحداهم، ﵟقُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨ﵞ [الإسراء: ٨٨]، يعني معاوناً ومساعداً، وفي الآية التي في سورة البقرة: ﵟوَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن

ثم ندبهم جميعاً إلى أن يأتوا بمثله تخرصاً وتعلماً من الخطباء والشعراء وغيرهم إن كانوا صادقين؛ فقال تبارك وتعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ويأتوا بسورة مثله، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣].

فلم يقدر الجن والإنس عربها وعجمها، من عبدة الأوثان، وعلماء أهل الكتابين أن يأتوا بسورة ولا ببعض سورة، ....

كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]، ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ يعني في الواقع، ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ في المستقبل، إلى يوم القيامة، والآن أمريكا عندها محاولات لتأتي بقرآن، وقد بدؤوا بذلك وأصدروا بعض أجزائه وسموه: الفرقان الحق[1]، ومعنى ذلك أن القرآن الذي عند المسلمين باطل على زعمهم، وسوف يبوؤون بالفشل، وقرآنهم الذي يصدرونه مضحك وكله سخافات، وأمور لا تنطلي إلا على الجاهل الذي لا يعرف القرآن، فقد يتشكك مثل هذا، ولهذا ينشرونه في البلاد التي لا تعرف اللغة العربية، وقد سبقت محاولات من أمثالهم كثيرة، وكل المحاولات ستبوء بالفشل كما أخبر الله جل وعلا بذلك، وتدل على خزي من فعل ذلك، ولهذا قال جل وعلا: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]، أي لن يستطيعوا ولا يمكن لأحد أن يأتي بشيء؛ لأنه كلامه تعالى وتقدس، وكلامه من صفاته، فالقرآن صفته ﷻ.

---

(١) تنظر مقالة لأمين العام لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف: د. محمد سالم بن شديد العوفي، بعنوان: قراءة في الكتاب المزعوم: الفرقان الحق، وهي منشورة على الشبكة.

ولو علموا أنهم قادرون عليها لدعوا شهداءهم إلى ذلك، وبذلوا فيها الرغائب من الأموال وغيرها لخطبائهم وشعرائهم، وأحبارهم، وأساقفتهم، وكهنتهم وسحرتهم أن يأتوا بسورة مثلها، تصديقاً لما ادّعوا من الزور تكذيباً بمحمد ﷺ، وأنى يأتي المخلوق بمثل كلام الخالق؟! وكيف يقدر عليه؟! وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البَقَرَة: ٢٤] فلن تفعلوا إلى يوم القيامة، فكما أنه ليس كمثله شيء، فليس ككلامه كلام.

فلم يزل رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الله، وإلى كتابه وكلامه، سراً وجهراً، محتملاً لما ناله من أذاهم، صابرا عليه حتى

قوله: «**ولو علموا أنهم قادرون عليها**» يعني على السورة أن يأتوا بسورة مثلها.

قوله: «**ويأتوا بسورة مثله**» هذا الضمير يعود على ما سبق من السورة التي ذكرها.

قوله: «**ليس كمثله شيء، فليس ككلامه كلام**» هذا القياس في ذاته جل وعلا، وفي أوصافه ـ فلا تكون كذوات المخلوقين وأصافهم ـ هو قياس صحيح يجب أن يطَّرد، ولهذا قلنا: إن الوصف تابع للموصوف، والصفات تتبع الموصوف، فصفة الله جل وعلا تخصه، وصفة المخلوق تخصه، أما الاشتراكات التي تكون في أذهان بعض الناس فهذه تزول عند الإضافة أو التخصيص، يعني أن تقول: هذه لله، وهذه للمخلوق، فيزول الاشتراك اللفظي الذي اشتبه على كثير من الناس، وصار من الشُّبه الكبيرة التي حالت بينهم وبين الوصول إلى الحق، والشبه في هذا كثيرة، ولكن لا ينبغي أن تثار لمن سلمه الله منها، فتركها والإعراض عنها أولى؛ لأنها إذا أثيرت وذكرت فقد تَعْلَق في ذهن الإنسان ويصعب إخراجها، ومن هنا كره السلف ذكر الشبه التي يذكرها أهل الكلام.

أظهره الله وأعزه، وأنزل عليه نصره، فضرب وجوه العرب والعجم بالسيوف، حتى ذلوا ودانوا، ودخلوا في الإسلام طوعاً وكرهاً، واستقاموا حياتَه وبعد وفاته، لا يجترئ كافر ولا منافق متعوّذ بالإسلام أن يُظهر ما في نفسه من الكفر وإنكار النبوة، فَرَقاً من السيف، وتخوفاً من الافتضاح، بل كانوا يتقلبون مع المسلمين بغمٍّ، ويعيشون فيهم على رغم، دهراً من الدهر، وزماناً من الزمان.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «**واستقاموا في حياته وبعد وفاته**» يعني: أتباعه الذين صاروا له أنصاراً، وأخذوا الإيمان عنه، وقبلوه وتحلّوا به، وصاروا يبذلون نفوسهم وأموالهم في سبيل الدفاع عن عقيدته وما جاء به ودعوة الناس إلى ذلك في القول والفعل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «**لا يجترئ كافر ولا منافق متعوّذ بالإسلام أن يُظهر ما في نفسه من الكفر وإنكار النبوة فَرَقاً من السيف**» هذا يدل على أن كثيراً ممن يتكلم بهذه الشبه ليسوا مؤمنين، وأنهم حاقدون على الإسلام، يتربصون به، ولهذا دلائل كثيرة ينبغي لطلاب الدراسات العليا أن يبحثوها، ويجعلوا ذلك في رسائل تتحقق في هذا، وتذكر الأدلة عليه وهي مسطورة وموجودة في كتب التاريخ، وفي كتب التفسير، وغيرها، لاسيما التاريخ الذي يكتبه أهل السنة في هذا، وكذلك ينبغي أن يكتبوا في تحرير المقالات وغيرها فهو أمر مهم، وقد أُعرِض عنه كثيراً، وكثيراً ما نرى أن المقالة تنسب إلى رجل وفي تلك النسبة نظر، فمثلاً: مقالة نفي القدر نسبوها إلى معبد الجهني[١]، فهل هذا صحيح؟ إلى معبد فقط؟

---

(١) ساق مسلم في صحيحه عن يحيى بن يَعْمر أن أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني كتاب الإيمان، برقم (٨). حيث حدده بالبصرة لا غير.
وانظر في أخبار معبد وما قيل حوله: القدر للفريابي (٢٠٤) وما بعدها، والتاريخ الكبير للبخاري (٧/ ٣٩٩) والسنة للخلال (٣/ ٥٢٦) والضعفاء للعقيلي (٤/ ٢١٧) =

. . . .

اختلفت النسبة في هذا عند كثير من المؤرخين، منهم من يقول: معبد الجهني! ومنهم من يقول: رجل من النصارى! ومنهم من يقول: رجل من المجوس يقال له: سيسويه[١]!.

ومثل ذلك إنكار الصفات، قيل: إن أول من فاه به الجعد بن درهم، فقد أنكر أن يكون الله جل وعلا يُحب أو يحب، أو أنه له خليل، أو يتخذ خليلاً، وهذا هو أصل الإسلام، فهذا هو يدل على أن هناك مؤسسات أسست لهدم الإسلام كما قال ابن حزم رحمه الله في الفصل[٢]: قال إنهم لما عجزوا عن مقابلة جيوش الإسلام وسيوفه لجؤوا إلى الحيل وإلى الدس، ورأوا أنه لا يمكن كسر جيوش الإسلام إلا بزعزعة العقائد التي جمعتهم، وإلا فمعلوم أن العرب قبل مجيء الرسول ﷺ من أقل الأمم قدراً، فهم متفككون، متناحرون، متفرقون، فلما جاء الإسلام اجتمعوا فلم يقف في وجوههم أحد حتى استولوا على غالب الأرض التي وصلوا إليها في وقت وجيز؛ في خمس وعشرين سنة فقط، وهذا من أغرب ما يكون، إلى يوم الناس هذا والكفار يتعجبون من هذا ويتخذونه محل دراسة، ولهذا سلكوا مسالك عديدة يحاربون بها المسلمين حتى لا يستيقظوا ويرجعوا إلى ما كان عليه أوائلهم، لأنهم إذا رجعوا إلى ما كان عليه أوائلهم فإنه لا يمكن أن يقف في وجوههم أحد.

والرسول ﷺ أخبر أنه خُص بأمور، منها: أنه نصر بالرعب مسيرة

= والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٣/ ٥٢٦) وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٤/ ٨٢٧) وتاريخ الإسلام (٢/ ١٠٠٨).

(١) انظر القدر للفريابي (٢٤٠) والشريعة للآجري (٢/ ٩٥٨) وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٨٢٦) ولإبانة الكبرى (٤/ ٢٩٩) وتاريخ الإسلام (٣/ ٢٩٤)

(٢) الفِصل في الملل والأهواء والنحل (١/ ١٦٤، ٢/ ٣٣، ٩١).

وكان أول من أظهر شيئاً منه بعد كفار قريش: الجعد بن درهم بالبصرة، وجهم بخراسان، اقتداء بكفار قريش، فقتل الله جهما شر قتلة.

شهر[١]، وأنه جعل رزقه تحت ظل رمحه، وأنه جعلت الذلة والصَّغار على من خالف أمره[٢]، فهذه الخصائص ليست خاصة به فقط، بل لمن اتبعه من أمته.

المقصود أن هذا الموضوع مهمٌ، يجب أن يعتنى به طلاب الدراسات الذين يكتبون في العقائد، وهو يتبين لمن تتبع الأحوال والأمور، ومثل هذا الكلام أشار إليه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «خلق أفعال العباد»[٣]، كما أشار إليه شيخ الإسلام في كثير من كتبه[٤]، وصرح بذلك ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الفصل»، وغيرهم كثير، فمعنى ذلك أن جهات كثيرة تعاونت على هذا، ولكن يقدمون الرجل الذي عنده جرأة فتنسب الأمور إليه، ويقال: إنه ينسب إلى فلان وفلان كما تقدم قريباً.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وكان أول من أظهر شيئاً منه بعد كفار قريش الجعد بن درهم بالبصرة**» الجعد بن درهم متهم بأنه يهودي، والسند الذي ذكره

---

(١) قوله: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» أخرجه البخاري كتاب التيمم، برقم (٣٣٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وأخرجه أيضاً مختصراً من حديث أبي هريرة، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»، برقم (٢٦٧٧) ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢٣).

(٢) قوله: «جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري» علقه البخاري في صحيحه بصيغة التمريض عن ابن عمر رضي الله عنهما، في كتاب الجهاد، باب ما قيل في الرماح (٤/ ٤٠) وأخرجه أحمد في مسنده موصولاً (٩/ ١٢٣) برقم (٥١١٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ٢١٢) برقم (١٩٤٠١).

(٣) ينظر (٢/ ٣١).

(٤) نظر مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٨٤)، ومنهاج السنة (٤/ ٤٧٩).

....

الإمام أحمد عنه سند يهودي يتصل بأحد اليهود السحرة الذين سحروا رسول الله ﷺ، يقال: إنه أخذ عن أبان بن سمعان، وأبان بن سمعان أخذ عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم الساحر الذي سحر رسول الله ﷺ فهذا أيضاً مما يدل على أن هناك مؤسسات أسست لمحاربة الإسلام. ومثل ذلك يقال في مذهب الرفض الذي أصَّلَه ابن سبأ اليهودي، وقد جاء من يهود صنعاء، واسمه: عبد الله بن وهب، ونشر في الناس أن الرسول ﷺ له وصي وما مات رسول إلا وله وصي، ووصيُّه علي بن أبي طالب، ثم طمع في الغوغاء من الناس حتى قال لهم: إن الإله حلَّ في علي، حتى إنهم واجهوا علياً رضي الله عنه بهذا القول، واعترضوه عدة مرات وهو يخرج من بيته إلى المسجد، وهم عدد كبير يقولون له: أنت هو، قال: من أنا، قالوا: أنت إلهنا، قال: ويلكم! هذا الكفر إن لم ترجعوا قتلتكم، فلما تكرر هذا غضب لله جل وعلا، وخد أخدوداً أي حفر حفراً، وأضرمها ناراً وألقى الذين تمكن منهم فيها أحياءً حرّقهم في النار غضباً لله جل وعلا، وفَرَّ هذا الخبيث منه حتى يكمل الدعوة إلى فساده فذهب إلى الشام، ثم ذهب إلى مصر، فهو الذي ألب على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه فقُتل بسبب ذلك، ولم يكن الصحابة يظنون أن الأمر يصل إلى هذا الحد، فلما قتل سُقط في أيديهم، ورأوا أنهم فرطوا في الأمر ولم يقوموا بما يجب من الدفاع عن الخليفة، ولكنه أمر قدر كما هو معلوم، وكان عثمان رضي الله عنه ينهى عن القتال، ويقول: لا أكون أنا سبباً في سفك الدماء، وأصبر حتى ألاقي الله جل وعلا[1].

---

(١) انظر الشريعة للآجري (٤/ ١٩٧٩، ١٩٨٤)، وفي تأليب ابن سبأ على عثمان: تاريخ الطبري (٤/ ٣٤٠)، والمنتظم (٥/ ٤٩)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٦٣).

وأما الجعد؛ فأخذه خالد بن عبد الله القَسْري، فذبحه ذبحاً بواسط، في يوم الأضحى على رؤوس من شهد العيد معه من المسلمين، لا يعيبه به عائب، ولا يطعن عليه طاعن، بل استحسنوا ذلك من فعله، وصوبوه من رأيه.

حدثنا القاسم بن محمد البغدادي، ثنا عبد الرحمن بن محمد بن حبيب بن أبي حبيب، عن أبيه، عن جده حبيب بن أبي حبيب قال: خطبنا خالد بن عبد الله القسري بواسط يوم الأضحى، فقال: «أيها الناس ارجعوا فضَحُّوا، تقبل الله منا ومنكم؛ فإني مُضَحٍ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، وتعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علوّاً كبيراً. ثم نزل فذبحه»[1].

المقصود: أن كل هذا من الدلائل التي أشار إليها هنا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «**نبحه نبحاً بواسط، في يوم الأضحى على رؤوس من شهد العيد**» ومعنى ذلك أنه كان موضوعاً له منبر يوم العيد، فنزل وذبحه تحت المنبر أضحية، ضحى به لله جل وعلا، وهو أفضل أضحية في مثل هذا؛ لأنه زنديق داعٍ إلى الزندقة وإلى الكفر بالله جل وعلا، ولكن أخذ تلك المقالة عنه شيطان آخر، اسمه الجهم بن صفوان الترمذي، وبعضهم ينسبونه إلى سمرقند، أصله أعجمي، ولكنه كما قال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ[2]: أُعطي فصاحةً وبلاغةً وصار داعية للباطل، فكان مع الحارث بن سريج

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٢٩)، والآجري في الشريعة (٣/ ١١٢٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٤٦).

(٢) «كان ذا أدب ونظر وذكاء وفكر وجدال ومراء» تاريخ الإسلام (٨/ ٦٦)، ونقل عن مقاتل أنه قال عن جهم «إنام كان رجلا قد أعطي لساناً» السابق (٨/ ٦٧).

. . . .

التميمي ـ الذي خرج على بني أمية ـ كاتباً له وكان يدعو إلى مذهبه، ودعوته انتشرت في المشرق، ثم ظفر به سلم بن أحوز أحد قادة بني أمية فقتله، وقد توسط به إليه من توسط، وحاولوا أن يشفعوا له فأبى، إلا أنه قتله لأجل خروجه عن طاعة ولاة الأمر وشق عصا المسلمين، هذا في الظاهر، وبعضهم ذكر عنه كلاماً يدل على خلاف هذا، وهو أنه لما جاء بعض الشفعاء قال لهم: اسمعوا، والله لو كان هذا الرجل في بطني لشققت عنه حتى أقتله، لأني سمعت منه كلاماً لن أتركه، فإذا ثبت هذا فمعنى ذلك أنه قتله لكفره وزندقته[1].

على كل حال؛ لما قُتل قُتل لأنه استحق القتل سواء كان لهذا أو لهذا، وقد ذكر الإمام أحمد[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه شك في ربه جل وعلا وبقي أربعين يوماً لم يصلّ، لأنه لا يدري من يعبد، لما ناظر أناساً من السُّمَنِيّة الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوسات، قالوا: أخبرنا عن ربك الذي تعبد هل أنت شَمَمْتَه، أو لَمِسْته، أو رأيته؟ ثم حار، ثم هداه الشيطان إلى أنه في الكون كله، وأنه حالٌ في كل شيء، فصار هذا مذهبه، ولهذا انقسم الجهمية إلى قسمين:

القسم الأول: جهمية غلب عليهم النظر والاستدلال بالعقل، فهؤلاء آل أمرهم إلى أن يكونوا ملاحدة، لا يعبدون شيئاً.

القسم الثاني: جهمية غلب عليهم التعبد، فكانوا يعبدون كل شيء، يعبدون الكون كله، وهذا لا يزال موجوداً عند كثير من الناس، ومنهم من يقول: إن الله في كل مكان حتى في جوفه وفي بطنه، تعالى الله وتقدس، فهذه من نتائج هذه الدعوة الباطلة الخبيثة.

---

(١) انظر تاريخ الإسلام (٨/ ٦٧) والبداية والنهاية (١٣/ ٢١٦ ـ ٢١٧).

(٢) في الرد على الزنادقة والجهمية (٩٣ ـ ٩٥).

قال أبو سعيد: ثم لم يزالوا بعد ذلك مقموعين، أذلة مدحورين، حتى كان الآن بأَخَرَةٍ، حيث قَلّت الفقهاء، وقبض العلماء، ودعا إلى البدع دعاة الضلال، فشد ذلك طمع كل متعوذ في الإسلام، من أبناء اليهود والنصارى وأنباط العراق، ووجدوا فرصة للكلام.

فجدُّوا في هدم الإسلام، وتعطيل ذي الجلال والإكرام، وإنكار صفاته، وتكذيب رسله، وإبطال وحيه، إذ وجدوا فرصتهم، وأحسوا من الرّعاع جهلاً، ومن العلماء قلة، فنصبوا عندها الكفر للناس إماماً يدعونهم إليه، وأظهروا لهم أُغلوطات من المسائل، وعمايات

ثم إن هذا هو مبدأ الحروب الكلامية التي مزقت المسلمين إلى اليوم، وآثارها سيئة في المجتمع الإسلامي.

وكثير من الناس يستهين بهذه الأمور، وقد سمعت من يقول: إنكم لا تزالون تنبشون القبور، تبحثون عن أمور قد أكل الدهر عليها وشرب، دعونا من الكلام في جهم، ومن الجعد، وفي الخلاف في كلام الله، وفي أسماء الله، وصفاته، واتجه إلى الأمور الحاضرة الموجودة، فهذا كلام الذي لا يفهم ولا يعرف أصول الأمور ومرجعها.

قال: «**ثم لم يزالوا بعد ذلك مقموعين أذلة مدحورين حتى كان الآن بأخرة..**» هذا الكلام يقوله وهو في آخر القرن الثالث، فكيف بالحال الآن، يومئذ كان العلماء أكثر من العمال عندنا اليوم، أما في وقتنا هذا الذي أقفرت البلاد من العلماء الذين يقتدى بهم، ويوجد اليوم طلبة علم، ونرجو لهم التوفيق والسداد وأن يجعل الله فيهم البركة، ولكن العلم الحقيقي هو ما كان عليه هذا الرجل وأمثاله كالبخاري، والإمام أحمد، وغيرهم من العلماء في ذلك الوقت كانوا كثيراً، ومع ذلك يقول: إنه في وقته فقد العلماء، لأنه كلما بعد العهد عن وقت النبوة ضعف الأمر وضعف العلم، وهذا أمر متحقق.

من الكلام، يغالطون بها أهل الإسلام، ليوقعوا في قلوبهم الشك، ويَلْبسوا عليهم أمرهم، ويشككوهم في خالقهم، مقتدين بأئمتهم الأقدمين، الذين قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٥] و﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧].

فحين رأينا ذلك منهم، وفَطِناً لمذهبهم، وما يقصدون إليه من الكفر وإبطال الكتب والرسل، ونفي الكلام والعلم والأمر عن الله تعالى، رأينا أن نبين من مذاهبهم رسوماً من الكتاب والسنة وكلام العلماء، ما يستدل به أهل الغفلة من الناس على سوء مذهبهم، فيَحْذروهم على أنفسهم وعلى أولادهم وأهليهم، ويجتهدوا في الرد عليهم، محتسبين منافحين عن دين الله تعالى، طالبين به ما عند الله.

قوله: ﴿ٱخْتِلَٰقٌ﴾ يعني: كذب، أي أنه مكذوب، فهذا وإن لم يصرحوا به صراحةً لكن هذا الذي تدل عليه أفعالهم وأقوالهم، فإن كانوا يأتون بأقوال مجملة، وأقوال مبهمة قد تنطلي على بعض الناس، ويدّعون أنهم بذلك ينزهون الله، والواقع أنهم يعطلون الله جل وعلا عن أسمائه وأوصافه، ولهذا آل أمرهم إلى ألا يعبدوا شيئاً وإنما يعبدون عدماً، فالذين يصفونه ليس هو الله جل وعلا، بل هو إلههم الذي في أدمغتهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فحين رأينا ذلك منهم، وفطنا لمذهبهم وما يقصدون إليه..**» يعني: أن هذا هو سبب تأليفه للكتاب، والكتاب قصد به طائفة معينة، وهم الجهمية وليس رجلاً معيناً.

والجهمية كانوا يُنسبون أولاً إلى هذا الرجل، الذي سبق ذكر قصته، ثم صارت الجهمية تطلق على كل من نفى صفات الله، فكل من نفى الصفات يسمونه جهمياً نسبةً إلى هذا الرجل.

القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ له كتيب سماه: تاريخ الجهمية، نحى فيه منحىً غريباً،

وقد كان من مضى من السلف يكرهون الخوض في هذا وما أشبهه، وقد كانوا رُزقوا العافية منهم، وابْتُلينا بهم عند دُروس الإسلام، وذهاب العلماء، فلم نجد بُدّاً من أن نرد ما أتوا به من الباطل بالحق، وقد كان رسول الله ﷺ يتخوف ما أشبه هذا على أمته، ويحذرها إياهم، ثم الصحابة بعده والتابعون، مخافة أن يتكلموا في الله وفي القرآن بأهوائهم فيَضِلوا، ويَتَماروا به على جهل فيكفروا، فإن رسول الله ﷺ قد قال: «المراء في القرآن كفر»(١) .

وزعم أننا لم نصل إلى الحقائق التي قُتل من أجلها الجهم، وإنما الجهم قُتل لأمور سياسية وليست أمور دينية، وقال: إن الأمور المذكورة التي ذكرت في التاريخ وغيرها لا يُعتمد عليها، لأنها جاءت من أناس يؤرخون لأمور معينة(٢)، وهذا اتهام لا يجوز أن يوجه إلى علماء المسلمين، أو إلى المؤرخين، لأن هذه أمور رويت بالأسانيد، وأجمع عليها كثير من أهل السنة، فهذه دعوى!

قوله: «**المراء**» هو المجادلة والاختلاف، كونهم يجادلون فيه ويختلفون فيه، وقد جاء النهي عن هذا من عدة طرق عن النبي ﷺ، فكان يغضب أشد الغضب إذا حصل شيء من ذلك، وقد يكون هذا سبباً في منع شيء من العلم.

وقد ثبت أنه ﷺ خرج ليخبر الناس بليلة القدر، فتلاحى رجلان،

(١) أخرجه أحمد (١٣/ ٣٦٩) برقم (٧٩٨٩)، (١٥/ ٢٨٨ ح ٩٤٧٩)، ومن طريقه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب النهي عن الجدال في القرآن (ح ٤٦٠٣)، والنسائي في الكبرى، كتاب فضائل القران، باب المراء في القرآن (ح٨٠٣٩) من حديث أبي هريرة، وصححه ابن حبان (الإحسان ٤/ ٣٢٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٢٨)، والألباني في تعليقه على المشكاة برقم (٢٣٦).

(٢) انظر تاريخ الجهمية والمعتزلة (٣٠ وما بعدها) (٤٦ ـ ٤٧).

. . . .

فقال: «إني خرجت لأخبركم بليلة القدر، وإنه تلاحى فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيرا لكم»[١]، وذكر أنه كان يرى أنه في صبيحتها يسجد في ماء وطين، كما في حديث أبي سعيد الخدري[٢]، يقول: وكان سقف مسجد الرسول ﷺ من جريد النخل: «فرجعنا وما نرى في السماء قزعة، فجاءت سحابة فمطرت حتى سال سقف المسجد، وكان من جريد النخل، وأقيمت الصلاة، فرأيت رسول الله يسجد في الماء والطين، حتى رأيت أثر الطين في جبهته» ولهذا كان يقول أبو سعيد: ليلة القدر هي ليلة إحدى وعشرين من رمضان.

فالمقصود بيان نهيه ﷺ عن المراء والمجادلة بغير حق، والشاهد قوله: خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فنُسيتها.

وكذلك لما خرج عليهم كما في حديث عبد الله بن عمرو، وهم يتمارون في القدر ويختلفون فيه غضب أشد الغضب، فكأنما فُقئ حب الرمان في وجهه من شدة الغضب، وقال: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»[٣]، فهو ﷺ يكره أشد الكراهة وينهى أشد النهي عن المجادلات والمخاصمات، والقرآن نزل للعمل، وليس للمجادلات والخصومات التي قد تدعو إلى اعتناق الباطل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، برقم (٤٩) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، برقم (٢٠١٦) ومسلم، كتاب الصيام برقم (١١٦٧).

(٣) أخرجه أحمد (١١/ ٢٥٠ ح ٦٦٦٨) وابن ماجه في مقدمة سننه، باب في القدر (ح ٨٥) وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات (مصباح الزجاجة ١/ ١٢٩ ط الجامعة الإسلامية).

وحتى إن بعضهم كانوا يتقون تفسيره، لأن القائل فيه إنما يقول على الله.

قال أبو بكر الصديق ﷺ: «أيُّ أرضٍ تُقِلُّني، وأيُّ سماء تُظِلُّني، إذا قلتُ في كلام الله ما لا أعلم».

وسئل عَبيدةُ السلماني عن شيء من تفسير القرآن، فقال: «اتق الله، وعليك بالسداد، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أُنزل القرآن»[١].

والانتصار له، وعلى أصحاب الجدل والمراء أنهم لا يخلون من ذلك.

وقد سئل أبو بكر ﷺ عن قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ ما هو الأَبُّ، فقال هذا القول.

وذكر بعض علماء أفريقيا أنه كتب تفسيراً للقرآن، فلما وصل إلى قول الله جل وعلا: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾، مزق كتابه وأحرقه، قال: أخشى أني قلت على الله قولاً لا أعلمه، فأكون داخلاً في هذا الوعيد الشديد.

المقصود: أن السلف كانوا يخافون أشد الخوف من الكلام في تعيين مراد الله جل وعلا في شيء قد يكون فيه إجمال، وقد يكون فيه شيء من الخفاء فقط، وإلا فالله جل وعلا خاطبنا بخطاب واضح وجلي، قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧]، قال العلماء: هل من طالب للعلم فيُعان، وهو جل وعلا يسره وسهله، فمن أراد الحق فهو واضح وجلي.

قول عَبيدة السلماني: «**فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل القرآن**»، يعني الصحابة؛ لأن عَبيدة السلماني من كبار التابعين.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١/ ٨٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٠٠٩٩).

فهذا الصّدّيق خير هذه الأمة بعد نبيها، والخليفة بعده، قد شهد التنزيل، وعاين الرسول، وعلم فيما أنزل القرآن، إلا ما شاء الله، ويتوقى أن يقول في القرآن، مخافة أن لا يصيب ما عنى الله فَيَهْلِك، ثم عَبيدة السلماني بعده، وكان من كبار التابعين، فكيف بهؤلاء المنسلخين من الدين والعلم، الذين ينقضونه نقضاً، ويفسرونه بأهوائهم خلاف ما عنى الله، وخلاف ما تحتمله لغات العرب.

ولقد قال بعض أهل العلم: لا تَهلِك هذه الأمة حتى تظهر فيهم الزندقة، ويتكلموا في الرب تبارك وتعالى.

قوله: «**الزندقة**» المقصود بها النفاق، فالزنديق هو المنافق[1].

قوله: «**ويتكلموا في الرب**» أي يصبح الكلام في الله ﷻ عندهم سهلاً، والكلام في الله جل وعلا من أصعب الأمور، والإنسان إذا أخطأ في هذا فلا عذر له، فيجب أن يتوقى، ويبتعد عمّا يكون فيه خطورة؛ لأن الله جل وعلا ليس كمثله شيء، والله جل وعلا غيب، ولا يجوز أن نتكلم إلا بما وصف به نفسه وتكلم فيه.

ولهذا لما سمع الإمام عبد الرحمن بن مهدي أحد تلامذته يتكلم في شيء من ذلك، قال له: «لله جل وعلا مخلوق أخبرنا به، له أكثر من ستمائة جناح، جناحان في الجنبين، وبقية الأجنحة أخبرني أين هي؟ فقال: لا أدري، وقال: لا تدري عن مخلوق من مخلوقات الله ليس هو أكبر المخلوقات، ثم تذهب تتكلم في الله جل وعلا، ألا تخاف ربك جل وعلا، فكانت هذه موعظةً له»[2].

فكانوا يخافون أشد الخوف من الكلام في الله جل وعلا، ولأن

---

(١) انظر: تاج العروس (٢٥/ ٤١٨)، وانظر مجموع الفتاوى (٧/ ٤٧١).

(٢) انظر القصة في شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٣/ ٥٨٥).

حدثناه سويد بن سعيد الأنباري، ثنا خلف بن خليفة، عن الحجاج بن دينار، عن منصور بن المعتمر، قال: «ما هلك دين قط حتى تخلف المنانية، قلت: وما المنانية؟ قال: الزنادقة».

وعن محمد بن الحنفية ﷺ قال: «لا تنقضي الدنيا حتى تكون خصومتهم في ربهم»[1].

وعن محمد بن الحنفية، قال: «إنما تَهلِك هذه الأمة إذا تكلمت في ربها».

وعن ابن المبارك، قال: «لأن أحكي كلام اليهود والنصارى

الإنسان إذا تكلم كلاماً يخالف ما أخبر الله به، فإنه قد وقع في الكذب على الله والقول عليه بلا علم، وقد دلت آية سورة الأعراف على أنه أعظم من الشرك قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، فبدأ بالأمور الأخف، وترقى بما هو أشد، ثم ذكر الشرك، ثم ختمها بالقول عليه بلا علم، فهو أعظم من الشرك، والقول في صفاته وأسمائه من أعظم الأشياء التي يجب أن يتوقى فيها العبد ويتحرى الحق فيها، ولا يتكلم إلا بما هو واضح وجلي.

قوله: «**محمد بن الحنفية**» الحنفية نسبةً لبني حنيفة، لأنها من السبي الذي سباه الصحابة، فوَلَدَتْ لعلي ﷺ محمداً هذا، فلهذا ينسب إليها يقال: ابن الحنفية.

قول ابن المبارك: «**لأن أحكي كلام اليهود والنصارى أحب إلي من أن أحكي كلام الجهمية**» يقصد ﷺ أنه أعظم من كلام اليهود.

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٥٢٠)، واللالكائي (١/ ١٤٣).

أحب إلي من أن أحكي كلام الجهمية»[١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزالون يسألون حتى يقال لأحدكم: هذا الله خلقنا، فمن خلق الله تبارك وتعالى؟». قال أبو هريرة: وإني لجالس ذات يوم، إذ قال رجل من أهل العراق: يا أبا هريرة هذا الله خلقنا، فمن خلق الله تبارك وتعالى؟ قال أبو هريرة: فوضعت إصبعي في أذني، وصرخت: صدق الله ورسوله، الله الواحد الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد،

والمقصود بكلام اليهود ما ذكره الله جل جلاله بأنهم قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، تعالى الله عن قولهم، يقول: إن كلام الجهمية أعظم من هذا، ومعروف أن حكاية الكفر ليست كفراً، أي: أن يحكي كلام من تكلم بهذا، ومع ذلك لقبحه وشدة بغض السلف له يقولون: نحكي عن اليهود ما قالوا من الباطل أسهل من أننا نتكلم بما قالته الجهمية.

وهذا يدل على أن هؤلاء ليسوا من المسلمين، وإنما هم كما قال المؤلف: يتعوذون بالإسلام؛ لأنهم لو أظهروا ما يعتقدونه لقُتلوا، فأظهروا الإسلام خوفاً من القتل، وصاروا يدسون الباطل، ويحاولون إفساد العقائد، وقد اشتَهَر عنهم هذا فيما ينقلهم أهل العلم في كتبهم.

وحديث أبي هريرة: «**لا يزالون يسألون..**» إخبار الرسول ﷺ إذا أخبر بشيء فهو إخبار بالوحي فلا بد أن يكون، وإخباراته التي يخبر بها من دلائل نبوته صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا قال: صدق رسول الله ﷺ، وفي الحديث الذي بعد هذا العلاج لمثل هذه الأمور.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (١/ ١١١)، والآجري في الشريعة (٢/ ٩٨٧)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٦/ ٩٧).

ولم يكن له كفواً أحد[١].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان العبد فيقول له: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فليستعذ بالله ولْيَنْتَهِ»[٢].

عن أبي هريرة، ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ فيقول: الله ﷻ، فيقول: من خلق الأرض؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الله؟ فمن وجد من ذلك

قوله ﷺ: «**فيستعذ بالله ولينته**»، العلاج في هذا أن يعوذ بالله جل وعلا ويلجأ إليه، «**ثم لينته**»، أي يعرض عن هذه الأمور رأساً، ولا يلتفت إليها، ولا يهتم بها، ويعرف أنها من الشيطان، فهذا هو العلاج لصرف الوساوس، سواءٌ كانت الوساوس في العقيدة، أم في العمل من الوضوء والصلاة وغيرها.

والرسول ﷺ إذا ذكر باطلاً لا بد أن يذكر ما يعصم من الباطل، وكذلك إذا ذكر شيئاً نحتاج إليه فإنه ينبه على الشيء الذي قد يحتاج إليه ولم يُسأل عنه، كقوله ﷺ لما سئل عن ماء البحر: هل نتطهر به؟ فقال: «**هو الطَّهور ماؤه، الحِلُّ ميتته**»[٣]، لم يُسأل عن الميتة، ولكن بيّن

---

(١) أخرجه مختصرا بنحوه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، برقم (١٣٥) من حديث أبي هريرة، وهو عند أحمد (١٥/ ١٠ ح ٩٠٢٧) وغيره بنحو سياق المصنف.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم، كتاب الإيمان ح (١٣٤).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الطهارة، باب الطهور للوضوء، برقم (١٢)، ومن طريقه أحمد (١٤/ ٣٤٩ ح ٨٧٣٥)، وأبو داود، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر رقم (٨٣)، والترمذي، أبواب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور، رقم (٦٩)، والنسائي، كتاب الطهارة، باب ماء البحر، رقم (٥٩)، وابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بماء البحر، رقم (٣٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما.

شيئا فليقل: آمنا بالله»[١].

عن أبي بن كعب، أن المشركين، قالوا: يا رسول الله انسب لنا ربك قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١-٢] قال: فالصمد: الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

حكمها للحاجة إليها، وهذا كثير في خطابه؛ لأنه جل وعلا بُعث مبلغاً معلماً، بلغنا كل ما ينفعنا ونحتاج إليه، ولهذا قال: «**فليستعذ بالله ولينته**»، يعني هذا هو العلاج إذا جاء الوساوس يلجأ إلى ربه جل وعلا ويعوذ بالله من الشيطان؛ لأن هذا عمل بقوله جل وعلا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٦]، وقبل هذا ذكر علاج العداوة بين الناس قد يكون لك عدواً تقابله ويخاطبك وتخاطبه، فهذا العلاج فيه أن تقدم له الإحسان وتحسن إليه إذا أساء إليك، فيصبح بعد ذلك كأنه ولي حميم لك، ولكن هل يستطيع كل أحد هذا؟ قد لا يستطيع كثير من الناس، وإنما يستطيع هذا أهل الحلم والعلم.

والعدو الثاني غير مرئي، غير مشاهد، وهو الشيطان الذي يوسوس وينزغ، ولذا قال بعد هذا: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، فيلجأ العبد الى ربه جل وعلا.

قوله: «**ثم لينته**» يعني يعرض عن الوساوس التي يلقيها، ولا يهتم بها، ويفكر فيها، فإنه إذا فكر فيها فإنها تزيد ويكون الشيطان ظفر منه بما يريد، فالرسول ﷺ ذكر لنا هذا العلاج، ولهذا نقول: إنه علاج لجميع الوساوس، سواء كانت الوساوس في العقيدة، أو في الوضوء، أو في الصلاة، أو في غيرها، فإذا امتثل ما أرشد له الرسول ﷺ نجا من كيد الشيطان وكيده ضعيف.

---

(١) هذه إحدى روايات الحديث المتقدم تخريجه قريبا، وقد أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٤/ ١١٠ ح ٨٣٧٦) وغيره.

يُولَدْ ﴿٣﴾ [الإخلاص: ٣]، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤][١]. قال: لم يكن له شبيه، ولا عدل، وليس كمثله شيء.

عن عبد الله بن رواحة، قال للحسن: هل تصف ربك؟ قال: «نعم، بغير مثال»[٢].

وعن محمد بن الحنفية: «إن قوماً ممن كانوا قبلكم أُوتوا علماً كانوا يكيفون فيه، فسألوا عما فوق السماء وما تحت الأرض

قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ تفسير للصمد، ولهذا جاء في بعض تفاسير السلف أن الصمد الذي لا يخرج منه شيء ولا يأكل[٣]، ولا يشرب، وجاء في التفسير المشهور أن الصمد الذي استغنى بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه يصمد لحاجته إليه[٤]، أي يقصده، فهذا من خصائص ربنا جل وعلا.

قوله: «**بغير مثال**» يعني ليس له مثيل ولا شبيه تعالى وتقدس.

قول محمد بن الحنفية: «**فسألوا عما فوق السماء وما تحت الأرض فتاهوا..**» يعني أنهم ضلوا في ذلك، وكانوا يُجيبون بالباطل خلاف الحق، وهذا من الجزاء الذي يعاقبهم الله جل وعلا به.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٥/ ١٤٤ ح ٢١٢١٩) والترمذي، أبواب تفسير القران، باب ومن سورة الإخلاص (٣٣٦٤) والطبري في التفسير (٢٣/ ٧٣٤)، وليس عند أحمد قوله: «لأنه ليس شيء يولد... ولا يورث» وقال الحاكم (١/ ٥٨٩): صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه المصنف في نقضه على المريسي (٢/ ٩٠٨)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١/ ٢٦٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٤١).

(٣) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٧٦).

(٤) انظر تفسير الطبري (١٤/ ٦٨٩ ـ ٦٩١)، وابن كثير (٨/ ٥٢٨).

فتاهوا، كان أحدهم إذا دعي من بين يديه أجاب من خلفه، وإذا دعي من خلفه أجاب من بين يديه»[١].

قال أبو سعيد: ولولا مخافة هذه الأحاديث وما يشبهها، لحكيت من قبح كلام هؤلاء المعطلة وما يرجعون إليه من الكفر حكايات كثيرة، يتبين بها عورة كلامهم، وتكشف عن كثير من سوءاتهم، ولكنا نتخوف من هذه الأحاديث، ونخاف أن لا تحتمله قلوب ضعفاء الناس، فنوقع فيها بعض الشك والريبة، لأن ابن المبارك قال: لأن أحكي كلام اليهود والنصارى أحب إلي من أن أحكي كلام الجهمية[٢].

وصدق ابن المبارك، إن من كلامهم في تعطيل صفات الله تعالى ما هو أوحش من كلام اليهود والنصارى، غير أنا نختصر من ذلك ما نستدل به على الكثير إن شاء الله تعالى.

....



(١) انظر تفسير السمعاني (٦/ ٣٠٣)، وزاد المسير (٤/ ٥٠٦).

(٢) تقدم تخريجه ص٣٥.

باب الإيمان بالعرش
وهو أحد ما أنكرته المعطلة

قال أبو سعيد: وما ظننا أنا نضطر، إلى الاحتجاج على أحد ممن يدعي الإسلام في إثبات العرش والإيمان به، حتى ابْتُلينا بهذه العِصابة الملحدة في آيات الله، فشغلونا بالاحتجاج لما لم تختلف فيه الأمم قبلنا، وإلى الله نشكو ما أوهت هذه العصابة من عرى الإسلام، وإليه نلجأ، وبه نستعين.

وقد حقق الله العرش في آي كثيرة من القرآن، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود: ٧]. وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]. ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزُّمَر: ٧٥]. في آي كثيرة سواها.

فادعت هذه العصابة أنهم يؤمنون بالعرش ويُقِرّون به، لأنه مذكور

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**حتى ابتلينا بهذه العصابة الملحدة في آيات الله، فشغلونا بالاحتجاج لما لم تختلف فيه الأمم قبلنا**» يعني أن هؤلاء شغلونا عن أشياء ما كنا نتصور أن أحداً ينكرها، فإنكار العرش من أجلى الأمور وأوضحها دليلاً على سوء مرادهم، وأنهم يريدون إبطال عقائد المسلمين التي تكاثر ذكرها في كتاب الله وفي أحاديث رسوله ﷺ، فكيف بالذي لم يكن له ذكر كثير في النصوص فهذا قد ينكرونه رأساً!

في القرآن، فقلت لبعضهم: ما إيمانكم به إلا كإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ [المائدة: ٤١]. وكالذين إذا ﴿لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [البقرة: ١٤]. أتقرون أن لله عرشا معلوما موصوفا فوق السماء السابعة، تحمله الملائكة، والله فوق كما وصف نفسه، بائن من خلقه؟ فأبى أن يقر به كذلك، وتردد في الجواب، وخلط ولم يصرح.

العرش ذكره الله في آيات كثيرة من كتابه كما قال الإمام الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنكاره من أعجب الأمور؛ لأن أمر الله بين، ولكن قوله هذا تبع لقولهم: إن الله ليس فوق، حيث أنكروا أن يكون الله جل وعلا فوق عباده، لأنهم لا يصفون الله بصفة حقيقية ثابتة، وإنما يصفونه بالسلوب والنفي، وهذا في الواقع ليس بشيء.

والعرش في اللغة: هو سرير الملك الذي يجلس عليه[1]. كما قال الله جل وعلا في قصة سليمان في خبر الهدهد عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل: ٢٣]، يعني السرير الذي تجلس عليه الملكة.

وسمي عرشاً لارتفاعه[2]. ولكن عرش الله جل وعلا هو أكبر مخلوقاته، ولهذا أضافه الله جل وعلا إليه إضافةً خاصة، مرةً وصفه بالعظمة، ومرةً بالكريم، ومرةً بالمجيد، والمجيد الواسع، والكريم أيضاً كذلك الواسع العظيم، فعرش الله جل وعلا مخلوق من مخلوقاته ولكنه هو سقف المخلوقات، كما قال الرسول ﷺ: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، ووسطها، وسقفها عرش الرحمن»[3].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١/ ٢٦٣)، والصحاح (٣/ ١٠٠٩)، ومقاييس اللغة (٤/ ٢٦٤).
(٢) انظر المصادر السابقة.
(٣) أخرجه البخاري (٧٤٢٣) بلفظ: «وفوقه عرش الرحمن».

قال أبو سعيد: فقال لي زعيم منهم كبير: لا، ولكن لما خلق الله الخلق، يعني السماوات والأرض وما فيهن، سمى ذلك كله عرشا له، واستوى على جميع ذلك كله.

فالله جل وعلا أخبرنا أنه استوى على عرشه، والاستواء في لغة العرب[١]: هو الاستقرار على الشيء والارتفاع عليه، والعلو والصعود عليه، فهذه الألفاظ الأربعة التي قالها علماء السلف في تفسير الاستواء مع أنه واضح وجلي ولا يحتاج إلى تفسير[٢].

وما ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنه سأل بعضهم عن العرش فقال: هو المخلوقات، هذا من التأويل الباطل، يقول: معنى العرش أن الله لما خلق الخلق الأرض والسماوات وغيرها سمى هذه المخلوقات عرشاً فاستوى عليها بمعنى استولى عليها، وليس استوى عليها بمعنى أنه صعِد عليها وعلا عليها، فالله جل وعلا مستوٍ على كل شيء، بمعنى أنه مالكه ويتصرف فيه، وهو جل وعلا ربه، فهم يفسرون الاستواء بالاستيلاء، وهذا اشتَهَر حتى وصل الأمر إلى مَنْ يدّعون أنهم من أهل السنة الذين هم متأخرو الأشاعرة، حيث فسروا الاستواء بالاستيلاء كما قال هؤلاء تبعاً لإنكارهم علو الله جل وعلا، وإنكار العلو أيضاً من أبطل الباطل؛ لأنه من أظهر الأشياء.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فقال لي زعيم منهم كبير**» يعني أن هذا الكلام منه تأويل وتحريف في الواقع.

---

(١) انظر: الصحاح (٦/ ٢٣٨٥)، ولسان العرب (١٤/ ٤١٥).

(٢) أشار ابن القيم في نونيته إلى هذه الأقوال عن السلف. انظر توضيح المقاصد لابن عيسى (١/ ٤٤٠) وحكى الإجماع على أن الاستواء معناه العلو والارتفاع. انظر مختصر الصواعق (٣/ ٨٨٩).

قلت: لم تَدَعوا من إنكار العرش والتكذيب به غاية، وقد أحاطت بكم الحجج من حيث لا تدرون، وهو تصديق ما قلنا إن إيمانكم به كإيمان ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المَائدة: ٤١]. فقد كذبكم الله تعالى به في كتابه، وكذبكم به الرسول ﷺ. أرأيتم قولكم: إن عرشه سماواته وأرضه وجميع خلقه، فما تفسير قوله عندكم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧]. أحملة عرش الله، أم حملة خلقه؟. وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: ١٧]. أيحملون السماوات والأرض ومن فيهن، أم عرش الرحمن؟، فإنكم إن قلتم قولكم هذا، يلزمكم أن تقولوا: عرش ربك: خلق ربك أجمع، وتبطلون العرش الذي هو العرش، وهذا تفسير لا يشك أحد في بطوله واستحالته، وتكذيب بعرش الرحمن تبارك وتعالى.

فقال الله تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ له: «**قلت: لم تدعوا من إنكار العرش والتكذيب به**» أي لماذا لا تصرحون بإنكار العرش والتكذيب به؟

السبب في هذا: أن ذكر العرش ووجوب الإيمان به أمر ظاهر جلي، فلا يستطيعون أن يصرحوا بإنكار ما هو ظاهر وجلي، وإنما يأتون بالتأويلات التي قد يكون لهم فيها مخرج، لأجل أن يقال: إن هذا له وجه، وإن كان بعيداً، فيكون مانعاً من الحكم عليهم بالكفر، لأنهم إذا أنكروا ما أثبته الله في القرآن صراحةً فهو كفر بلا شك، فهم يتحاشون ذلك.

والإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما سبق يتهمهم بأنهم منافقون يظهرون خلاف ما يبطنون، وأنهم زنادقة، وأنهم يتسترون بالإسلام، فيريدون أن يبطلوا شرائع الإسلام، ويريدون أيضاً أن يشككوا المسلمين بما هو ثابت في كتاب الله جل وعلا وأحاديث رسوله ﷺ، وهذا بين ومن أوضح الأشياء وأجلاها.

وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]. وقال رسول الله ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء، وكان عرشه على الماء»[(١)] .

ففي قول الله تعالى وحديث رسول الله ﷺ دلالة ظاهرة أن العرش كان مخلوقاً على الماء، إذ لا أرض ولا سماء، فلِمَ تغالطون الناس بما أنتم له منكرون؟ ولكنكم تقرون بالعرش بألسنتكم تحرزاً من إكفار الناس إياكم بنص التنزيل، فتُضرب عليه رقابُكم، وعند أنفسكم أنتم به جاحدون، ولعمري لئن كان أهل الجهل في شك من أمركم، إن أهل العلم من أمركم لعلى يقين، أو كما قلت لهم، زاد أو نقص.

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: جاء نفر من بني تميم إلى رسول الله ﷺ، فقال: «يا بني تميم أبشروا»، قالوا: قد بشّرتنا، فأعطنا. قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ. قال: فجاءه أهل اليمن، فقال لأهل اليمن: «يا أهل اليمن، اقبلوا البشرى إذْ لم يقبلها بنو تميم». قالوا: قد قبلنا، فأخذ رسول الله ﷺ يحدث ببدء الخلق والعرش. قال: فجاء رجل فقال: يا عمران، راحلتك تفلتت. قال: فقمت، وليتني لم أقم[(٢)].

الحديث الذي ذكره، وهو قوله ﷺ: **«كان الله، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء»**، هذا رواه البخاري في صحيحه في عدة مواضع، في ثلاثة مواضع: في كتاب التوحيد، وفي كتاب بدء الخلق في موضعين، وفي المغازي في موضعين أيضاً.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب «وكان عرشه على الماء» (٧٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، ح (٣١٩٠).

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ، فعَقَلْتُ ناقتي بالباب، ثم دخلت، فأتاه نفر من بني تميم، فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم». قالوا: قد بشرتنا، فأعطنا ـ مرتين ـ، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها إخوانكم بنو تميم». قالوا: قبلنا يا رسول الله، أتيناك لنتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر حيث كان. قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، ثم كتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض». قال: ثم أتاني رجل فقال: أدرك ناقتك، فقد ذهبت، فخرجت فوجدتها قد يقطع دونها السراب، وايمُ الله لَوَددتُ أني تركتها[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٢)]، إنه جاء بثلاثة ألفاظ، جاء «كان الله ولم يكن شيء قبله»، وجاء «كان الله ولم يكن شيء معه»، وجاء «كان الله و لم يكن شيء غيره»، واختار أن اللفظ الذي تلفظ به الرسول ﷺ: «**قبله**»، يقول: لأن هذا موافق للقرآن لقوله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]، وهو موافق للحديث الذي في صحيح مسلم، أن الرسول ﷺ كان يقول: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء»[(٣)] إلخ، فاختار هذا اللفظ «قبله»، لأن الرسول ﷺ لا يمكن أن يكون قال هذه الألفاظ الثلاثة في مجلس واحد، لأن الحديث هو حديث عمران بن حصين، ولم يروه غيره من الصحابة فيما ذُكر، يقول: «**أتيت إلى المسجد وعقلت ناقتي ودخلت، فإذا رسول الله ﷺ،**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ و﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، ح (٧٤١٨).

(٢) انظر: الصفدية (١/ ١٥ ـ ١٧) و (٢/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، رقم (٢٧١٣).

. . . .

إذ دخل بنو تميم، فقال: يا بني تميم اقبلوا البشرى، فقالوا: بشرتنا فأعطنا، يقول: فتغير وجه رسول الله ﷺ»[١] لأن قولهم: بشرتنا فأعطنا، يدل على أنهم يريدون الدنيا، والرسول يقول: اقبلوا البشرى يعني هذا الإيمان الذي قبلتموه أبشروا فإنه فيه الخير وفيه السعادة، ويقول: «**إذْ دخل أهل اليمن**».

فقال: «**يا أهل اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها إخوانكم بني تميم**»، **فقالوا: قبلنا جئناك نتفقه في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر، فقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله»**[٢] إلى آخره، فهو جواب لسؤال.

ويقول: «**فآتاني آتٍ فقال: أدرك ناقتك فقد ذهبت، فخرجت فإذا السراب يتقطع دونها، وايم الله لوددت أني تركتها ولم أخرج**»[٣] أي يريد أن يسمع من الرسول ﷺ ويترك ناقته تذهب؛ لحرصه على العلم وعلى الإيمان الذي يتلقاه عن رسول الله ﷺ.

فالمقصود أن هذا الحديث يدل بقوله: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**» على أن الله جل وعلا قبل كل شيء، و«**كان**» هنا معناها وجد، كان الله، يعني: أنه موجود تعالى وتقدس قبل كل شيء، وهو أبلغ من كونه يكون معه أو غيره.

وقوله: «**وكان عرشه على الماء**» هذا يدلنا على أن أول المخلوقات هو العرش، والمخلوقات هي التي نعلمها، وأُخبرنا بها، ولا يلزم أن يكون أول المخلوقات مطلقاً، لأنا لو فتحنا الباب فيه ونظرنا فيه ربما

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.
(٢) تقدم.
(٣) تقدم.

....

نصل إلى شيء لا تدركه عقولنا، وهذا هو الذي يغالط فيه بعض الناس ويسمونه مسألة التسلسل.

والتسلسل مأخوذ من السلسلة، فالسلسلة حلَقات متداخلة، فتكون مستديرة، كلما جاء واحدة جاءت الأخرى، وهكذا... فليس لها طرف، فهو أخذ من هذا، والتسلسل يقسمه العلماء إلى قسمين:

القسم الأول: تسلسل في المحدَثِين.

القسم الثاني: تسلسل في المحدِثِين، الفاعلين، وهذا باطل قطعاً؛ لأن معناه أن كل مُحدِث فله مُحدِث، إلى ما لا نهاية، فهذا من أبطل الباطل، لأن الله جل وعلا وحده هو المحدِث، وهو الموجد، وهو الخالق، وليس له محدث، أو معاون، أو مساعد كما ثبت ذلك في القرآن وفي غيره، هذا القول من أبطل الباطل، ولكن يبقى القول الأول التسلسل في المخلوقات، ومعناه: أن كل مخلوق قبله مخلوق، وهذا في الماضي، وأما في المستقبل فكل مخلوق يكون بعده مخلوق، وهكذا إلى ما لا نهاية، والمتكلمون يذكرون في هذا ثلاثة مذاهب، يزعمون أن مذهب أهل السنة القول بالتسلسل في المستقبل، ومنعه في الماضي، وقول أهل البدع مثل النظام ونحوه من بعض المعتزلة الذين صاروا جهمية يبطلونه في الماضي والمستقبل، وعلى أساس ذلك قالوا: بفناء الجنة والنار، لأنهما مخلوقان، والمخلوق الذي سبق بالعدم لا بد يلحقه العدم، هذا حكم من عندهم ونظرية فقط، وإلا فالصواب الذي يدل عليه كلام الأئمة خلاف ما يقولون، ولا يجوز أن يحكم الإنسان على ربه جل وعلا بمجرد فكرٍ يستنتجه من عقله، والصواب في هذا الذي دل عليه كلام الأئمة مثل الإمام أحمد والبخاري وأبي سعيد الدارمي كما سيأتينا أن التسلسل في المحدَثين لا أول له ولا نهاية له، أي أنه موجود في

....

الماضي وفي المستقبل، أما في الماضي فنحن عقولنا قاصرة، ولكن علمنا هذا من صفات الله، لأنه جل وعلا يقول لنا: إنه فعال لما يريد، فكلما أراد شيئا فعله، ولا يلزم أننا نعرفه، وإنما عرفنا أن أول المخلوقات الموجودة الآن التي أُخبرنا بها هو العرش، وأما قبله فالعلم عند الله، ولكن يجب أن نعتقد أن الله ما كان معطلاً عن الفعل، أي أنه كان لا يستطيع أن يفعل ثم صار يفعل بعد أن لم يفعل، فإن هذا نقص، والله جل وعلا له الكمال المطلق.

ولهذا قال أهل السنة: إنه فعال لما يريد في الماضي وفي المستقبل، أما في المستقبل فإن الله أخبرنا أن الجنة والنار لا تفنيان، وأنهما دائمتان ما دامت السماوات والأرض، وهذا الأسلوب تقوله العرب في لغتها للشيء الذي لا نهاية له، وربنا جل وعلا يقول في أهل النار: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، و«كلما» في لغة العرب للشيء الذي لا ينتهي، أي كلما جاء شيء فبعده شيء، وهكذا، كما قال سبحانه عن أهل النار: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، وهذا الشيء الذي لا نهاية له. ولذا فقول من يقول بأن النار تفنى، أو أن الجنة تفنى، قول باطل من قول أهل البدع، وهو خلاف ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، فهذه لمحة موجزة لهذه المسألة؛ لأن كثيراً من الطلاب يستشكلها، وبعضهم يرمي شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه يقول بذلك أي: بأنه يقول بقدم العالم الذي يقوله الفلاسفة الذين لا يؤمنون بوجود الله، ويقولون: إن الأصل أن هذه طبيعة وجدت هكذا وستستمر، أي السماء والأرض والبحار، وهكذا، فلا نهاية لها كما أنها وجدت بلا موجد، فهذا كلام لا يصدق، فهو من أبطل الباطل.

المقصود: أن الله أخبرنا ﷻ أنه خلق السماوات والأرض ولم تكن

قال أبو سعيد: ففي هذا بيان بيِّنٌ أن الله تعالى خلق العرش قبل السماوات والأرض وما فيهن، وتكذيب لما ادعوا من الباطل.

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، وأخذ أهل اليمين بيمينه، وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى، وكلتا يدي الرحمن يمين، ثم قال: يا أصحاب اليمين، قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. ثم قال: يا أصحاب الشمال، قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. قال: فخلط بعضهم ببعض، فقال قائل: رب لم خلطت بيننا؟ قال: ﴿وَلَهُمْ

شيئاً، وكذلك خلق مخلوقات، ولا يجوز أن نقول: إن هذا أول المخلوقات على الإطلاق، بل نقول: هذا هو أول المخلوقات التي علمناها نحن، وإلا فنعلم أن الله جل وعلا يفعل ما يريد إذا أراد شيئاً فعله، فهو كما أخبر جل وعلا فعال لما يريد، تعالى الله وتقدس. أما المخلوق المعين فكل مخلوق تُعيّنه فقد سُبق بالعدم، فهو وجد بعد أن كان معدوماً، كما قال الله جل وعلا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١]، يقول: إنه جاء عليه أزمان طويلة لم يكن شيئا مذكوراً، ثم خلقه الله جل وعلا، وهكذا غيره، ولكن لا يلزم أن يكون أول هذه المخلوقات المشاهدة هو أول المخلوقات مطلقاً، ولكن قول أهل اليمن: «جئناك نتفقه في الدين، ونسألك عن مبدأ هذا الأمر»، هذا إشارة إلى شيء موجود من السماء والأرض والجبال والأشجار، ولهذا قال في جوابهم: «كان الله ولم يكن شيء قبله، ثم كتب في الذكر كل شيء، ثم استوى على عرشه تعالى وتقدس»[1].

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

﴿أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ ذلك هم لها عاملون. وقوله ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ثم ردهم في صلب آدم».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «خلق الله الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، وأهل الجنة أهلها، وأهل النار أهلها». قال: فقال قائل: يا نبي الله ففيم العمل؟ قال: «أن يعمل كل قوم لمنزلتهم». فقال عمر: إذاً نجتهد.

قال: وسئل رسول الله ﷺ عن الأعمال، فقيل: يا رسول الله أرأيت الأعمال، أشيء يُؤْتَنَف؟، أو فرغ منها؟ قال: «بل فرغ منها»[(١)].

حديث أبي أمامة ضعيف في هذا، ومعنى ذلك أن الله جل وعلا قسم خلقه تقديراً، وبعضهم يقول: بل إيجاداً وإظهاراً، فإنهم في عالم الذر أمثال الذر استخرجوا من صلب آدم، ثم يقول: استشهدوا واستنطقوا فشهدوا ونطقوا.

والظاهر الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٢)] في هذا وغيره: أن هذا الميثاق عبارة عن الفطرة التي فطروا عليها، فإنهم فطروا على معرفة الله، وقبول الحق، والانقياد له، وهو عبارة عن قوله: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فلهذا عبر عن ذلك بالرب: بربكم خالقكم

---

(١) أخرجه أبو دواد الطيالسي مختصراً (٢/ ٤٥١)، وابن أبي شيبة مطولاً كما رواه المصنف عنه، وكما في إتحاف الخيرة المهرة (١/ ١٦٧)، والمطالب العالية (١٢/ ٤٧٨)،وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٣٢٥)، وفي الكبير (٨/ ٢٤١) (٨/ ٢٤٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٩٨)، قال الطبراني: تفرد به سلم بن سالم، وقال العراقي في المغني ـ بهامش الإحياء ـ: ضعيف، وضعفه الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣)، ومجموع الفتاوى (١٦/ ٣٣٩).

. . . .

وموجدكم الذي يتصرف فيكم، ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ يعني أنهم أقروا بفطرهم، وكل عاقل يقر بها، أما الاستشهاد والاستنطاق في هذا هل يكون حجة وهو لا يعلم؟!

لا أحد منا يذكر هذا أنه استنطق واستشهد وسئل: من ربك، فقال: ربي الله وأشهد على ذلك، فلهذا صار هذا فيه إشكال.

فالظاهر أن هذا المراد به عبارة عن الكتابة الأزلية، وعن الفطرة التي هي شبه الميثاق، أي أن الله فطر الخلق على هذا. وفيه إثبات اليمين لله، واليد الأخرى عبر عن الأخرى باليد، وقد ثبت في صحيح مسلم(١) أنه سماها شمالاً، وهنا قال كذلك، «أخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء، وأخذ أهل اليمين بيمينه، وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى»، لم يقل: بالشمال، وفي صحيح مسلم(٢) أنه يقبض السماوات بيمينه يوم القيامة، والأراضين بشماله، ثم يهزهن.

أما قوله هنا: «**وكلتا يديه يمين**» تعالى وتقدس، فالمعنى أن كلتا يديه كاملة تامة، ولا يجوز أن يتصور أن كلتا يديه من جانب واحد تعالى الله وتقدس عن ذلك، فإن هذا شوه يجب أن يُنزه الله عنه، وقد ظن بل قال بعض طلبة العلم هذا القول المنكر الذي لا يجوز أن يُقر، فهو من أنكر المنكر، لأن هذا شوه ونقص، والله له الكمال المطلق، تعالى الله وتقدس. ولكن الله ﷻ يخاطب الناس بلغتهم، وفي لغة العرب أن اليمين تكون مكرمة، والشمال تكون للشيء الذي قد يكون فيه شيء من النقص، فلهذا جاء عنه أنه يأخذ بيمينه ويعطي بيمينه، وإذا دخل المسجد

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، ح (٢٧٨٨).

(٢) كما تقدم في الحديث السابق.

. . . .

قدّم اليمين، وإذا خرج قدم الشمال، وهكذا، فهي من الأمور المكرمة التي يكرم بها، فهذا أمر.

الأمر الثاني: أن في لغة العرب وفي وضعهم أن اليمين تكون أكمل من الشمال، فأراد أن ينفي هذا المفهوم، أن يكون ذلك في يد الله جل وعلا الأخرى، فقال: «**كلتا يدي ربي يمين**»، يعني كلتا يدي ربي كاملة تامة لا يلحقها عيب، كما يلحق شمال المخلوق، فإن شماله أنقص من يمينه، فأراد أن ينفي هذا المفهوم عندهم، فقال: «كلتا يدي ربي يمين».

ولهذا نقول: إن هذا الفهم الذي فهمه هذا القائل فهم خاطئ، يجب أن ينزه ربنا جل وعلا عنه.

ففي الحديث إثبات اليمين، وإثبات اليد الأخرى، وقد جاء في الأحاديث الأخرى أنه سماها شمالاً.

وقوله ﷺ: «**خلق الله الخلق وقضى القضية**» يعني بالقضية أنه كتب الأمور المستقبلة كلها في كتاب قضاها، وهذا الكتاب أحصى كل شيء، فكل شيء يقع من حركة وسكون، وضر ونفع، وحياة وموت، وإعزاز وإذلال، ورفعة وخفض، كله مكتوب ومفروغ منه، فهو يقع على وفق الكتابة، فهذه القضية التي يريدها «وقضى القضية».

أن الأمور مفروغ منها، وليست مستأنفة، والمستأنف الشيء المستقبل، بل قد كتبها، فهي تقع على وَفْق كتابته وعلمه، وهذا دليل على كمال علمه تعالى وتقدس، فهو يعلم الذي لم يوجد كيف يوجد، ويعلم الماضي كما يعلم الحاضر، ويعلم الشيء الذي لا يكون لو كان كيف يكون، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] وهم لا يردون، وقال جل وعلا: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا

عن معاذ بن جبل ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائةَ درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلى الجنة وأوسطها، وفوقها عرش الرحمن، ومنها تَفَجَّرُ أنهار الجنة، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس»(١).

خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، هم ما خرجوا فيهم، ولكن لو قدر أنهم خرجوا لكان هذا هو الذي يحدث، فعلمه جل وعلا محيط بكل شيء، ولا يجوز أن يخفى عليه شيء تعالى وتقدس، ولهذا كتب كل شيء، حتى نبض العروق في البدن، وحركتها مسجلة ومكتوبة، فكل حركة لا تقع إلا وهي في هذا الكتاب، وقد علمها الله جل وعلا، وسوف تقع على وَفْق علمه بلا زيادة ولا نقص في الزمن المحدد لها، فهذا لأنه جل وعلا علمه محيط بكل شيء، ولأن له الكمال المطلق، وهكذا صفاته تعالى، والقدر من صفاته تعالى وتقدس.

يقول: **«والفردوس أعلى الجنة وأوسطها، وفوقها عرش الرحمن»** هذا يدل على ماذا، إذا كان الشيء وسطه أعلاه، فهذا يعني أنه كروي، لأنه ما يكون الشيء وسطه أعلاه إلا إذا كان على شبه الكره، ثم العادة أن الأنهار تأتي من المرتفع، ولهذا قال: «ومنه تفجر أنهار الجنة» أنهار الجنة تجري من هذا، مع أن الله قادر على كل شيء، فيأتي من المنخفض إلى المرتفع، قادر على ذلك. ولهذا جاء «أن أنهار الجنة تمشي بلا أخدود»(٢)، والأخدود مجرى الماء فهي تجري بهذه الصفة،

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦/٤٠٦) ح (٢٢٠٨٧)، والترمذي في الجامع في صفة الجنة، باب ما جاء في صفة درجات الجنة، (٢٥٣٠)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب صفة الجنة (٤٣٣١)، من طريق عطاء بن يسار عن معاذ ﷺ. وعطاء لم يسمع من معاذ، كما قال الترمذي.

(٢) روي مرفوعاً وموقوفاً على بعض التابعين. أما المرفوع فأخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٥)، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (ص ٩٠).

. . . .

وهذه الجنة فيها أنهار من لبن وأنهار من عسل، ونحن لا نعرف اللبن إلا ما يخرج من ضروع الحيوانات وغيرها، ولا نعرف العسل إلا ما يخرج من بطون النحل، وهذا يدل على أن ما في الجنة ليس مما في الأرض منه شيء، وإنما هي أسماء كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»[(١)].

المقصود: أن قوله: **«وفوقه عرش الرحمن»**، يدل على أن عرش الرحمن هو أعلى المخلوقات، لأن الفردوس هو أعلى الجنة، ثم هذا يدلنا على أن العبد ينبغي ألا تكون همته دنية، فلا يقول: أنا مسكين، ما أسأله الفردوس لأني ما استحق، الله جل وعلا قد يتفضل عليك بالفردوس، فاسأله، والفردوس والجنة ليست جزاء العمل، بل هي فضل من الله، فلا تكن همتك دنية، اسأل ربك أعلى ما يعطيه عباده. قال رجل من الصحابة لما انتهى إلى الصف، والرسول ﷺ في الصلاة، فقال: اللهم إني أسألك أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، قال: «من المتكلم آنفاً؟» فقال: أنا يا رسول الله، قال: «إذاً يُعقَر جوادُك وتُستشهد في سبيل الله تعالى»[(٢)] يعني هذا أفضل ما أعطاه الله جل وعلا الصالحين، ومعنى ذلك أنه لا بد أن يقدم ثمناً للجنة، ولكن إذا شاء الله جل وعلا رفع عبده. فلهذا قال ﷺ: «إذا

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١/ ٣٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٢٢٢)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٤١)، وابن خزيمة (١/ ٢٦١)، وأبو يعلى (٢/ ٥٦)، وابن حبان في صحيحه (١١/ ٤٩٦ الإحسان)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٢٥)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وقال الحافظ في نتائج الأفكار (١/ ٣٧٩): «حديث حسن»، وقال الألباني: رجاله ثقات رجال مسلم غير مسلم بن عائذ، قال الذهبي: لا يعرف.

عن ابن عباس ﷺ قال: «إن الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئا، فكان أول ما خلق الله القلم، فأمره وكتب ما هو كائن، وإنما يجري الناس على أمر قد فُرغ منه»(١).

سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فهو أعلى الجنة»(٢) إلخ، ولم يقل لنا: إنكم لا تستحقون، اسألوه أن تدخلوا عند أول الباب ويكفيكم!!

بل ينبغي أن تكون رغبته في ربه عظيمة، ويُعظم الرغبة ويلح على الله ﷻ، فهذا المعنى يؤخذ من هذا الحديث.

حديث: «أول ما خلق الله القلم..» قد أشكل هذا الحديث على بعض العلماء، ولهذا صار الخلاف عندهم، أيهما أول القلم أو العرش؟

قالوا: إن هذا نص في أن القلم هو أول المخلوقات، والحقيقة أن هذا ليس نصاً؛ لأنه جاء من حديث عبد الله بن عمرو في صحيح مسلم، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»**(٣).

وقوله: «وعرشه على الماء» جملة حالية، ومعنى الجملة الحالية أنه في هذه الحالة التي كُتبت بها الكتابة، كان العرش موجوداً في هذه الحالة وفي هذا الوقت، هذا ما تفيده الجملة، فمعنى هذا أن هذا صريح في أن وجود العرش والماء قبل الكتابة، والكتابة حصلت بالقلم «خلق الله القلم، وقال له: اكتب». ثم هذا شيء يجب أن نؤمن به ولا نتعمق فيه، هل القلم يكتب بنفسه، يجوز أن الله أمره بهذا وكتب، قال له:

---

(١) أخرجه الفريابي في القدر (٨٤)، وعبد الله بن أحمد في السنة مختصراً (٢/ ٤٠١)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٤٣٩)، والآجري في الشريعة (٢/ ٧٧٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب القدر (٢٦٥٣).

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «لما أراد الله تبارك وتعالى أن يخلق شيئاً إذ كان عرشه على الماء، وإذ لا أرض ولا سماء، خلق الريح فسلطها على الماء حتى اضطربت أمواجه وأثار ركامه، فأخرج من الماء دخانا وطيناً وزبداً، فأمر الدخان فعلا، وسما، ونمى، فخلق منه السماوات، وخلق من الطين الأرضين، وخلق من الزَّبَد الجبال».

اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة، فهو تكوين لله جل وعلا، وقدرته لا يجوز أن تحد كما يحدها أهل الباطل.

فإذاً يكون هذا هو الراجح أن أول المخلوقات من هذه المخلوقات المشاهدة والمعلومة لنا هو العرش والماء، لأن عرشه كان على الماء قبل الكتابة. والله أعلم.

قول عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما الظاهر أنه أخذه من أهل الكتاب؛ لأنه يمكن أن يكون هذا من الزاملتين اللتين أصابهما يوم غزا مع الصحابة من كُتب المتقدمين[1]، فهذا موافق لما عندنا، لأن الله جل وعلا أخبرنا أنه ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١]، يعني أنه كونهما بقوله: «كونا، ائتيا».

وهذا معناه أن المخلوقات لها مادة، أي: أن الله خلق مخلوقاته من مادة، فالسماوات من الدخان الذي نظر إليه فتصاعد إلى فوق، خلق منه السماء، والأرض والجبال خلقها أيضاً من هذا الذي ذُكر، والله جل وعلا يخلق حسب مشيئته وإرادته، قال سبحانه: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، يخلق من العدم الشيء المعدوم، ولكن هذا يدل على أن لأصل المخلوقات مادة يخلق الله منها، وقد خلق آدم من

---

(١) انظر كلام ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٥٢) (٨/ ٥٣١).

قال أبو سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ففيما ذكرنا من كتاب الله ﷻ، وفي هذه الأحاديث بيانٌ بيّن أن العرش كان مخلوقاً قبل ما سواه من الخلق، وأن ما ادّعى فيه هؤلاء المعطلة تكذيب بالعرش، وتخرص بالباطل، ولو شئنا أن نجمع في تحقيق العرش كثيراً من أحاديث رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين لجمعنا، ولكن علمنا أنه خَلَصَ علمُ ذلك والإيمان به إلى النساء والصبيان، إلا إلى هذه العصابة الملحدة في آيات الله، طهر الله منهم بلاده، وأراح منهم عباده.

التراب، ثم ذريته خلقهم من ماء، كما هو معلوم.

مسألة: ماحكم الذي ينكر العرش؟ الذي يقول: ليس لله عرش، أو يقول: عرشه مخلوقاته؟

لا يقال تأول النصوص، فلا يكفر ؛ لأن التأويل نوعان:

الأول: تأويل لا قيمة له ولا يستساغ، مثل تأويله أن العرش هو السماء والأرض، فهذا تأويل غير مقبول لا قيمة له، إنما يريد أن يسوّغ إنكاره وكفره، فالذي ينكر العرش يكون كافراً، لماذا؟ لأنه تكذيب بما ذكره الله وذكره رسوله ﷺ.

والنوع الثاني: تأويل له وجه في اللغة وهو الذي لا يكفر صاحبه ولكن ليس هذا منه.



باب استواء الرب تبارك وتعالى على العرش وارتفاعه إلى السماء، وبينونته من الخلق وهو أيضاً مما أنكروه

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٤-٧].

وقد قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ

قوله: «**باب استواء الرب تبارك وتعالى..**» هذه الترجمة كلها تفسير للاستواء، أراد أن يبين ويوضح.

و«**البينونة**» معناها أنه ليس مختلطاً بخلقه، بان: أي أنه مرتفع، وأنه فوق، وليس مع خلقه بمعنى أنه مخالطهم وممازجهم تعالى الله وتقدس، ولهذا قال: «**وارتفاعه إلى السماء**».

والسماء المقصود بها ليس السماء المبنية، وإنما المقصود بالسماء العلو، فكل ما كان فوق فهو سماء.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وهو أيضاً مما أنكروه**» هذا أعظم من إنكار العرش وهو لازم له، فإذا أنكر العرش، أنكر الاستواء عليه.

أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ [السجدة: ٤ ـ ٦].

وقوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عِمران: ٥٥].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨].

وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النّحل: ٥٠].

وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: ١٠].

وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٣ . ٤].

وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [المُلك: ١٦-١٧].

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فُصّلَت: ٩-١٠].

قال أبو سعيد: أقرت هذه العصابة بهذه الآيات بألسنتها، وادّعوا الإيمان بها، ثم نقضوا دعواهم بدعوى غيرها، فقالوا: الله في كل مكان، لا يخلو منه مكان. قلنا: قد نقضتم دعواكم بالإيمان باستواء الرب على عرشه، إذ ادّعيتم أنه في كل مكان. فقالوا: تفسيره عندنا: أنه استولى عليه وعلاه. قلنا: فهل من مكان لم يستولِ عليه ولم يَعْلُه

. . . .

حتى خص العرش من بين الأمكنة بالاستواء عليه، وكرر ذكره في مواضع كثيرة من كتابه؟ فأي معنى إذاً لخصوص العرش إذ كان عندكم مستوياً على جميع الأشياء كاستوائه على العرش تبارك وتعالى؟!

هذا محال من الحجج، وباطل من الكلام، لا تشكون أنتم إن شاء الله في بطوله واستحالته، غير أنكم تغالطون به الناس.

أرأيتم إذ قلتم: هو في كل مكان، وفي كل خلق، أكان الله إلهاً واحداً قبل أن يخلق الخلق والأمكنة؟ قالوا: نعم، قلنا: فحين خلق الخلق والأمكنة، أَقَدَرَ أن يبقى كما كان في أزليته في غير مكان؟ فلا يصير في شيء من الخلق والأمكنة التي خلقها بزعمكم، أو لم يجد بدا من أن يصير فيها، أو لم يستغن عن ذلك؟ قالوا: بلى، ....

وقولهم: «**إن الله في كل مكان**» خلاف الحق، وخلاف ما أخبر الله به، فهو مثل ما سبق في إنكار العرش، ولكن لكون هؤلاء صار لهم شبه منعتهم من القول بذلك، ومن أعظمها أنهم يرون أن إثبات فوقية الله تجسيم وكفر وتشبيه، ووجه ذلك أنهم يقولون: إنكم إذا قلتم: إن الله مستوٍ على العرش، فالعرش مكان، والمكان لا يكون فيه إلا ما هو جسم، والله ليس بجسم، فأنتم إذا قلتم ذلك لزمكم التجسيم، ولهذا يسمون أهل السنة المجسمة، وأحياناً يسمونهم المشبهة.

والجواب عن هذا أن نقول:

أولاً: قولكم: «ليس بجسم» من أين أتيتم بهذا؟ هل جاء في كتاب الله أن الله ليس بجسم؟ أو أنه أيضاً ليس مستوياً على العرش؟ أو ليس فوق؟

فكلمة جسم هذه أيضاً باطلة نفياً وإثباتاً، إذا أثبتموها نقول لكم: أثبتّم باطلاً، وإذا نفيتموها، نقول: إنكم على باطل، فالشيء الذي لم يثبت ولم ينف في النصوص لا يجوز أن نثبته ولا أن ننفيه.

قلنا: فما الذي دعا الملك القدوس إذ هو على عرشه في عزه وبهائه، بائن من خلقه، أن يصير في الأمكنة القذرة وأجواف الناس والطير والبهائم، ويصير بزعمكم في كل زاوية وحجرة ومكان منه شيء؟.

ثانياً: دعواكم بأن هذا يقتضي التشبيه فهذه دعوى، فإن الله أخبرنا بهذا وهو أعلم من كل شيء، وليس معنى ذلك أنه لما خلق العرش واستوى عليه أنه محتاج إليه، كلا، بل هو الغني عن العرش وعن غيره وهو الذي يحمل العرش بقدرته، وإن كان جعل للعرش حملة لحكمة أرادها جل وعلا.

فيجب أن نعتقد أن الله غني بذاته عن العرش وعن غيره من المخلوقات، وأنه جل وعلا هو الذي يمسك السماوات أن تقع، وهو الذي يمسك العرش بقدرته، وهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، هذا الذي يجب أن نؤمن به ويؤمن به كل مؤمن، ولا يجوز أن نتلقى عقائدنا من الذين ضلوا، وجانبوا كتاب الله جل وعلا، وصاروا يأخذون العقائد من عقولهم، تلك العقول لا يمكن أن تهتدي إلى علم الغيب.

قوله: «**بائن من خلقه أن يصير في الأمكنة القذرة**» تعالى الله وتقدس، وهذا إنكارهم للاستواء يلزم منه إنكار العلو، بل هو فرع على إنكارهم علو الله.

ويحتجون بهذا، يقولون: العلو مكان، والله جل وعلا يتعالى عن أن يكون له مكان، فليس له مكان، فلهذا يقول إمام الأشاعرة الجويني: «كان الله قبل خلق المكان، وهو الآن على ما كان عليه قبل خلق المكان»[1] ماذا يقصد بالمكان؟ المكان أي المخلوقات، يعني كان الله ولا مخلوق.

---

(١) ذكر شيخ الإسلام نحو هذا الكلام عن بعض الجهمية، انظر: الفتاوى (٢/ ٢٧٢)، ونقل نحوه عن الجويني، انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧٤).

. . . .

قوله: «وهو الآن على ما كان عليه قبل خلق المخلوقات» أين يكون؟

ما يكون إلا في الأدمغة، في أدمغتهم، فكراً لا حقيقة له، ولا يوجد خارجاً عن الفكر، وهذا المعنى إنكار له في الحقيقة.

ولهذا يصرح بعضهم بهذا، فيقول: الله ليس فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا داخل العالم، ولا خارج العالم، ولا تصح الإشارة إليه، ولا يقال: أين هو؟ إذاً كيف يكون؟ أليس هذا هو العدم؟!!

هذا كما قال ابن الهيصم لابن فورك، بحضرة أحد الأمراء لما قال له ابن فورك ـ وهو أحد كبار الأشاعرة ـ هذا القول، قال: «لو قلت لك صف لي العدم هل تصفه بأكثر من هذا؟!!»[1].

المقصود أن إنكار علو الله ﷻ من فروعه إنكار استوائه على عرشه وإنكار العرش، وهؤلاء الذين يزعمون أنهم أهل السنة هذا مذهبهم، وهذه عقيدتهم يزعمون أن الله في كل مكان، تعالى الله وتقدس، وكل مكان يعني يلزم منه أن يكون في بطون الناس، وفي حشوشهم، وفي القبور تعالى الله وتقدس، وفي كل شيء، فهذا من الكفر المحال الذي هو تكذيب لكلام الله جل وعلا، وعدم تقدير له تعالى وتقدس، وهو سبحانه يجب أن يعلم علماً يقينياً بأنه أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأن جميع مخلوقاته السموات والأرض وغيرها بالنسبة إليه حقيرة صغيرة ليست بشيء، ولهذا أخبرنا عن شيء من عظمته فقال جل وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ

---

(١) ذكر المناظرة ابن تيمية في مواضع من كتبه، انظر: بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٢٧٥)، ودرء التعارض (٦/ ٢٥٣)، وأشار إليها الذهبي في ترجمة ابن الهيصم من تاريخ الإسلام (٩/ ١٧١).

....

مَطْوِيَّتُۢ بِيَمِينِهِۦٓ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

جاء حبر من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إن الله يضع السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن، ويقول: أنا الملك! أين ملوك الدنيا، فضحك رسول الله ﷺ تصديقاً لقوله، وأقره، وقرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦٓ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾(١).

المقصود أن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرر أن هذه الطائفة هي مبدأ التجهم، الجهمية والمعتزلة، ثم جاء من ولادة هذه الطائفة، وعصارتها الأشاعرة، وإن كان بينهم وبينهم خصام وخلاف في أمور أخرى، ولكنهم هكذا، هذا مذهبهم، يقولون: إن الله في كل مكان وينفون الاستواء، ويقولون: استوى بمعنى استولى، وكان كذلك، فقبل أن يستولي على الشيء من الذي يملك الشيء؟ من الذي كان مستولياً عليه؟!! لأن الاستيلاء يقتضي أنه كان مُنازعا فيه، ثم استولى عليه.

ويستدلون ببيت قاله نصراني:

قد استوى بشر على العراق ... بغير سيف ودم مهراق(٢)

استولى على العراق يعني مَلَكَ العراق.

ولهذا يقول ابن العربي المالكي - وهو غير ابن عربي الصوفي -، في

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، ح (٧٤١٤)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، ح (٢٧٨٦).

(٢) ينسب إلى الأخطل النصراني، انظر: تاج العروس (٣٨/ ٣٣١)، قال ابن تيمية: «ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي» (الفتاوى ٥/ ١٤٦).

. . . .

كتابه الذي سماه: «العواصم من القواصم»، والقواصم هي الأمور المخالفة للحق عنده فيسميها قاصمة، ثم يأتي بالرد ويسميه عاصمة، عنون بقوله: قاصمة، ثم قال: إذا قال المشبه: الرحمن على العرش استوى، فقل له: الاستواء له خمسة عشر معنىً، فأيها قصدت؟[١]

كيف الجواب على هذا؟

أجاب ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا في كتابه الصواعق، قال: «كلا، والذي بعث محمداً بالحق ليس له إلا معنىً واحد، وهو العلو والارتفاع، أما البقية فهي كذب وانتحال ودعوى باطلة تريد بها إبطال الحق»[٢]. فهكذا يقول غيره من أهل الحق: الاستواء ليس له إلا معنىً واحد، هو الذي ذكره الله جل وعلا وذكره رسوله ﷺ.

فالحاصل أن هذا القول الذي يقوله هؤلاء مخالف لكتاب الله، ومخالف للفطر، ومخالف لما قاله رسول الله ﷺ، ولما جاءت به الرسل عليهم السلام.

قد يقول قائل: وما يدريك أنها مخالفة لما جاءت به الرسل؟

نقول: نعم الله جل وعلا يقول لنا عن فرعون: إنه قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]، يظنه كاذباً في ماذا؟

يعني أن موسى أخبره أن الله في السماء فوق، فأراد أن ينفي هذا الخبر، فهذا مما جاءت به الرسل قبلنا.

---

(١) العواصم من القواصم (ص٢١٤).

(٢) انظر: مختصر الصواعق (٣/٩٣٨).

لقد شوهتم معبودكم إذ كانت هذه صفتَه، والله أعلى وأجل من أن تكون هذه صفتَه، فلا بد لكم من أن تأتوا ببرهان بيّن على دعواكم من كتاب ناطق، أو سنة ماضية، أو إجماع من المسلمين، ولن تأتوا بشيء منه أبداً.

فاحتج بعضهم فيه بكلمة زندقة أستوحش من ذكرها، وتستَّرَ آخَرُ من زندقة صاحبه فقال: قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧].

المقصود: أن هذا من الأمور الضرورية التي يُؤمن بها الصغير والكبير، ودعواهم أن هذا تقتضيه العقول كذب، لا تقتضيه العقول، وإنما هذا يتعلم ويتلقى من أهل الباطل والمحال.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لقد شوهتم معبودكم إذ كانت هذه صفته**» يعني: كونه في كل مكان، حتى في الأماكن التي يُرغب عن ذكرها تعالى الله وتقدس.

المقصود: أن هذه الطائفة التي يذكرها ليست كما قال القائل إنها كانت فبانت، فلا وجود لها، كلا بل هم موجودون، والآن يقولون: إن الأشاعرة هم أكثر المسلمين، والمقصود بالمسلمين العلماء لا عامة الناس، وأنهم موجودون في كل البلاد، وهم ينكرون العلو، وينكرون الاستواء، وينكرون كثيرا من الصفات التي سيأتي شيء من الإشارة إليها وإلى بعضها، فهم أيضاً فرع على هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام، فنحن بحاجة إلى مثل هذه الأشياء ومعرفتها؛ لأنها جاءت في كتاب الله، والله جل وعلا، عليم حكيم، يعلم أن عباده إذا احتاجوا إلى شيء فيكثر من ذكره، فلهذا جاء كثرة ذكر صفاته في القرآن أكثر من ذكر الصلاة والصوم والزكاة، وكذلك استواؤه على العرش وعلوه على السماء ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى

قلنا: هذه الآية لنا عليكم، لا لكم، إنما يعني أنه حاضر كل نجوى، ومع كل أحد من فوق العرش بعلمه، لأن علمه بهم محيط، وبصره فيهم نافذ، لا يحجبه شيء عن علمه وبصره، ولا يتوارَوْن منه بشيء، وهو بكماله فوق العرش، بائن من خلقه: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. أقرب إلى أحدهم من فوق العرش من حبل الوريد، قادر على أن يكون له ذلك، لأنه لا يبعد عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، فهو كذلك رابعهم، وخامسهم، وسادسهم، لا أنه معهم بنفسه في الأرض كما ادّعيتم، وكذلك فسرته العلماء.

ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك: ١٦]، وآيات كثيرة في هذا، لأنه علام الغيوب يعلم أن عباده سيحتاجون إلى هذه الأشياء، وإلا فإنه في وقت الصحابة ما كان أحد يشك في شيء من ذلك، ولهذا لو تتبعت الآثار والأحاديث، وما ذكر في التفسير، وما ذكر في التاريخ ما تجد كلمة واحدة عن الصحابة أنهم قالوا: يا رسول الله ما معنى الاستواء؟ أو كيف استوى؟ أو ما معنى اليد؟ وما معنى قوله جل وعلا: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] أو ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، أو ما أشبه ذلك، مما يدل على أنهم لم يشكّوا في هذا، لو شكوا لسألوا كما سألوا عن أشياء لا تساوي هذا ولا هي قريبة منه، سألوا عن الأهلة، سألوا عن اليتامى، سألوا عن المحيض، سألوا عن أشياء ذكرها الله جل وعلا لنا.

وهذا من أجل الأمور التي يهتم بها المسلم، فلم يحدُثْ منهم أي سؤال، مما يدل على أنهم قبلوه بدون شك، ولم يكن عندهم تردد في ذلك، هذا من البراهين والأدلة على أن هذا موافق للفطر والعقول، وأن الوحي جاء بما يوافق ذلك، لأن الرسول ﷺ كان يتكلم والحاضرون عنده مختلفون، حتى قد يكون فيهم الأعراب مثلاً، والأعراب كما قال أنس

فقال بعضهم: دعونا من تفسير العلماء، إنما احتججنا بكتاب الله، فأتوا بكتاب الله.

قلنا: نعم، هذا الذي احتججتم به هو حق، كما قال الله ﷻ، وبها نقول على المعنى الذي ذكرنا، غير أنكم جهلتم معناه، فضَلَلْتم عن سواء السبيل، وتعلقتم بوسط الآية، وأغفلتم فاتحتها وخاتمتها، لأن الله ﷻ افتتح الآية بالعلم بهم، وختمها به، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

رضي الله عنه، يقول: «نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله، ونحن نسمع»(١)؛ لأنهم يستفيدون من ذلك، كما في السنن، عن أبي رَزين رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره». قال: قلت: يا رسول الله، أوَيَضحك الرب؟ قال: «نعم». قلت: لن نعدم من رب يضحك خيراً»(٢)،. هل قال: كيف يضحك؟ أو لماذا يضحك؟ فاستدل على أن الضحك يدل على الرضا، وأنه سوف ينيلنا الخير، فأقره الرسول ﷺ على ذلك، وهؤلاء ما يستطيعون أن يسمعوا مثل هذا الكلام، تقول لهم: إن الله يضحك، فيقولون: أعوذ بالله! الله يضحك! ما يؤمنون بهذا، وربما يرمون من أثبته بالعظائم.

المقصود: أننا بحاجة إلى مثل هذه الأشياء، لأنه يوجد من ينكرها، هذا الذي أردته.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، ح (١٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الإيمان، باب فيما أنكرت الجهمية ح (١٨١) وأبو داود الطيالسي ح(١١٨٨)، وأحمد (٢٦/١٠٦ ح ١٦١٧٨) وابن أبي عاصم في السنة (١/٢٤٤).

ففي هذا دليل على أنه أراد العلم بهم وبأعمالهم، لا أنه نفسه في كل مكان معهم كما زعمتم، فهذه حجة بالغة لو عقلتم، وأخرى: أنّا لما سمعنا قول الله ﷻ في كتابه: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. و﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] .

وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٣ ـ ٤]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]. و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] .﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]. و﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وما أشبهها من القرآن آمنا به.

وعلمنا يقيناً بلا شك أن الله فوق عرشه فوق سماواته كما وصف، بائن من خلقه، فحين قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]. قلنا: هو معهم بالعلم الذي افتتح به الآية وختمها، لأنه قال في آي كثيرة ما حقق أنه فوق عرشه، فوق سماواته، فهو كذلك لا شك فيه، فلما أخبر أنه مع كل ذي نجوى، قلنا: علمُه وبصره معهم، وهو بنفسه على العرش بكماله كما وصف، لأنه لا يتوارى منه شيء، ولا يفوت علمَه وبصرَه شيءٌ في السماء السابعة العليا، ولا تحت الأرض السابعة السفلى.

قوله: «**لا يفوت علمه وبصره شيء**»، لعلها «شيئاً» بالنصب وليست بالرفع على أن علمه وبصره فاعل، ويمكن أن تحمل «علمه وبصره» على النصب فتصح العبارة. والمقصود: الإخبار بأنه يعلم كل شيء، ويبصر كل شيء.

وهذا كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] من فوق العرش.

ملخص هذا الكلام أن المعية معناها المصاحبة كما هي في لغة العرب، وليس معناها الامتزاج والاختلاط، فالله جل وعلا معنا ـ كما يقول هنا ـ بعلمه وبصره، وكذلك نقول: بإحاطته وقبضته، لو شاء لقبض الخلق كلهم بيده ويكون كله حقيراً صغيراً، فهو محيط بهم ولا يخفى عليه شيء، فإذا كان بهذه الصفة يصح أن يكون معنا لا يخفى عليه كلامنا، ولا تخفى عليه حالنا، ولا يخفى عليه شيء مما نعمل.

ولهذا صارت الآية تدل على التخويف، ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ يعني راقبوه وخافوه، فإنه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأفعالكم، وليس معنى المعية الامتزاجَ والاختلاط بذاته تعالى وتقدس.

ولهذا نقول: إن المعية تدل على المصاحبة، وقد عرفنا وسمعنا من كلام العرب قولهم: سرنا والقمر معنا، هل هذا كلام غير صحيح؟ نقول: صحيح، هم في الأرض والقمر في السماء، فهو كلام صحيح، ورسولنا ﷺ يقول إذا سافر: «اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل»[1]، الذي يكون خليفة في الأهل كيف يكون صاحبا في السفر، لولا أنه محيط بنا، وعالم بنا، وهو خليفة في الأهل بعلمه وإحاطته، وقبضته، وحفظه، وكذلك هو مع المسافر بذلك.

وكذلك قوله جل وعلا: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩] معه في ماذا؟ هم داخلون في بدنه، مخالطون لدمه ولحمه؟! ما يكون هذا أبداً، ليس هذا المراد، بل المراد معه على الإيمان والجهاد، والقيام بأمر الله، وهكذا يصح أن يقول الإنسان: معي زوجتي، وإن كانت

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج، ح(١٣٤٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فهل من حجة أشفى وأبلغ مما احتججنا به عليك من كتاب الله تعالى؟! ثم الروايات لتحقيق ما قلنا متظاهرة عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين، سنأتي منها ببعض ما حضر إن شاء الله تعالى، ثم إجماع من الأولين والآخرين، العالِمين منهم والجاهلين، أن كل

زوجته في بلد وهو في بلد، ويقول: معي مالي، وإن كان ماله في بلد وهو في بلد، فالمعية تختلف باختلاف ما أضيفت إليه، ولكن أصل معناها في لغة العرب: المصاحبة، وليس معناها الامتزاج والاختلاط.

ولهذا جمع بينها وبين العلو في آية واحدة، قال جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

فأخبرنا جل وعلا أنه مستوٍ على عرشه، وعالٍ على عرشه، وأنه لا يخفى عليه شيء، وأنه معنا، هذه الآية اقتضت التخويف، يعني راقبوا الله وخافوه فإنه لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، يعلمها ويبصرها وأنتم في إحاطته وقبضته.

فإذاً المعية لا تدل كما زعم هذا القائل على الامتزاج والاختلاط وأنه في كل مكان تعالى الله وتقدس.

ثم لو قيل مثلاً: إن الآية تدل على ما قلتَ لصار هذا فيه اختلاف مع الآيات الأخرى، أي صارت مخالفة لذكر العلو والاستواء، علو الله جل وعلا واستوائه، كما ذكر الإمام هنا آيات عدة تدل على علو الله جل وعلا، وأنه فوق خلقه، وأنه القاهر فوق عباده.

قوله: **فهل من حجة أشفى وأبلغ مما احتججنا به عليك من كتاب الله..»** يقرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الحجة في كون الله جل وعلا مستوياً على عرشه تكون

واحد ممن مضى وممن غبر إذا استغاث بالله تعالى، أو دعاه، أو سأله، يمد يديه وبصرَه إلى السماء يدعوه منها، ولم يكونوا يدعونه من أسفلَ منهم من تحت الأرض، ولا من أمامهم، ولا من خلفهم، ولا عن أيمانهم، ولا عن شمائلهم، إلا من فوق السماء، لمعرفتهم بالله أنه فوقهم، حتى اجتمعت الكلمة من المصلين في سجودهم: سبحان ربي الأعلى، لا ترى أحداً يقول: ربي الأسفل، حتى لقد علم فرعون في كفره وعتوّه على الله أن الله ﷻ فوق السماء، فقال: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧].

عقليةً، وتكون شرعية، وفطرية، وإجماعية، فاجتمعت الحجة في ذلك، أما كونها عقلية فمما هو معلوم أن الله جل وعلا لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته تعالى الله وتقدس، فإنه خلقهم خارج ذاته، وليس معقولاً أنه يكون أسفل منهم، لأن السُّفل نقص، يتعالى ربنا جل وعلا عنه ويتقدس، فلا بد أنه فوق، هذا من ناحية العقل.

أما من ناحية الفطرة فما ذكر من أن الداعي يرفع يديه إلى السماء يدعو ربه، وهؤلاء الذين يريدون أن يفروا من هذه الحجة، يقولون: السماء قبلة الدعاء، كما أن الكعبة قبلة المصلي، فهذا كلام هراء، قبلة الدعاء، هل الدعاء له قبلة؟!

هم يَدْعون الله جل وعلا، ما يَدْعون السماء، ولا يدعون قبلة معينة، يسألون ربهم فيمدون أيديهم مستجدين لربهم جل وعلا، وهذا أيضاً بإجماع أتباع الرسل، الذين اتبعوهم أجمعوا على ذلك، ولهذا أخبر موسى ﷺ فرعون بأن ربه في السماء، فأراد أن يموه على السذج والجهلة، فقال لوزيره: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾. فالكاذب هو فرعون

ففي هذه الآية بيانٌ بيّن ودلالة ظاهرة أن موسى كان يدعو فرعون إلى معرفة الله بأنه فوق السماء، فمن أجل ذلك أمر ببناء الصرح، ورام الاطلاع إليه.

لعنه الله، وفرعون الذي أراد أن يصعد في السماء على حسب خبر موسى له هو أهدى منهم أهدى من هؤلاء الذين أنكروا علو الله جل وعلا، وقالوا: إنه في كل مكان، وكذلك ما جاء به المصطفى ﷺ من الإخبارات الكثيرة، وما أخبرنا الله جل وعلا أنه فوقنا، وكما قال جل وعلا: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦]، والآيات في هذا كثيرة حتى أوصلها بعض العلماء إلى ألف دليل، ولكن هل تجزئ الأدلة مع كثرتها؟! إذا كان الله جل وعلا كما قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، فلا حيلة في ذلك، فهو ربكم الذي يفعل ما يشاء، فإذا أراد الله إغواء إنسان فلا تفيده كثرة الأدلة، وإنما يفيده اللجوء إلى الله وسؤاله الهداية، نسأل الله جل وعلا ألا يضلنا.

قوله رحمه الله: «**أن موسى كان يدعو فرعون إلى معرفة الله بأنه فوق السماء**» سبق أن المقصود بالسماء العلو وليس السماء المبنية، إذا قال: السماء يعني فوق في العلو، وهذا جاء الكتاب به، وكذلك اللغة، وبعض العلماء[1] يقول: إن «في» هذه بمعنى «على» كما دلت عليها آيات أخرى، كقوله جل وعلا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، ليس المراد أن يدخلوا في الأرض، وإنما يسيرون عليها، و «في» تأتي بمعنى «على» كثيراً، وسواءٌ قيل هذا أو هذا فهو صحيح، ولكن الأول أظهر وأبين.

---

(١) انظر: الحموية (ص٣٩٦) وبيان تلبيس الجهمية (١/ ١٧٧، ٤/ ٢٩٢) واجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ١٤٤).

وكذلك نُمرود ـ فرعون ـ إبراهيم، اتخذ التابوت والنسور، ورام الاطلاع إلى الله لما كان يدعوه إبراهيم إلى أن معرفته في السماء.

وكذلك كان محمد ﷺ يدعو إليه الناس، ويمتحن به إيمانهم بمعرفة الله ﷻ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «**اتخذ التابوت والنسور ورام الاطلاع إلى الله**» القصة الإسرائيلية التي تذكر أنه ربّى نسوراً أربعة وغذاها، فلما كبرت ركب في التابوتوربط التابوت بأرجلها، فطارت به، هذه قد تصح وقد لا تصح[1]. فإن صحت فهي غير ممكنة، كيف يخاطر بنفسه بهذا إلا إذا كان مجنوناً!!

ولكن الأخبار الإسرائيلية والحكايات ما تكون دليلاً على أصول الدين، وما ثبت في الكتاب والسنة فيه الغنية عن مثل هذه الحكايات وغيرها، غير أن مثل هذه الأشياء تذكر من باب الاعتضاد والاستشهاد وليست للاعتماد، فلا يعتمد عليها.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «**وكذلك كان محمد ﷺ يدعو إليه الناس ويمتحن به إيمانهم بمعرفة الله ﷻ**» في هذا إشارة إلى حديث الجارية.

ولكن كوننا نقول: امتحن إيمانهم فهذا إيمان خاص، ليس الإيمان الذي يدعو إليه ﷺ، لأن الإيمان في العتق غير الإيمان الذي يجب على العبد أن يعمله، فالعتق يكفي فيه مجرد كونه عرف الأمور الظاهرة الجلية، ولا يلزم أن يكون آمن الإيمان الذي كُلف به العباد، لما قال لها أو قال سيدها: ألا أعتقها؟ قال: بلى، والحديث حديث معاوية بن

---

(١) هذه القصة ذكرت عن النمرود الذي ناظره إبراهيم، أو عن غيره من الكفار كبختنصر. انظر: تفسير الطبري (١٧/٣٨ ـ ٣٩) و (١٧/١٩٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٥٢).

عن معاوية بن الحكم السلمي، ﷺ قال: كانت لي جارية ترعى غنما لي في قُبُل أحد والجوانية، وإني اطلعت يوماً اطلاعة فوجدت ذئباً ذهب منها بشاة، وإني رجل من بني آدم، آسَفُ كما يأسفون، فصككتها صكة، فعظم ذلك على النبي ﷺ، فقلت: أفلا أُعتقها؟ فقال: «ادعها». فقال لها النبي ﷺ: «أين الله؟». قالت: في السماء. قال: «فمن أنا؟». قالت: أنت رسول الله قال: «أعتقها، فإنها مؤمنة»[1].

الحكم السلمي ﷺ، قال: كان لي جارية ترعى غنماً في الجوانية يعني قرب أُحُد، فاطلعت عليها يوماً فوجدت الذئب قد أخذ واحدة منها وأنا رجل من بني آدم آسَف كما يأسفون فصككتها يعني لطمها، يقول: ثم ندمت فأتيت النبي ﷺ، وقلت: يا رسول الله إني فعلت كذا وكذا، فعظم ذلك ﷺ، فقلت: ألا أعتقها، قال: «بلى، ائتني بها»؛ لأن الرسول ﷺ يريد أن يعرف هي مؤمنة أو لا، لأن الله جل وعلا يقول: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾، فلما جاءت قال لها: أين الله، قالت: في السماء، فقال: من أنا، قالت: أنت رسول الله، فقال: «أعتقها فإنها مؤمنة»، فهل يكفي هذا في الإيمان؟ كون الإنسان يقول: إن الله في السماء، وإن هذا رسول الله؟

لا يكفي حتى يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، إلخ، ولكن الأمر في العتق غير هذا، إذا كان على هذه الصفات حكم بأنه مؤمن وتكفي هذه الرقبة في الكفارة ونحوها فيما هو لازم لإعتاق الرقبة.

وقوله: «أنه كان يمتحن الناس على أن الله في السماء» فهذا فيه إجمال، والمراد به هو هذا فقط، وليس كل شيء.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، ح (٥٣٧).

قال أبو سعيد: ففي حديث رسول الله ﷺ هذا دليل على أن الرجل إذا لم يعلم أن الله ﷻ في السماء دون الأرض فليس بمؤمن، ولو كان عبداً فأعتق لم يجز في رقبة مؤمنة، إذ لا يعلم أن الله في السماء. ألا ترى أن رسول الله ﷺ جعل أَمارةَ إيمانها معرفتَها أن الله في السماء؟

وفي قول رسول الله ﷺ: «أين الله؟». تكذيب لقول من يقول: هو في كل مكان، لا يوصف بـ«أين»، لأن شيئاً لا يخلو منه مكان يستحيل أن يقال: «أين هو؟»، ولا يقال: «أين»، إلا لمن هو في مكان يخلو منه مكان.

قوله ﷺ: «أين الله؟» هذا يدلنا على أنه يجوز أن نسأل فنقول: أين الله، وهذا يَعيبه علينا الجهمية فيسموننا الأينية، كما قال الكوثري[(١)] في بعض كتبه «الأينية»، ومعنى ذلك أنكم تسألون بأين الله، لأن أين وضعت للمكان، والله عنده لا مكان له تعالى الله وتقدس.

فنقول: إن الذي سأل هو رسول الله ﷺ ونحن نتبعه، وأنت ما تَعيب إلا رسول الله ﷺ في ذلك، فيجوز أن يقال: أين الله، ويجوز أن يسأل الصبيان أين الله؟ نقول: في السماء، والسماء تعني العلو أي أنه فوق تعالى وتقدس، وليس معنى في السماء أن السماء تحويه أو تُقِلُّه تعالى الله وتقدس عن ذلك، فهو أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء.

قوله: **«لا يخلو منه مكان»**: يعني مثل الأرض، أو مثل السفل، هذا مقصوده، ومعنى ذلك أن الله في العلو فقط.

وأما قوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، يعني أنه معبود في الأرض وفي السماء.

---

(١) انظر: القائد إلى تصحيح العقائد للشيخ المعلمي (ص٢٠٣).

ولو كان الأمر على ما يدَّعي هؤلاء الزائغة لأنكر عليها رسول الله ﷺ قولها وعلَّمَها، ولكنها علمت به، فصدقها رسول الله ﷺ، وشهد لها بالإيمان بذلك، ولو كان في الأرض كما هو في السماء لم يتم إيمانها حتى تعرفه في الأرض، كما عرفته في السماء.

فالله تبارك وتعالى فوق عرشه، فوق سماواته، بائن من خلقه، فمن لم يعرفه بذلك لم يعرف إلهه الذي يعبد، وعلمه من فوق العرش بأقصى خلقه وأدناهم واحد، لا يبعد عنه شيء، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سَبَإ: ٣] سبحانه وتعالى عما يصفه المعطلون علواً كبيراً.

عن ابن المبارك، قال: قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: «بأنه فوق السماء السابعة على العرش، بائن من خلقه».

وهو جل وعلا لا يخفى عليه شيء، ولا يفوته سمع، ولا يحجب بصره حاجب، تعالى الله وتقدس، محيط بخلقه كلهم وهم في قبضته، كما سبق في معنى المعية.

قوله: «**يعزب**» يعني: يغيب، معناه لا يغيب عنه شيء، لا في السماء، ولا في البحار ولا في غيرها، فهو يعلم كل شيء ويشاهده تعالى الله وتقدس، مع كونه في السماء كما جاءت النصوص، ولا يخفى عليه مما تعملون شيئاً، ولهذا كما سبق أن الله جمع بين علوه وبين معيته في آية واحدة حتى نعلم ذلك، يُعلمنا ربنا ذلك، ونحن عرفنا ربنا بصفاته التي تعرف بها إلينا في كتابه، وفيما جاء به رسولنا ﷺ، كما عرفنا أيضاً إلى نفسه بمخلوقاته، ومخلوقاته آياتٌ تدل عليه تعالى وتقدس.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «**بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه**» معنى بائن من خلقه أنه ليس مخالطاً لهم، بل هو فوق، فليس هو معهم بذاته

قال أبو سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وما يحقق قول ابن المبارك قول رسول الله ﷺ للجارية: «أين الله؟». يمتحن بذلك إيمانها[١]، فلما قالت: في السماء، قال رسول الله ﷺ: «أعتقها، فإنها مؤمنة». والآثار في ذلك عن رسول الله ﷺ كثيرة، والحجج متظاهرة، والحمد لله على ذلك.

عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمُهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمْكم أهل السماء»[٢].

كما يقول هذا الضال الذي يقول: إنه في كل مكان، تعالى الله وتقدس.

قوله: «**مما يحقق قول ابن المبارك: قول رسول الله: أين الله**» يعني أن قول الرسول «أين الله» دليلٌ يدل على ما قاله ابن المبارك، والأدلة على هذا كثيرة ليس هذا فقط، كل النصوص التي جاءت في علو الله تدل على هذا، ولهذا لما بلغ الإمام أحمد قول ابن المبارك، قال: هكذا هو عندنا كذلك[٣]، يعني أن هذا أمر متفق عليه عند أهل السنة، وعند أهل الحق.

حديث: «**الراحمون يرحمهم الرحمن**» جاء في الحديث «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، بهذا اللفظ، والحديث هذا جاء في الصحيحين، ولكن ليس بهذا اللفظ، لما قال سعد لرسول الله ﷺ حينما بكى عندما أخذ الصبي الذي في السياق ذرفت عيناه، قال سعد:

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ح (٥٣٧).

(٢) أخرجه الحميدي في مسنده (١/ ٥٠٣)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٤)، وأحمد (١١/ ٣٣ ح ٦٤٩٤)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرحمة، ح (٤٩٤١)، والترمذي في جامعه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين ح (١٩٢٤)، وقال: حسن صحيح، وصححه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٧٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢/ ٥٩٤).

(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٧/ ١٥٦).

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اشتكى أحدكم شيئاً، أو اشتكى أخ له، فليقل: ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، واغفر لنا حوبنا، وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزلْ شفاءً من شفائك، ورحمة من رحمتك على هذا الوجع، فيبرأ»[١].

ما هذا يا رسول الله، قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٢] في رواية: فارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء[٣].

قوله ﷺ: «**إذا اشتكى أحدكم شيئاً أو أشتكى أخ له فليقل**»، هذا أمر من الرسول ﷺ، ولهذا استدل بهذا بعض العلماء على أن الرقية مستحبة إذا كانت من الإنسان نفسه، أو أنه يتبرع بذلك، يرقي أخاه أو ما أشبه ذلك، وأنها من العلاج المفيد جداً، لأنها لجوء إلى الله جل وعلا وسؤال له بأن يشفي.

وقوله: «**ربنا الذي في السماء**» يعني أنه في العلو، تعالى الله وتقدس.

وقوله: «**تقدس اسمك**» تقدس يعني تطهر وتنزه عن النقوص والعيب.

وقوله: «**أمرك في السماء والأرض**»، جعل الأمر عاماً مطلقاً، قد يكون

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب كيف الرقى ح(٣٨٩٢) والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة ح (١٠٨٠٩) والحاكم (١/ ٤٩٤) والبيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ٣٣٧) وقال الذهبي في زياد بن محمد: منكر الحديث، وضعفه الألباني في تعليقه على السنة.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ ح (٦٦٥٥)، ومسلم، كتاب الجنائز ح (٩٢٣).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ح (١٩٢٤).

. . . .

الأمر كونياً، وقد يكون الأمر قدرياً أو كلاهما، فإنه يشمل هذا وهذا، فأمره القدري عام شامل، وكذلك أمره الشرعي.

وقوله: «**كما رحمتك في السماء**»، المقصود بالرحمة هنا الصفة.

وقوله: «**اجعل رحمتك**» يعني أثرها أثر الرحمة التي هي صفته، فالرحمة تطلق على ما هو صفة لله التي هي معنى قائم به، وتطلق على آثارها، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١٠٧﴾ [آل عمران: ١٠٧]، يعني في الجنة، فجعل الجنة رحمة لأنها من آثار رحمة الله.

وقوله: «**واغفر لنا حوبنا**» الحوب هي الذنوب، فتوسل إلى الله أولاً بعلوه وبأسمائه المقدسة، وكونه جل وعلا جعل أمره في الأرض والسماء وهذا من التوسل إلى الله جل وعلا بصفاته، ثم سأله بعد التوسل، وهكذا ينبغي للداعي أن يبدأ بالثناء على الله، والتوسل بأسمائه، ويمجده في ذلك، ثم يصلي على النبي ﷺ. ثم يسأله، وهذا من أسباب الإجابة.

وقوله: «**أنت رب الطيبين**» هذه ربوبية خاصة؛ لأن الطيب هو الذي يضاف إلى الله، وإلا فهو رب كل شيء، وهذا من باب الأدب لله جل وعلا ومن باب التوسل أيضاً.

قوله: «**أنزل شفاءً من شفائك**» إذا وجد الشفاء، فهو من الله جل وعلا، وكل شيء جعل الله له سبباً.

وقوله: «**ورحمةً من رحمتك**» الرحمة المقصود بها هنا أثر رحمته التي هي الإحسان إلى خلقه.

قوله: «**على هذا الوجِع**» الوجعُ المريض سواءٌ كان الراقيَ نفسَه أو المرقي.

عن جبير بن مُطْعِم قال: جاء رجل أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد هَلَكَتِ المواشي، ونهكت الأموال، وإنا نستشفع بك على الله، وبالله عليك، فادع الله أن يسقينا، فقال النبي ﷺ: «يا أعرابي، ويحك! وهل تدري ما تقول؟ إن الله أعظم من أن يستشفع عليه بأحد من خلقه، إن الله فوق عرشه، فوق سماواته، وسماواته فوق أرضيه مثل القبة ـ وأشار النبي ﷺ بيده مثل القبة ـ وإنه لَيَئِطُّ أطيط الرحل بالراكب»[(١)].

وقوله: **«فيبرأ»** يعني: إذا قال هذا القول مؤمناً به، جازماً بذلك مصدقاً، فإن الله جل وعلا يزيل عنه الألم؛ ولكن إذا قاله الإنسان من باب التجربة فهذا لا ينبغي، ولا ينفعه، يجب أن يكون بالجزم والتصديق بالرسول ﷺ، لأنه قال: فيبرأ.

حديث جبير بن مطعم؛ ضعفوا هذا الحديث، ولكن له شواهد عدة، صححه شيخ الإسلام وغيره[(٢)].

والأطيط: هو صوت الرحل من ثقل الحمل، **«ليئط به أطيط الرحل بالراكب»**، وهو يدل على الحقيقة، وعلى أن الله فوق عرشه حقيقةً، ومعلوم أن الرسول ﷺ أعلم الخلق بالله، وهو صلوات الله وسلامه عليه لا يقول إلا حقاً، لأنه لا ينطق عن الهوى، وإنما ينطق بالوحي، وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أحرصُ على هداية الناس من غيره، فلا يمكن أن يذكر الباطل، أو الكفر، أو الذي يدل على العقيدة

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في الجهمية، ح (٤٧٢٦)، وابن خزيمة (ص ١٠٣ ـ ١٠٤)، وابن أبي عاصم (٥٧٥ ـ ٥٧٦)، والآجري (ص ٢٩٣)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٣٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤١٧)، وابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٤١)، والبغوي في شرح السنة (١/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٢٥٤)، ومجموع الفتاوى (١٦/ ٤٣٥).

عن العباس بن عبد المطلب ﵁ قال: كنت بالبطحاء في عِصابة، وفيهم رسول الله ﷺ، فمرت سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟». قالوا: السحاب قال: «والمزن؟». قالوا: والمزن. قال: «والعنان؟». قالوا: والعنان. قال: فقال: «ما بُعْدُ بين السماء والأرض؟». قالوا: لا ندري. قال: «فإنَّ بُعْدَ ما بينهما إما واحدة،

الفاسدة، فكثير من المتكلمين لا يستطيع أن يسمع مثل هذا الكلام، فضلاً عن أن يؤمن به ويقبله، ولكن لا عبرة بهم لأنهم انحرفوا عن الحق، ومن انحرف عن الحق فلا حيلة فيه.

ولكن قول هذا الأعرابي: إننا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، الرسول ﷺ أنكر قوله: نستشفع بالله عليك، فالله لا يشفع عند أحدٍ تعالى الله وتقدس، فهو أعظم وأكبر وأجل من أن يجعل شفيعاً عند مخلوق من خلقه، تعالى الله وتقدس، ففي الرواية: أنه صار يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، لأنه تأثر كثيراً من ذلك، والصحابة يتأثرون بتأثره ﷺ، وهو دليل على أنه لا يقر الباطل إذا سمعه، بل ينكر إما بالفعل، أو بالقول، ولكن كان يَحْلُم على الجاهل ويعلمه، ولهذا قال له: «ويحك أتدري ما الله» فعلمه الشيء الذي يجب عليه، لأن الله جل وعلا بعثه هادياً معلماً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وفيه أنه أقر قوله: «نستشفع بك على الله». والاستشفاع: هو طلب الشفاعة.

والشفاعة معناها الدعاء هنا، ولهذا قال: نهكت الأموال، وجاعت العيال، وانقطعت السبل، يعني أننا بحاجة ماسة إلى الغيث ونزول المطر، فطلب أن يشفع لهم عند الله حتى ينزل المطر، وهذا أيضاً يدل على أنهم يعلمون أن الذي ينزل المطر هو الله، ولا أحد له صُنع في ذلك، وإنما يلجأ إليه في الطلب أنْ ينزل المطر على عباده تعالى وتقدس.

وإما اثنتان، وإما ثلاث وسبعون سنة، والسماء فوقها كذلك». حتى عد سبع سماوات، وفوق السماء السابعة بحر، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين السماء إلى السماء، وفوق ذلك ثمانية أوعال، ما بين أظلافهن ورُكَبهن مثل ما بين السماء إلى السماء، وعلى ظهورهن العرش، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين السماء إلى السماء، ثم الله ﷻ فوق ذلك تبارك وتعالى»[1].

حديث الأوعال، قد طعن فيه غير واحد من أهل العلم، وقالوا: إنه من رواية ابن إسحاق، وقد عنعن فيه وهو مدلس، ولكنه جاء من غير روايته، وهنا الرواية من غير طريق ابن إسحاق.

والشاهد منه إثبات علو الله، أما المسافات فجاءت مختلفة، فمرةً يقال: تأتي بالمئات، ومرة بأقل وأكثر، ويقولون: إن العدد لا مفهوم له، وإنما يذكر لذكر البعد، فقد يكون مثلاً للشيء الذي يعتاد عليه فثلاث وسبعون كثيراً ما تأتي، ولا يقصد بها نفس الحقيقة، أو أن المسافات تختلف باختلاف المسير، قد يكون المسير سريعاً وقد يكون بطيئاً، فمعلوم أن الوحي يأتيه بلحظة من عند الله جل وعلا، فمثلاً يحدث الأمر فيأتيه الوحي في الحال، الملائكة تنزل بسرعة، والرسول ﷺ عرج به من بيت المقدس إلى السماء السابعة، ثم رجع إلى بيت المقدس، ثم ذهب إلى مكة في ليلة واحدة، ووصل مكة مع طلوع الشمس، أو قبل ذلك. كذلك أخبرنا الرسول ﷺ بأن الميت إذا احتضر وخرجت روحه تذهب الملائكة بروحه إلى السماء، فتستفتح أبواب السماء فإن كان تقياً

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٢ ح ١٧٧٠)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في الجهمية، ح (٤٧٢٣)، والترمذي، أبواب التفسير، باب ومن سورة طه ح (٣٣٢٠)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في مقدمة السنن، ح (١٩٣)، وصححه الحاكم كما في المستدرك (٢/ ٤١٠)، وقواه ابن تيمية كما في الفتاوى (٣/ ١٩٢).

....

فتحت أبواب السماء لها حتى تصل إلى السماء السابعة، فيخاطبهم ربهم جل وعلا ويقول لهم: اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فيعودون به إلى جنازته إلى بدنه، وهذا بينما يغسل ويصلى عليه، فإذا وضع في قبره رجعت إليه روحه، وجاءته الملائكة وسألته[1]، هذا أيضاً سرعة هائلة والمسافات كبيرة جداً.

وفي آية أخبر الله جل وعلا أن الأمر يأتي من عنده إلى الأرض في يوم مقداره ألف سنة مما نعد يعني المسافة، وفي آية أخرى ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]. وفيها خمسة أقوال للمفسرين[2]:

أحدها: أن هذه مدة المسافة بين الأرض وبين السماء السابعة إلى علو السماء السابعة، وعلى كل فإن السماء الآن كما هو مشاهد بعيدة جداً، ولا يمكن للمخلوق أن ينالها بقوته أو بصنعته، وقد أخبرنا ربنا جل وعلا أنه بناها، وأنه أتقنها، وأمرنا أن ننظر إليها، وكثير من الناس اليوم يقول: إنه ليس هناك سماء مبنية، وإنما هو فضاء، ولهذا يقولون: كواكب تسبح بالفضاء، وليس ثمة سماء، فينكرون بناءً على الشيء الذي يحسونه، فإنهم إذا صَعِدوا ذهب الشيء الذي يرونه فلا أثر له، ولا يرون شيئاً وإنما يرون الكواكب، ولهذا أنكروا أن يكون هناك سماء مبنية.

والله جل وعلا أمرنا أن ننظر إليها، ولكن من المعلوم أن النظر إذا لم يكن أمامه شيء يصطدم به لا يمكن أن يرى شيئاً، وهذه هي الحجة

---

(١) ورد في سؤال القبر أحاديث منها، حديث أنس المتفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، ح (١٣٣٨) ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، ح (٢٨٧٠).

(٢) انظر: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (ص١٨١)، ودفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص١٥٨) وما بعدها.

....

التي احتج بها المعتزلة على إنكار النظر إلى الله جل وعلا كما سيأتي الإشارة إلى هذا إن أمكن.

المقصود: أن السماوات فوقنا كما قال ربنا جل وعلا إنها مبنية، ولها أبواب كما أخبرنا رسولنا ﷺ أن المؤمن إذا مات تستفتح له أبواب السماء فتفتح، وأما الفاجر فإنها لا تفتح له أبواب السماء، كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠][(١)]، فأخبر أنها لا تفتح لهم الأبواب، والرسول ﷺ لما عرج به مع جبريل، قال: «وصلنا إلى السماء الدنيا استفتح بابها، فقالوا: من، فقال: جبريل، فقالوا: ومن معك، قال: محمد، قالوا: أو بعث إليه، قال: نعم، ففتحوا، وهكذا السماء الثانية والثالثة والرابعة، فمن نصدق؟[(٢)]

نصدق الرسول ﷺ، أو هؤلاء الذين ربما يريدون بأخبارهم هذه إفساد ديننا؟ ومن العجب أننا نسمع بعض المسلمين يتعلقون بهذه الأخبار والدعاوى، ويقررون كلام الملاحدة أو الكفار الذين ينكرون ما أخبر به ربنا جل وعلا فالله جل وعلا يقول: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق: ٦]، أفيأمرنا أن ننظر إلى شيء لا حقيقة ولا وجود له؟!!، لا يمكن هذا.

فالمقصود: أن إخبار الرسول ﷺ بهذه المسافات وقد جاءت مختلفة ليس في ذلك تناقض، ولا يكذب بعضها بعضاً، لأنه:

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/٤٩٩) ح (١٨٥٣٤).

(٢) أحاديث المعراج رويت عن جمع من الصحاب، منها حديث أنس المتفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ح (٧٥١٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، ح (١٦٢).

....

أولاً: المسير يختلف، فمسير المسافات يختلف على حسب السير.

الثاني: أن الأعداد قد لا يكون لها مفهوم أي لا تقصد بعينها، وإنما يقصد بها التكثير فقط.

قوله: «**وفوق ذلك ثمانية أوعال..**» الأوعال جمع وَعِل والوَعِل معروف، وهو كما يقال: تيس الجبل، أي ذكر الظباء وهذه ملائكة حملة العرش خلقهم الله على خلق الأوعال، وهي خلقة عظيمة وكبر عظيم هائل، ومعنى ذلك أن العرش له حملة من الملائكة، وذكر أنهم ثمانية[1]، ولكن جاء في القرآن: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، ويومئذ المقصود به يوم القيامة، في حديث آخر أنهم أربعة الآن، وإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية، وأنه يثقل عليهم جداً[2].

والله جل وعلا جعلهم كذلك لحكمة، قال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] في آيات، فهم كما وصفهم الرسول ﷺ بهذه العظمة، ولكن هذا لحكمة أرادها الله جل وعلا، وإلا فالذي يحمل العرش هو الله جل وعلا بقدرته، وليس هؤلاء هم الذين يحملونه، لأن العرش كبير جداً، ولكنه جعلهم بهذه الصفة لحكمة أرادها، وأخبرنا الرسول ﷺ بهذا حتى نؤمن به، والله يختبر عباده هل يؤمنون بالأخبار، أو يكذبونها ويردونها، ولكلٍ جزاء.

---

(١) كما تقدم ذلك في حديث الأوعال.

(٢) ورد ذلك في حديث معضل، أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٨٤)، وروي موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه ابن أبي زمنين في أصول السنة (ص٩١).

عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ لما أسري به مرت رائحة طيبة، فقال: «يا جبريل ما هذه الرائحة؟». فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، كانت تمشطها، فوقع المشط من يدها، فقالت: باسم الله، فقالت ابنته: أبي؟ قالت: لا، ولكن ربي ورب أبيك الله، فقالت أخبر بذلك أبي؟ فقالت: نعم، فأخبرته، فدعا بها، فقال: من ربك؟ هل لك رب غيري؟ قالت: ربي وربك الذي في السماء، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم دعا بها وبولدها فألقاهم فيها. وساق أبو سلمة الحديث بطوله[1].

عن أبي عبيدة، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يرحم من في الأرض لم يرحمه من في السماء»[2].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد

قوله: «**ببقرة**» يعني في إناء كبير من نحاس فأحميت فألقاها هي وأولادها فيه، وهذا أخرجه أحمد والطبراني، ولكن إذا صح فهو موافق لما عندنا، وإلا فعندنا ما يغنينا عنه.

قوله: «**من في السماء**» الله جل وعلا هو الذي يرحم، والأدلة على ذلك كثيرة معلومة.

قوله: «**وأنا في الأرض واحد أعبدك**»، يعني أنه في ذلك الوقت ليس

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣)، والطبراني (١١/ ٤٥٠ ـ ٤٥١)، والحاكم (٢/ ٤٩٦ ـ ٤٩٧) وصححه، والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٣٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (١/ ١٠١)، وفي الكبير (١٠/ ١٨٣)، وأبو يعلى (ق ٢/ ٢٣٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٨٧): رجال أبي يعلى رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، فهو مرسل. اهـ.

أعبدك»[١].

في الأرض من يعبد الله إلا إبراهيم، ولهذا لما دخل بلاد الجبار المتكبر النمرود قال له قومه، أو أقرباؤه الذين عنده: إنه جاءك رجل معه امرأة هي أجمل الناس لا ينبغي أن تكون إلا لك، فاستدعى إبراهيم، وعلم أنه إذا قال: إنها زوجتي أخذها، وإذا قال: أختي لم يأخذها، فهذا شيء ما ندريه والله أعلم ما المقصود، فقال له: إنها أختي، ثم لما خرج من عنده قال لها: سوف يستدعيك، ويسألك فلا تكذبيني، أنا قلت له: إنك أختي، وأنت أختي في الإسلام، ليس في الأرض اليوم مسلم غيري وغيرك[٢]، فهذا يوافق ذلك، وهذه إحدى الكذبات التي يتعلل بها يوم القيامة، يقول: إني كذبت ثلاث كذبات[٣] مع أنها ليست كذبة، وإنما هي من المعاريض، ولكن عدها ليعتذر بها.

فالمقصود: أن قوله: «وأنا واحد في الأرض»، يعني أعبدك في الأرض وحدي ما معي أحد، ومعه زوجته وقد يكون هذا قبل أن يتحصل على الزوجة لأنه آتاه الله رشده صبياً، وأنكر على قومه عبادتهم الأصنام فأرادوا أن يحرقوه، ولهذا قالوا: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٠]، يذكرهم يعني يسبهم ويذمهم، يقال له: إبراهيم، ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء: ٦١]، يعني يشهدون أنه فعل ذلك، فالكفار لا يأخذونه إلا ببينة، فيأخذونه

---

(١) أخرجه أبو يعلى كما في تفسير ابن كثير (٥/٣٤٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٠/٣٤٦).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ ح (٣٣٥٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، ح (٢٣٧١).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب (ذرية من حملنا مع نوح) ح (٤٧١٢)، ومسلم، كتاب الإيمان ح (١٩٤).

عن أنس رضي الله عنه، قال: أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر، فخرج رسول الله ﷺ فحسر عنه ثوبه حتى أصابه، فقلنا: يا رسول الله، لم صنعتَ هذا؟ قال: «لأنه حديث عهد بربه»(١).

قال أبو سعيد: ولو كان على ما يقول هؤلاء الزائغة في كل مكان، ما كان المطر أحدَث عهداً بالله من غيره من المياه والخلائق.

عن ابن عمر، قال: لما قبض رسول الله ﷺ قال أبو بكر رضي الله عنه: أيها الناس إنْ كان محمد إلٰهكم الذي تعبدون فإن إلٰهكم قد مات، وإن كان إلٰهكم الله الذي في السماء، فإن إلٰهكم لم يمت، ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ حتى ختم الآية [آل عمران: ١٤٤].

بمجرد التُّهمة والدعوة، فلما أقر لهم، قالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا فقال فعلهم كبيرهم هذا، وقد وضع الفأس في رقبة الكبير وتركه حتى يكون حجة عليهم، ولكن لا حيلة فيمن أضله الله جل وعلا.

المقصود: أن قوله هذا يتفق مع قوله الآخر.

قوله: «**حديث عهد بربه الله جل وعلا**» يعني: الله جل وعلا أنزله الآن، وهل يلزم أن يكون هذا معناه أنه جاء من السماء السابعة ومن عند العرش؟ لا يلزم.

ولكن معنى «**حديث عهد بربه**» يعنى: أنزله الآن.

قول أبي بكر رضي الله عنه؛ هذا لما علم الصحابة أنه ﷺ مات، أصيبوا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، ح (٨٩٨).

(٢) ذكره الذهبي في العلو (ص ٦٢) من طريق المصنف.

. . . .

حتى كادوا يَفقِدون عقولهم، وأظلمتْ عليهم الأرض كما قال أنس[(١)]، وحتى إن عمر بن الخطاب ﷺ أخذ السيف وصار يتوعد من يقول إنه مات لأضربنه بالسيف لأنه لم يمت، حتى أتى أبو بكر، فكان رابط الجأش ولم يصبه ما أصابهم، فدخل عليه أولاً ثم حسر عن وجهه الرداء الذي غُطي به، ثم قبّل وجهه وقال: طِبْتَ حياً وميتاً، أما الموت الذي كتبه الله عليك فقد ذقته، ثم خرج وعمر يتكلم، فقال له: اجلس، فأبى فصَعِد وقال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا الآية، يقول عمر: فسُقط بيدي وعقرت فصارت رجلي لا تحملني[(٢)].

المقصود: أن أبا بكر ﷺ كان رابط الجأش، وكان عنده من الطمأنينة وعنده من العلم ما ليس عند غيره، ولهذا لما ارتد الناس ولم يبق إلا أهل المدينة، وحتى الذين حولها من الأعراب ارتدوا ورجعوا، عندئذ خاف الصحابة خوفاً شديد، فأراد أبو بكر أن يُنْفِذَ الجيش (جيش أسامة) وكان النبي ﷺ أمرهم أن يذهبوا، فلما ذهب إلى الجُرف قرب المدينة خيم هناك وبقي يتردد، كان يقول له الرسول: ألم تذهب، فقال:

---

(١) عن أنس قال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، أضاء من المدينة كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ، أظلم من المدينة كل شيء، وما فرغنا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا».
أخرجه أحمد (٢١/ ٣٥ ح ١٣٣١٢)، والدارمي (ح٨٩)، وابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ﷺ، ح (١٦٣١)، والترمذي، أبواب المناقب، ح (٣٦١٨) وقال: غريب صحيح، وقال الحاكم (٣/ ٥٩): صحيح على شرط مسلم.

(٢) القصة عند البخاري مفرقة، فأخرجها في كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت، ح (١٢٤١) وفي المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ح (٤٤٥٢، ٤٤٥٤).

عن جرير بن حازم، قال: سمعت أبا يزيد يعني المدني، قال: لقيت امرأة عمر، يقال لها: خولة بنت ثعلبة ـ وهو يسير مع الناس ـ فاستوقفته، فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها رأسه، حتى قضت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، حبست رجالات قريش على هذه العجوز؟، فقال: ويلك وهل تدري من هذه؟ قال: لا. قال: «هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع

كيف أذهب وأنت في هذه الحال أسأل عنك الركبان، فلما توفي ﷺ قال أبو بكر لأسامة: اذهب بجيشك، فأتى إليه الصحابة يحاولون ألا يرسله، يقولون: كيف ترسله والأعداء محيطون بالمدينة، قال: والله لا أحُلُّ رايةً عقدها رسول الله، ولو رأيت الكلاب تجر نساء المدينة بأرجلهم، قالوا: أما تخاف؟

قال: لم أخف منذ كنت في الغار مع رسول الله ﷺ[1].

وهكذا كلما وقعوا في شدة لجؤوا إلى سؤاله.. ولهذا لما صار الناس بهذه المثابة صار يعقد الألوية ويرسل الصحابة لقتالهم وهو مطمئن بنصر الله جل وعلا، ويقول: إن الله وعدنا فلا بد أن يصدق الوعد، ولكن أخاف ألا يكون وعده يتفق مع حالتنا، فإياكم أن تخالفوا أمر رسول الله ﷺ.

المقصود: أن هذا دليل على ثباته وعلى قوة جأشه رضي الله عنه، وهو يفضل الصحابة في أشياء كثيرة في هذا وغيره.

قوله: «**هذه امراة سمع الله شكواها**» يعني: استجاب لها، وإلا فإن الله جل وعلا لا يفوت سمعه شيء، سواء كان خيراً أو شراً، قال الله جل وعلا: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

---

(١) أخرجه البيهقي في الاعتقاد (ص ٣٤٥).

سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت عنها حتى تقضي حاجتها، إلا أن تحضر صلاة فأصليها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها[(١)].

عن خيثمة، أن عبد الله، قال: «إن العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الإمارة، حتى إذا تيسر له نظر الله إليه من فوق سبع سماوات، فيقول للملك: اصرفه عنه، قال: فيصرفه، فيتظنى بحيرته: سبقني فلان، وما هو إلا الله»[(٢)].

المقصود هنا «**سمع قولها**» يعني استجاب لها، لأنها كانت ظاهر منها زوجها على كبر سنه، وكذلك هي كبر سنها، فجاءت إلى النبي ﷺ تستفتيه، فكان يقول: «لا أرى إلا أنك بِنْتِ منه»، فكانت تقول: إلى الله أشكو صبيةً إن ضممتُهم إليَّ جاعوا، وإن تركتهم عنده ضاعوا[(٣)]، فكانت عائشة في غرفة في الحجرة، تقول: كان يخفى علي بعض كلامها، فسمع الله جل وعلا كلامها من فوق سبع سماوات، فأنزل قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، هذا مقصود عمر، وهذا دليل على علو الله وأن سمعه تعالى وتقدس لا يحجبه شيء، وأنه يسمع دبيب النمل في الليلة الظلماء على الصفا الأسود الأصم، وكذلك نظره تعالى وتقدس، وسيأتي ما يدل على هذا.

قوله: «**فيتظنى بحيرته**» يعني: أنه يحار كيف أنا عملت هذا العمل ثم صدني عنه فلان أو فلان أو السبب الفلاني؟ وهو خير له، لأن الله

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء (ص ٤٢٠)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٨/ ٦٠ ـ ٦١). وقال ابن كثير: هذا منقطع بين أبي يزيد وعمر بن الخطاب، وقد روي من غير هذا الوجه.

(٢) عزاه الذهبي في العلو (ص ٦٤) إلى اللالكائي.

(٣) أخرجه بنحوه مختصراً البيهقي في الكبرى (٧/ ٦٢٨)، وانظر: زاد المسير (٥/ ٤٩٤).

عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة وبين الكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي إلى الماء خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله تعالى فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه»(١).

صرف عنه ما فيه شر.

والمقصود من هذا: أن الذي يتصرف في الكون كله هو الله، وأنه فوق سبع سماوات، كما قال: «**نظر الله إليه من فوق سبع سماوات**» وهو فوق عرشه، والأدلة في هذا كثيرة جداً، ولكن هذه أفراد يريد بها نصاً معيناً يرد به على هؤلاء الضلال، لأنهم أتوا بشيء مجمل، وقالوا: هذه الأحاديث التي تذكرها لنا أخبار آحاد ونحن لا نقبلها، ماذا يقال في مثل قولهم «أخبار الآحاد لا نقبلها»؟

نقول: المسلمون يقبلون أخبار الآحاد، والرسل جاءت بأخبار الآحاد، فرسولنا ﷺ كان يرسل الرسل بل يرسل الرسول الواحد إلى الملوك وإلى البلاد فتقوم عليهم الحجة، ولكن أنتم تريدون أن تبطلوا حجج الله.

والمقصود: إقامة الحجة عليكم، أما كونكم لا تقبلون فهذا أمره إلى الله، نعوذ بالله من الضلال.

حديث ابن مسعود: «**ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام**» هذا سبق بيانه، أن المسافات جاءت مختلفة مرةً بالمئات، ومرةً بما

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (ص ١٠٥، ١٠٦)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤٠١)، وابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٣٩). وأورده الهيثمي في المجمع (١/ ٨٦)، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

عن قدامة بن إبراهيم بن محمد بن حاطب، أنه حدثه أن عبد الله ابن رواحة ﷺ وقع بجارية له، فقالت له امرأته: فعلتَها؟ قال: أما أنا فأقرأ القرآن، فقالت: أما أنت فلا تقرأ القرآن وأنت جنب، فقال: أنا أقرأ لك، فقال:

شهدتُ بأنّ وعد الله حقٌّ ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طافٍ ... وفوقَ العرش ربُّ العالمينا
وتحمله ملائكة كرام ... ملائكة الإله مسومينا

فقالت: آمنت بالله، وكذبت البصر[1].

هو أقل من هذا مما يدل على أنه ليس المقصود مجرد العدد، وإلا فالمسافة بيننا وبين السماء بعيدة جداً.

والمقصود من هذا: أن الله فوق سماواته وفوق مخلوقاته كلها، وأعلى المخلوقات هو العرش، وسبق أن الرسول ﷺ قال: إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، ووسطها، وسقفه عرش الرحمن، تعالى الله وتقدس[2].

حديث عبد الله بن رواحة؛ لما حدث الرسول ﷺ بهذا ضحك ﷺ؛ لأنه له جارية وله زوجة فرأته عند جاريته، فغارت فأخذت السكين، قالت: سوف أقتلك بالسكين كيف تأتي الجارية، الجارية مملوكة له تحل له، فقال لها هذا القول: أما أنا فأقرأ، قالت: اقرأ القرآن فإن الجنب لا يقرأ القرآن، فذكر لها الأبيات فقالت: آمنت بذلك وكذبت عيني.

المقصود هنا أنه قال:

وأن العرش فوق الماء طافٍ ... وفوق العرش رب العالمينا

---

(١) حكم الذهبي في العلو (ص ٤٢) على إسناد المصنف بالانقطاع.

(٢) تقدم تخريجه ص٥٣.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «وايم الله، إني لأخشى لو كنت أحب قتله لقتلت ـ تعني عثمان ـ ولكن علم الله من فوق عرشه أني لم أحب قتله[١]».

عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، أنه حدثه ذكوان، حاجب عائشة...، أن ابن عباس دخل على عائشة وهي تموت، فقال لها: «كنتِ أحبَّ نساء رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيباً، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات، جاء بها الروح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله تعالى يذكر فيه الله إلا وهي تتلى فيه آناء الليل والنهار»[٢].

ثم ذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأقره، أما قضية المرأة فهذه من الحيل، ومن له حيلة فليحتل.

قول عائشة رضي الله عنها: «**ولكن علم الله من فوق عرشه**» هذا يعني شبه إجماع، فكأنه يذكر ذلك عن الصحابة عبد الله بن رواحة وعائشة وغيرها أنهم مجمعون على أن الله فوق، وهذا لا إشكال فيه، ولكن هل هذا يفيد الجهمية والضلال؟

لا يستفيدون من ذلك بشيء إلا أن يشاء الله.

وقوله: «**وأنزل براءتك**» يعني بالآيات التي برأها الله، وهي ثلاث عشرة آية من سورة النور، نزلت في براءة عائشة رضي الله عنها وطهارتها مما رماها به المنافقون الذين آذوا رسول الله ﷺ، وآذوا عباده المؤمنين برميهم أم المؤمنين رضي الله عنها، فهذه البراءة التي نزلت كما قالت: ما كنت أظن أن الله يُنْزل فِيَّ قرآناً يتلى، وإنما كنت أرجو أن الله يُري نبيه رؤيا يبرئني الله

---

(١) أخرج نحوه نعيم بن حماد في الفتن (١/ ٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٧ ح ٢٤٩٦).

عن خالد بن يزيد بن عبد الله، عن أبيه، عن جده، قال: خطب علي الناس الخطبة التي لم يخطب بعدها، فقال: «الحمد لله الذي دنا في علوه، وناء في دنوه، لا يبلغ شيء مكانه، ولا يمتنع عليه شيء أراده».

حدثنا نعيم بن حماد، ثنا ابن المبارك، أبنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت البناني، ثنا رجل من أهل الشام، وكان يتبع عبد الله بن عمرو بن العاص ويسمع منه، قال: كنت معه فلقي نوفا، فقال نوف: ذكر لنا أن الله تعالى قال لملائكته: ادعوا لي عبادي، فقالوا: يا رب كيف والسماوات السبع دونهم، والعرش فوق ذلك؟ قال: إنهم إذا قالوا: لا إله إلا الله، فقد استجابوا لي».

قال: يقول عبد الله بن عمرو: صلينا مع رسول الله ﷺ صلاة المغرب، أو قال غيرها، شك سليمان، فقعد رهط أنا فيهم ينتظرون الصلاة الأخرى، فأقبل رسول الله ﷺ يسرع المشي، كأني أنظر إلى

بها، فأنزل الله جل وعلا هذه الآيات[1]، فهنا يُرغبها ابن عباس ويذكر لها الثناء حتى تطمئن بما أمامها، ومعلوم أنها زوجة رسول الله ﷺ مع زوجاته في الآخرة.

والمقصود كما سبق أن هذا يريد به ذكر إجماع الصحابة على أن الله في العلو وأنه فوق سبع سماوات.

قوله: «**دنا في علوه**» يعني: أنه في علوه قريب يعلم ما في تخوم الأرض ويراه وهو فوق عرشه.

وقوله: «**ناء في دنوه**» يعني: أنه عالٍ وهو دان.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، ح (٤١٤١) ومسلم، كتاب التوحيد (٢٧٧٠).

رفعه إزاره كي يكون أخف له في المشي، فانتهى إلينا، فقال: «ألا أبشروا، هذا ربكم أمر بباب في السماء الوسطى، أو قال: باب السماء، ففتحه، ففاخر بكم الملائكة، فقال: انظروا إلى عبادي، أدَّوا حقاً من حقي، ثم انتظروا أداء حق آخر يؤدونه»(١).

عن قتادة، قال: قالت بنو إسرائيل: يا رب أنت في السماء ونحن في الأرض، فكيف لنا أن نعرف رضاك وغضبك؟ قال: «إذا رضيت عنكم استعملت عليكم خياركم، وإذا غضبت عليكم استعملت عليكم شراركم»(٢).

عن عطاء بن يسار، قال: أتى رجل كعباً وهو في نفر، فقال: يا أبا إسحاق حدثني عن الجبار، فأعظم القوم قوله، فقال كعب: دعوا الرجل، فإن كان جاهلاً تعلم، وإن كان عالماً ازداد علماً، ثم قال كعب: «أخبرك أن الله خلق سبع سماوات، ومن الأرض مثلهن، ثم

قوله: «**هذا ربكم أمر بباب في السماء..**» يعني: أنه في السماء جل وعلا، وما أكثر الأدلة على هذا.

قوله: «**قالت بنو إسرائيل**» قول بني إسرائيل إذا صح فهذا إنما يكون بواسطة الرسل، بواسطة أنبيائهم، وأنبياء بني إسرائيل كثيرون.

وكعب الأحبار يأتي بأشياء كثيرة يجب أن تعرض على الكتاب والسنة، فتقبل إن وافقتهما، وإلا رُدَّتْ، ولا يلزم أننا نقبلها، لأنه يحدث عن الصحف السابقة وعن بني إسرائيل، وقد اتُّهم في وقته كما في صحيح البخاري عن معاوية ﷺ، قال: «وكيف تصدقون هؤلاء يعني

---

(١) أخرجه ابن ماجه مختصراً، أبواب المساجد، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، ح (٨٠١).

(٢) أورده الذهبي في العلو (ص ٩٦) وقال: هذا ثابت عن قتادة.

جعل ما بين كل سماءين كما بين السماء الدنيا والأرض، وكَثْفُهن مثل ذلك، ثم رفع العرش فاستوى عليه، فما في السماوات سماء إلا لها أطيط كأطيط الرحل العلافي أول ما يرتحل من ثقل الجبار فوقهن».

عن ابن شهاب، قال: أخبرني سالم بن عبد الله، أن كعب الأحبار، قال لعمر رضي الله عنه: «ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء. قال عمر: إلا من حاسب نفسه. فقال كعب: إلا من حاسب نفسه. وكبر عمر وخر ساجداً»[١].

أهل الكتاب، والله ما رأينا أحداً منهم يسألنا، وأنتم تسألونهم، يقول: وإن من أحسنهم كعباً، وإننا لنبلو عليه الكذب[٢]. يعني يقول: هو أحسنهم، ونحن نبلو عليه الكذب.

فعلى كل حال؛ الأخبار التي تأتي عن بني إسرائيل يجب أن تعرض على كتابنا وما جاء به رسولنا، فإن وافقته قبلناها، ليس لأنها وافقت ما عندنا لأنها جاءت من بني إسرائيل، وإن خالفته رددناها، وإن لم تكن موافقة ولا مخالفة، فنقول: آمنا بما أنزل الله من كتاب لا نصدق ولا نكذب، هكذا جاء عن النبي ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم»[٣]، ربما يكون حقاً تكذبون به، أو باطلاً تصدقون به، ولكن قولوا: آمنا بما أنزل الله من كتاب».

ونحن في غنية عن أخبار كعب، والأدلة على هذا لا حصر لها في

---

(١) أخرجه الخرائطي في فضيلة الشكر (٦٨)، وأبو نعيم بإسناد آخر (٥/ ٣٨٩) وفيه انقطاع.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ ولا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، ح (٧٣٦١).

(٣) أخرجه أحمد (٢٨/ ٤٦٠ ح ١٧٢٢٥)، وأبو داود، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، ح (٣٦٤٤)، وضعفه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٤/ ٨٣).

عن ابن عباس، قال: «سيد السماوات السماء التي فيها العرش، وسيد الأرضين التي نحن عليها، وسيد الشجر العوسج، ومنه عصا موسى»[١].

عن أسامة بن زيد، قال: قلت: يا رسول الله، رأيتك تصوم من الشهر شيئاً ما لا تصومه من الشهور أكثر إلا رمضان، قال: «أي شهر؟». قلت: شعبان. قال: «هو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم»[٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكةً يتعاقبون فيكم، فإذا كانت صلاة الفجر نزلت ملائكة النهار، فشهدوا

كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ.

قول ابن عباس رضي الله عنهما يجوز أن يكون عن كعب ونحوه، فإن ابن عباس ممن أخذ عنه.

وقوله: «**العوسج**» معروف وهو شجر اليهود، وهو الذي جاء فيه الخبر أن الشجر والحجر في آخر الزمان يقول: يا مسلم هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد الذي هو العوسج، فإنه شجر اليهود لا يخبر بذلك[٣].

قوله: «**يرفع عملي**» الشاهد منه قوله: «يرفع»، ويرفع إلى أين؟ إلى الله جل وعلا، فدل على علوه جل وعلا هذا الشاهد.

---

(١) عزاه السيوطي في الدر (١/ ٤٤) إلى المصنف وابن المنذر.

(٢) أخرجه النسائي، كتاب الصيام، صوم النبي ﷺ بأبي هو وأمي، ح (٢٠١)، وأحمد (٣٦/ ٨٥ ح ٢١٧٥٣)، وابن أبي شيبة (٣/ ١٠٣)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٨/ ١ ـ ٢).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قتال اليهود، ح (٢٩٢٦)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، ح (٢٩٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

معكم الصلاة، وصَعِدَتْ ملائكة الليل، ومكثت فيكم ملائكة النهار، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما تركتم عبادي يصنعون؟ فيقولون: جئناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون، فإذا كانت صلاة العصر نزلت ملائكة الليل فشهدوا معكم الصلاة، ثم صَعِدتْ ملائكة النهار، ومكثت معكم ملائكة الليل». قال: «فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم فيقول: ما تركتم عبادي يصنعون؟». قال: «فيقولون: جئناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون. قال: فحسبته أنه قال: «فاغفر لهم يوم الدين»[١].

وحديث أبي هريرة: «إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم..» هذا الحديث أصله ثابت في الصحيح[٢] أن الملائكة يتعاقبون فينا يعني: أنهم قسمان، قسم منهم في الليل، وقسم منهم في النهار، ولكن الشاهد أنهم إذا صَعِدوا يسألهم الله وهو أعلم بعباده منهم: كيف جئتم عبادي وتركتموهم، فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، لأنهم نزلوا في صلاة الفجر، أو في صلاة العصر، فالذين يبيتون في الليل ينزلون في العصر ويبيتون معنا، والذين يبيتون معنا يحضرون صلاة الفجر، ثم ينزل الذين يكونون معنا في النهار فيصعد أولئك، هذا معنى التعاقب.

والشاهد ذكر الصعود والنزول، ثم إن الله يسألهم إذا صَعِدوا، والمقصود بالسؤال هنا أن يظهر فضلنا عند الملائكة الذين لا يعرفون حالنا، فإذا سمعوا الملائكة يقولون: جئناهم يصلون وتركناهم يصلون، قالوا: هؤلاء كل وقتهم صلاة، لأن الملائكة جاءتهم يصلون وتركتهم

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٣٢١) وفي التوحيد (ص ١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فض لصلاة العصر، ح (٥٥٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ح (٢١٠).

عن زر، قال: أتيت حذيفة بن اليمان، فقلت: أخبرني عن صلاة رسول الله ﷺ في بيت المقدس ليلة أسري به. قال: ما يخبرك ذاك؟ قلت: القرآن، فقرأت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]. قال: هكذا هو في قراءة عبد الله. قال: هل تراه صلى فيه يا أصلع؟ قلت: لا، قال: فإنه أتاه بدابة، فوصفها عاصم بحمار، فحمله عليها، أحدهما رديف صاحبه، ثم انطلقا، فأري ما في السماوات، وأري، ثم عادا عودَهما على بدئهما، فلم يصلّ فيه، ولو صلى فيه لكانت سنة»[(١)].

يصلون، ثم يستغفرون لنا فهو من فضل ربنا جل وعلا حيث يفعل الشيء الذي يدعو الملائكة إلى أن يصلوا علينا، والصلاة المقصود بها الدعاء، ولكن المشكلة إذا كان الإنسان تأتي الملائكة وهو نائم أو وهو يلعب كيف تقول الملائكة لربها؟ فهذا يقال للمصلين فقط.

أما النائمون واللاعبون لعل الله يهديهم فيرجعوا إلى الصلاة، والمقصود بسياق الحديث أن الله فوق تعالى وتقدس، وهذا فرد من مئات الأدلة التي لا حصر لها.

جاء أنه صلى بالأنبياء، وأن الأنبياء جمعوا له هناك، وصلى بهم، لكن هذا قوله اجتهاداً، والمقصود منه العروج وأنه عرج به، والعروج هو الصعود إلى العلو، لأن الله جل وعلا يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾.

ولم يذكر العروج وإنما ذكر في الحديث، ولكن التسبيح يؤتى به في الأمور العظيمة التي تخالف الأمور المعتادة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٧) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٣٨/ ٣٢١ ح ٢٣٢٨٥)، والحاكم (٢/ ٣٥٩) وصححه، ووافقه الذهبي.

عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا مكث المني في الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس، فعرج به إلى الرب في راحته، فيقول: أي رب! عبدك هذا ذكر أم أنثى؟ فيقضي الله إليه ما هو قاض، ثم يقول: أي رب! أشقي أم سعيد؟ فيكتب بين عينيه ما هو لاق». قال: وتلا أبو ذر من فاتحة التغابن خمس آيات[١].

قال أبو سعيد رحمه الله: وإلى من يعرج المَلَك بالمني، والله بزعمكم الكاذب في رحم المرأة وجوفها مع المني؟

عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قام بنا رسول الله ﷺ بأربع كلمات، فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، ....

حديث أبي ذر رضي الله عنه: يدل على قدرة الله على ذلك، قال الله جل وعلا ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ [التغابن: ١ ـ ٥].

المقصود هنا: العروج إلى الله جل وعلا، أن الملك يعرج إلى ربه جل وعلا، والعروج معروف أنه الذهاب إلى العلو، فالله في العلو.

قوله رحمه الله: **«والله بزعمكم الكاذب في رحم المرأة وجوفها مع المني»** تعالى الله وتقدس عن هذا الزعم، فهو زعم كفري، مخالف للحق من كل جانب، مخالف للنصوص والإجماع وللفطر.

حديث أبي موسى رضي الله عنه في صحيح مسلم[٢] عن أبي موسى قال: قام

---

(١) أخرجه ابن وهب كما في شفاء العليل لابن القيم (ص ٢٠)، وابن جرير (٢٨/١١٩ ـ ١٢٠).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ح (١٧٩).

يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عملُ الليل قبل النهار، وعملُ النهار قبل الليل، حجابُه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه كلَّ شيء أدركه بصره».

فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، وهنا يقول: بأربع كلمات، فقال: إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، والسبحات البهاء والجمال بهاؤه وجماله تعالى وتقدس.

وقوله: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام**» لكمال حياته جل وعلا لأنه الحي القيوم، والنوم شبه الموت، أو شيء قريب منه، بل هو شبيه به، ولكن لنقص الإنسان إذا لم ينم يتعب وقد يموت، وقال جل وعلا: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، السِّنَةُ: مبادئ النوم والنعاس، والنوم الاستغراق فيه، وهو نقص، والله يتعالى عن ذلك ويتقدس.

وقوله: «**يخفض القسط ويرفعه**» القسط هو العدل، يعني أنه يحكم في عباده فيرفع من يستحق الرفع وهو أهل له، ويخفض من ليس أهلاً لذلك، وخفضه بإضلاله وكونه لا يقبل الحق، فيمنعه فضله الذي يتفضل به على من يريد من عباده.

وقوله: «**يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار**» يعني: عمل الليل يرفع قبل أن يأتي النهار، ترفعه الملائكة، وهو يعلمه تعالى وتقدس، ولكن للتسجيل على بني آدم حتى ما يكون لهم أي عذر جعل ملائكة كراماً يتعاقبون فيهم، ويسجلون أعمالهم، ويحفظونها، ثم يرفعونها إلى ربهم جل وعلا، وهو حفيظ عليهم، على الملائكة وعلى بني آدم، وكذلك عمل النهار يرفع قبل الليل، قبل أن يأتي الليل.

قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ: فإلى من ترفع الأعمال، والله بزعمكم الكاذب مع العامل بنفسه في بيته، ومسجده، ومنقلبه، ومثواه؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

والأحاديث عن رسول الله ﷺ، وعن أصحابه، والتابعين، ومن بعدهم في هذا أكثر من أن يحصيها كتابنا هذا، غير أنّا قد اختصرنا من ذلك ما يستدل به أولو الألباب أن الأمة كلها والأمم السالفة قبلها لم يكونوا يشكون في معرفة الله تعالى أنه فوق السماء، بائن من خلقه، غير هذه العصابة الزائغة عن الحق، المخالفة للكتاب وأثارات العلم كلها، حتى لقد عرف ذلك كثير من كفار الأمم وفراعنتهم، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾

وقوله: «**حجابه النور**» يدل على أنه احتجب بالنور، وسيأتي الكلام في الحجب، لأن أهل الباطل ينكرونها، ويقولون: ما يحتجب إلا ما هو جسم، ويحجبه ما هو جسم، بل ينكرون الأمور التي يشاهدون ويقولون: إن هذا تشبيه، تعالى الله وتقدس عن قولهم، فهم يظنون بالله الظن السيء.

وقوله: «**لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» ولهذا لما كشف شيئاً من الحجاب عن الجبل الذي جعله آيةً لموسى لما قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فتجلى جل وعلا للجبل شيئاً قليلاً فانْدَكَّ الجبل وخر موسى صعقاً، وهذا يدلنا على أنه ليس بالإمكان رؤية الله جل وعلا في الدنيا، لأن خلقه لا يستطيعون ذلك، أما في الآخرة فإن الله جل وعلا يركب عباده تركيباً غير هذا، فيرونه، وتكون رؤيته من أعلى النعيم.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]، واتخذ فرعون إبراهيم النسور والتابوت يرومون الاطلاع إلى الله تعالى في السماء، وذلك لما أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يدْعونهم إلى الله بذلك، وقالت بنو إسرائيل: يا رب أنت في السماء ونحن في الأرض. وأشباه هذا كثير، يطول إن ذكرناها.

وظاهر القرآن وباطنه كله يدل على ذلك، لا لَبْسٍ فيه، ولا تَأَوّل إلا لمتأول جاحد يكابر الحجة، وهو يعلم أنها عليه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]. وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤]، وقوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت: ١-٢]. ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصلت: ٤٢]. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: ١]. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]. ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [النُّور: ١].

وما أشبه هذا في كتاب الله كثير، كل ذلك دليل على أن الله ﷻ أنزله من السماء من عنده، ولو كان على ما يدعي هؤلاء الزائغة أنه تحت الأرض وفوقها كما هو على العرش فوق السماء السابعة لقال جل ذكره في بعض الآيات: إنا أطلعناه إليك، ورفعناه إليك، وما أشبهه. وقال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مَريَم: ٦٤] و﴿نَزَلَ بِهِ

قوله: «**وظاهر القرآن وباطنه كله يدل على ذلك...**» يعني المصنف بهذا: أن لفظ النزول يدل على العلو، وهذا كما أن الفوقية تدل على العلو، وغير ذلك؛ لأن أدلة العلو كثيرة جداً، وجاء في القرآن منها أنواع أكثر من أربعة وعشرين نوعاً.

ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣] و﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]. ولم يقل: ما نخرج من تحت الأرض، ولا يصعد منها.

قال أبو سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فظاهر القرآن وباطنه يدل على ما وصفنا من ذلك، نستغني فيه بالتنزيل عن التفسير، ويعرفه العامة والخاصة، فليس منه لمتأوِّلٍ تأوُّل، إلا لمكذب به في نفسه، مستتر بالتأويل.

ويلكم! إجماعٌ من الصحابة والتابعين وجميع الأمة، من تفسير القرآن والفرائض والحدود والأحكام: نزلت آية كذا في كذا، ونزلت آية كذا في كذا، ونزلت سورة كذا في مكان كذا، لا نسمع أحداً يقول: طلعت من تحت الأرض، ولا جاءت من أمام، ولا من خلف، ولكن كله: نزلت من فوق.

قوله: «**فظاهر القرآن وباطنه**» المقصود بالباطن: المعاني التي تفهم من الألفاظ، فليس هناك باطن يكون فهمه لأناس خاصين، فظاهره هو لفظه، وباطنه معناه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ولكن كله: نزلت من فوق**» يقررالمصنف هنا أن القرآن كلام الله جل وعلا، أنزله الله على رسوله، وإثبات نزول الكلام منه ما يتضمن إثبات علوه، ولهذا أنكروا أن يكون كلامه، فقالوا: إنه مخلوق، خلقه في مكان ما، وبعضهم يقول: نزل من اللوح المحفوظ، لا ينزل من الله جل وعلا.

وكل هذه محاولة لإبطال أن يكون ربنا جل وعلا تكلم به، وهو كلامه الذي يعود إليه، صفةٌ من صفاته، لأن الكلام صفة المتكلم، ومعلوم أن من نقله وبلغه إلى غيره فإنه لا يضاف إليه إضافة ابتداء وإنشاء، فالكلام يضاف لمن قاله ابتداءً وإنشاءً، ولا يكون لمن قاله

وما يصنع بالتنزيل من هو بنفسه في كل مكان؟! إنما يكون شِبْهَ مناولة، لا تنزيلاً من فوق السماء مع جبريل، ....

تبليغاً، ولهذا إذا سمعنا قائلاً يقول مثلاً: «إنما الأعمال بالنيات»، نقول: هذا كلام رسول الله ﷺ وليس هو كلامَك، وكذلك إذا سمعنا إنساناً يقرأ آية، فقل: هذا كلام الله، وقول الله جل وعلا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، يسمع كلام الله يعني من المبلغ، فهو كلام الله على كل حال، ولا يتغير لكونه يبلغ أو كونه يتلى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وما يصنع بالتنزيل من هو بنفسه في كل مكان، إنما يكون شبه مناولة، لا تنزيلاً من فوق السماء مع جبريل**» يعني إذا كان كما تقولون: إنه في كل مكان فكيف ينزل؟ ومن أين ينزل؟

ولهذا لما قال أحد هؤلاء لبعض الأئمة في قوله: «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا»، قال له: ينزل أمره، قال: من أين ينزل أمره وأنت تقول: إنه ليس فوق، هل أمره ينزل من العدم؟ إذا كنت قلت نفس تأويلك هذا فإنه يبطل زعمك واعتقادك، لأنه إذا كان ينزل أمره فلا بد أن يكون أمره منه، فينزل أمره من فوق، وهو في كل مكان؟ هذا مستحيل، ممتنع.

فالمقصود: أن الباطل باطل على كل حال، ولو قيل: ما المحذور من كونه فوق؟ يعني ما المحذور الذي يحذرونه من إثبات علو الله فوق سماواته وفوق عرشه؟ يقولون حتى لا يكون جسماً، تعالى الله عن ذلك. ويقولون: المكان يحتاج إلى حلول، والمكان لا يَحُلُّ فيه إلا الأجسام، إذاً فالله عندهم معنىً في الذهن، أو خيال لا وجود له في الخارج. الله جل وعلا أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، فكل المحاولات التي يحاولونها كلها باطلة، وكلها لا تدل إلا على العدم، ولكن لا يقولون: إن الله عدم، إنما يقولون: إن الله في كل مكان، إذا كان في

....

كل مكان صار هو الأمكنة! وإلا فقولهم في كل مكان! أنت تشاهده في إنائك أو في بيتك؟ تعالى الله وتقدس، مثل هؤلاء الذين يقولون هذا هل يعبدون الله حقيقةً؟ أو يعبدونه خيالاً؟ ليس هو هذا الله الذي يقولونه، هذا غير الله! هذا إلههم هم الذي يتصورونه، أما الإله الحق فهو مستوٍ على عرشه، كيف وربنا جل وعلا يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وهم يأبون هذا، وهل هذا مستساغ؟ يخبرنا ربنا بالشيء المقطوع به الواضح ثم يأبونه، ويقولون: لا، هذا يدل على باطل، تعالى الله وتقدس.

فهؤلاء في الواقع على خطر عظيم جداً، قد يكون قولهم هذا عقوبة لهم، لأنهم يردون كلام الله الصريح الواضح، وقد يعاقبون بأنهم لا يعرفون الله أصلاً.

وثمة حادثة عجيبة حدثت ـ من أعجب ما يكون ـ لرجل من أهل السنة صاحبَ رجلاً من أهل البدع، ممن يقول هذه المقالات، وكان بينهما صحبة وألفة وأخوة، حتى إن أحدهم كان يدخل على الآخر دون استئذان، ويوماً من الأيام دخل هذا السني على صاحبه وهو مستغرق في التفكير، فسلم فلم يردَّ عليه السلام، لأنه مستغرق في فكره، ثم أعاد السلام فلم يرد عليه، ثم أعاد السلام مرة ثالثة فلم يرد، فرجع، قال: هذا لا بد أنه دهي في عقله، وإلا كيف أقف على رأسه وأسلم ولا يرد علي السلام؟ فحينما رجع تنبه، فرفع رأسه وقال: يا فلان! يا فلان! فوقف وقال: نعم، قال: ماذا تعتقد؟ فضحك منه ساخراً، وقال: تسألني ماذا تعتقد؟! أعتقد ما اعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ فقال: نعم، فقال: اشكر الله على هذه النعمة، لكني والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما

إذ يقول ﷻ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]. والرب بزعمكم الكاذب في البيت معه، وجبريل يأتيه من خارج. هذا واضح، ولكنكم تغالطون، فمن لم يقصد بإيمانه وعبادته إلى الله الذي استوى على العرش فوق سماواته، وبان من خلقه، فإنما يعبد غير الله، ولا يدري أين الله.

أعتقد، وبكى حتى اخضلت لحيته[(١)]، تصور هذا كم عمره؟ عمره أكثر من ستين سنة، بقي أكثر من ثلاثين سنة يطلب العلم وهذه هي النتيجة، يقول: والله ما أدري ماذا أعتقد؟! هل يكون لعاقل مثل هذا؟

نقول: هذا لما ترك الطريق وترك الحق عاقبه الله بأن حيره، فأصبح ما يدري ماذا يعتقد، هذه النتائج نتائج هؤلاء الذين يقولون مثل هذه المقالات الباطلة؛ لأن الباطل لا يدل إلا على باطل أبداً، ولا يمكن أن يدل على حق أو على شيء يقتنع به.

قوله رحمه الله: «**وبان من خلقه، فإنما يعبد غير الله، ولا يدري أين الله**» هكذا يعبد غير الله ولا يدري أين الله، فالذي لا يدري أين الله أيكون مسلماً؟ الذي يعبد غير الله يعبد إما عدماً وإما صنماً، وليس غير ذلك شيء أبداً، وإما يعبد خيالاً يتخيله في دماغه لا حقيقة له، أو يعبد شيئاً شبهه بالله جل وعلا وهو ليس بحقيقة، وبعد ذلك تأتي المصيبة في النهاية، التي أشار إليها رسول الله ﷺ بقوله: «إذا اجتمع الناس وقاموا لرب العالمين القيام الطويل، ثم أراد الله جل وعلا أن يريحهم من عناء الموقف ألهمهم أن يطلبوا الشفاعة، كما جاء في صحيح مسلم «يلهمهم طلب الشفاعة»[(٢)] فيبحثون عمن يشفع لهم، فيذهبون إلى آدم،

---

(١) انظر: شرح الطحاوية (١/٢٤٦).

(٢) في حديث أنس: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيهتمون بذلك ـ أَوْ يُلْهَمُونَ ذلك ـ» =

....

ثم يرسلهم إلى نوح، إلى أن يصلوا إلى نبينا محمد ﷺ، فإذا شفع يشفع في ماذا؟

يشفع بأن يأتي الله ليفصل بينهم ويريحهم من هذا الموقف فقط، وليس فيها أنه يدخلهم الجنة أو يحاسبهم، وإنما يأتي لفصل القضاء، فيأتيهم الله جل وعلا في ظلل من الغمام والملائكة، وهذا وهم في الموقف في الأرض، وهو فوق عرشه، فوق كل شيء تعالى الله وتقدس، فيخاطبهم خطاباً يسمعونه، ويقول لهم: أليس عدلاً مني أن أولي كل واحد منكم ما كان يتولاه في الدنيا؟ فيقولون: بلى.

فيمثل لكل عابد معبوده، إذا كان يتخيله يمثل له كما تخيله، أما إذا كان المعبود شجراً أو حجراً أو حياً أو ميتاً فيؤتى به بعينه، إلا إذا كان صالحاً مؤمناً، فيؤتى بشيطان على صورته، ثم يقال لهم كلهم: اتبعوهم، هذا أول الحكم في الموقف، فيتبعونهم، إلى أين؟ إلى جهنم، نسأل الله العافية، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه[١].

فالشاهد: أنه يمثل للعابد معبوده الذي يعبده، ثم يقال له: اتبعه،

= كتاب الإيمان ح (١٩٣).

(١) حديث الشفاعة، أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل السجود ح (٨٠٦) ومسلم، كتاب الإيمان ح (١٨٦).

عن جعفر بن عبد الله ـ وكان من أهل الحديث ثقة ـ عن رجل قد سماه لي، قال: جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟

قال: فما رأينا مالكاً وجد من شيء كوجده من مقالته، وعلاه الرحضاء، وأطرق، وجعلنا ننتظر ما يأمر به فيه، قال: ثم سُرِّي عن مالك، فقال: «الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني لأخاف أن تكون ضالاً، ثم أمر به فأخرج»[١].

وهل هؤلاء الذين يقولون هذه المقالات يعبدون الله؟ كما يقول الإمام الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إنهم لا يعبدون شيئاً، يعبدون عدماً، أو يعبدون صنماً، المعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً، والذي يعبد الله هو الذي يعبده بما أخبر عن نفسه جل وعلا.

قوله: «**الرحضاء**» أي العرق، يعني أنه صار يتصبب عرقاً ؛ لأن هذا سؤال سيء جداً عند السلف، كيف استوى؟ إذ لا يجوز أن يسأل عن الكيفية ؛ لأن الكيفية لا يعلمها إلا الله جل وعلا.

قوله: «**ثم أمر به فأخرج**» يعني: أخرجه من مجلسه، لأن له مجلساً خاصاً يروي فيه الأحاديث ويعلم فيه المتعلمين، ومعنى هذا: أن مالكاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصابه أمر شديد، فتغير لونه، وصار يتصبب عرقاً، وهذا يدل على شدة خوف المؤمنين من ربهم جل وعلا، واستعظام السلف لمثل هذه الأسئلة التي لا تليق، إذ إن الرجل سأل عن كيفية الاستواء، ولم يسأل عن الاستواء، فقال: كيف استوى؟

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤٠٨).

....

والكيفية هي الهيئة التي يكون عليها الفاعل للشيء، أو الحالة التي هو عليها، وهذا يتطلب أن يشاهد الشيء حتى يعلم الكيفية كيف هي، لا يرى في الدنيا، ولو قدر أنهم يرونه فهم لا يحيطون به، أما في الآخرة فلا يحيطون به علما جل وعلا.

ولهذا أهل الموقف يرون وجهه سبحانه، وكذلك أهل الجنة، أما أنهم يرونه ويحيطون به فلا، كما قال جل وعلا: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠]، وهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، فأقل ما يقال في الكيفية: إنه لا بد أن يكون المسؤول عن كيفيته له شبيه ونظير حتى يُقاس عليه، وهذا ممتنع في حق الله تعالى، فإن الله لا شبيه له ولا نظير له ليقاس عليه ولا أحد يشاهده في الدنيا، فوجب الإيمان به بالأخبار التي يخبر بها عن نفسه جل وعلا، وهذا يدل على أن الصفات واضحة وظاهرة.

أما كيفية الصفة؛ فهي أمر ليس معلوماً للخلق، كما قال الإمام مالك: «الاستواء معلوم» يعني معلوم في اللغة، ومعلوم في المعنى، وهو الارتفاع على الشيء، والاستواء عليه، والعلو عليه، وهذا لا يخفى.

وقوله: **«والكيف مجهول»** أي: مجهول للخلق، لا أحد يعرفه، لأنه لا يحيط بالله علماً.

وقوله: **«والإيمان به»** يعني: الإيمان بالاستواء الذي أخبر الله جل وعلا به واجب.

«والسؤال عنه» بهذه الصفة بدعة وضلالة.

قوله: **«وإني لأخاف أن تكون ضالاً، ثم أمر به فأخرج»** يعني: وأنك ضال، وأن الله لا يهديك إلى الحق لأنك تتطلب الأمور التي لا يسأل

قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ: وصدق مالك، لا يعقل منه كيف، ولا يجهل منه الاستواء، والقرآن ينطق ببعض ذلك في غير آية.

فهذه الأشياء التي اقتصصنا في هذا الباب، قد خَلَصَ علم كثير منها إلى النساء والصبيان، ونطق بكثير منها كتاب الله تعالى، وصدقته الآثار عن رسول الله ﷺ، وعن أصحابه والتابعين، وليس هذا من العلم الذي يشكل على أحد من العامة والخاصة، إلا على هذه العصابة الملحدة في آيات الله، لم يزل العلماء يروون هذه الآثار، ويتناسخونها، ويصدقون بها على ما جاءت، حتى ظهرت

عنها، فأمر به أن يخرج من مجلسه لئلا يتعدى ضلاله إلى غيره. وهذا يقال في كل صفة من الصفات، إذا قال لنا قائل: كيف بصره؟ نقول: البصر معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإذا قال كيف نزوله؟ نقول له كذلك، وهكذا نقول في جميع الصفات، وقد روي هذا القول عن شيخ الإمام مالك ربيعة رحمهما الله؛ بل روي عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أيضاً، وكأن الإسناد فيه ما فيه، ولكن القول حق[1].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لا يعقل منه كيف، ولا يجهل منه الاستواء**» ليس المعنى أنه ليس له كيف، له كيف ولكن المنفي هو علم الخلق به، لأن كل فعل أو كل شيء له كيفية، ولكن الذي نُفي هو علم الخلق بذلك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قد خَلَصَ علم كثير منها إلى النساء والصبيان**» مقصوده رَحِمَهُ اللَّهُ: أن هذه الأمور أمور ظاهرة جلية عرفها المسلمون كلهم، ليست خاصةً بأهل العلم، هذا معنى قوله: «خلص علم كثير منها إلى النساء والصبيان».

قوله: «**يتناسخونها**» يعني: يكتبونها فيما بينهم.

---

(١) أخرجه اللالكائي (٣/ ٤٤٠) عن أم سلمة، وأخرجه أيضاً (٣/ ٤٤١) عن ربيعة.

هذه العصابة، فكذبوا بها أجمع، وجهلوهم، وخالفوا أمرهم، خالف الله بهم.

ثم ما قد روي في قبض الأرواح، وصعود الملائكة بها إلى الله تعالى من السماء[١]، وما ذكر رسول الله ﷺ من قصته حين أسري به، فعرج به إلى سماء بعد سماء، حتى انتهي به إلى سدرة المنتهى التي ينتهي إليها علم الخلائق فوق سبع سماوات، ولو كان في كل مكان كما يزعم هؤلاء، ما كان للإسراء والبراق والمعراج إذاً من معنى، وإلى من يعرج به إلى السماء، وهو بزعمكم الكاذب معه في بيته في الأرض، ليس بينه وبينه ستر؟! تبارك اسمه وتعالى عما تصفون.

قوله: «**ثم ما قد روي في قبض الأرواح، وصعود الملائكة بها إلى الله**» يعني أن هذا نوع من أنواع الأدلة التي تدل على علو الله، وهو صعود الأرواح بعد الموت كما ثبت في الأحاديث، فإنه ثبت أن الملائكة تصعد بروح المؤمن وتستفتح أبواب السماء، فتفتح لها حتى تنتهي إلى السماء السابعة، ثم يقال لهم: اكتبوا كتابه في عليين، يعني في الجنة، وأعيدوه إلى الأرض «منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى»، وإن كان كافراً فاجراً فإنه يصعد به، فإذا وصلت إلى السماء الدنيا أغلقت دونها أبواب السماء، ثم قيل لهم: اكتبوا كتابه في سجين وأعيدوا روحه إلى جسده فيعذب[٢]، هذا نوع.

أما الإسراء وهو المسير في الأرض ليلاً، والرسول ﷺ أسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به من هناك.

---

(١) سيأتي ذكره عند المصنف قريباً.

(٢) أخرجه أبو داود ح(٤٧٥٣) وأحمد ح(١٨٥٣٤).

....

والعروج هو الصعود، وعرج به يقظة على الصحيح، أي بروحه وجسده ﷺ، وعقله تماماً، حتى وصل إلى سدرة المنتهى، وسدرة المنتهى فوق السماء السابعة، وهي التي أخبر الله جل وعلا أنه ﴿رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨] وأن السدرة غشيها ما غشيها، حتى إن النبي ﷺ يقول: «ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال»، قال: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها»[١].

فالمقصود أن هذا الأحاديث من المتواتر، والرسول ﷺ أخبر بها حتى يؤمن بذلك، فهو نوع من أدلة العلو، ولم يأت أنه فرض عليه في المعراج إلا الصلاة، فرضها الله جل وعلا عليه هناك، وأمره بخمسين صلاة، ثم لم يزل يتردد بين هذا المكان الذي خاطبه الله به، وبين موسى عليه السلام، لأنه لما وصل إلى موسى قال له: ماذا فرض الله عليك، لأن موسى يعلم أنه جيء به ليفرض عليه ما يريده الله، فقال: خمسين صلاة، فقال: أمتك لا تستطيع هذا، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فصار يتردد حتى صارت خمساً، ولما صارت خمساً، قال موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقد حاولت بني إسرائيل على ما هو أقل من ذلك فَعَجَزوا، وبنو إسرائيل يقول: إنهم أقوى أبداناً من أمتك، ومع ذلك عَجَزوا عما هو أقل من هذا، فقال ﷺ: قد استحييت من ربي، فناداه ربه جل وعلا أن قد خففت عن عبادي وأمضيت فريضتي، فهي في الفعل خمس، وفي الكتاب خمسون، الحسنة بعشر أمثالها[٢].

---

(١) قطعة من حديث الإسراء من رواية أنس، أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ح (٧٥١٧) ومسلم، كتاب الإيمان (١٦٢) واللفظ له.

(٢) روي حديث الإسراء من حديث جمع من الصحابة منهم أنس كما مر تخريجه في =

. . . .

هل يؤمن هؤلاء بمثل هذا؟

لا يؤمنون بذلك، ويقولون: إن هذه أخبار آحاد. وإذا كانت الأخبار التي تأتي عن رسول الله ﷺ لا تقبل لأنها أخبار آحاد!! فهذا رد لما جاء به الرسول ﷺ، فالرسول ﷺ كان يرسل الرجل الواحد إلى الأمة، أرسل معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى أهل اليمن، وأمره بقوله: «إنك تَقْدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم»[1] إلى آخر ما قال له.

وهل قالوا: إنك فرد ولا نصدق حتى يأتينا أمة يستحيل عليها الكذب؟ كما يقول هؤلاء، لا بد أن يكون أمة غير معدودة، لا عشرة، ولا مائة، ولا ألف، أمة لا بد أن يتفقوا على ذلك.

ثم لو قدر أنه يؤتى بهم في مثل ذلك لوجدوا لهم طريقاً يتخلصون منه، فالقرآن متواتر لأنه لم ينقله ألف ولا ألفان ولا عشرة آلاف، الأمة كلها تنقله، فلما صار بهذه المثابة قالوا ـ وانظر إلى كلامهم!! ـ: قطعي الثبوت ظني الدلالة، ما معنى ظني الدلالة؟ أي لا يفيد اليقين بزعمهم ويقولون: الظني لا نقبله، إذاً ما الحيلة؟ هل في هؤلاء حيلة؟

ومعنى كلامهم أنهم لا يقبلون الحق، ولا يريدون قبوله، ومن لا يريد قبول الحق قد يتعلل بأمور لا قيمة لها، ولا يجب أن يُلتفت إليها.

= الحاشية السابقة، ومنهم مالك بن صعصعة، وحديثه متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، (٣٢٠٧)، ومسلم، كتاب الإيمان (١٦٤).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، ح (١٤٩٦)، ومسلم، كتاب الإيمان ح (١٩).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فُرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن سماء الدنيا: افتح، قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم. قال: فافتتح، فلما علونا السماء الدنيا»، وساق الحديث، إلى قوله: قال أنس: فذكر أنه وجد في السماوات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم.

قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حَبّة الأنصاري يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عرج بي، حتى ظَهَرْتُ لمستوى أسمع صريف الأقلام». قال: «ثم انطلق بي، حتى انتهي بي إلى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي»[1].

عن البراء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، أنزل الله إليه من السماء ملائكةً»، وساق الحديث.

قال: «فيخرج روحه، فيصعدون به، حتى ينتهوا به إلى السماء، فيستفتح، فيفتح له، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله

قوله: **«صريف الأقلام»** أي: صوتها وهي تكتب، والأقلام هذه هي التي ذكرها الله جل وعلا أنها تجري بما يريده جل وعلا، وهي تكتب بأمره، أي أن له ملائكة يكتبون بأمرهم بذلك، وصريف الأقلام صوتها حين يكتبون.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء؟ ح (٣٤٩).

ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين في السماء السابعة، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. وأما الكافر؛ قال: «ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون، فلا يفتح له»، ثم قرأ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الأعراف: ٤٠]. قال: «فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في سجين، في الأرض السفلى، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فيطرح طرحاً، وساق الحديث بطوله[١]».

قال أبو سعيد: ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ﴾

قوله: «**وساق الحديث**»، وقرأ الآية: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ﴾ [الحج: ٣١].

ومعنى هذا ظاهر أن سجيناً في الأرض السفلى، والأرض السفلى هي مركز الأرض الذي هو أسفل كل شيء. والله أعلم هل هذه جهنم أو غيرها، ومن المعلوم الآن أنها نيران تلتهب تذيب الصخور، كما هو مشاهد أحياناً، تخرج البراكين التي تذيب الجبال، وقد تكون هذه، وقد لا تكون النار. لأنه يوم القيامة يؤتى بها تجر بسبعين ألف زمام، ومع كل زمام سبعون ألف ملك[٢].

وكونها تجر هذه من الأمور التي ستشاهد ثم تُحيط بأهل الموقف من جميع الجهات، فأهل الموقف يصيرون في وسط النار، نسأل الله العافية لو تركت النار لأتت عليهم غضباً لله جل وعلا، ولكنها مُمسَكة تُمسكها الملائكة. ثم بعد ذلك أين الطريق من النار؟

---

(١) أخرجه أبو داود، ح (٤٧٥٣، ٤٧٥٤)، وأحمد (٣٠/٤٩٩ ح ١٨٥٣٤)، والحاكم (١/٣٧ ـ ٣٨) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

[الأعرَاف: ٤٠] دلالة ظاهرة أن الله ﷻ فوق السماء، لأن أبواب السماء إنما تفتح لأرواح المؤمنين، ولرفع أعمالهم إلى الله ﷻ منها، ولما سوى ذلك مما يشاء الله تعالى، فإذا كان مع الميت والعامل بنفسه في الأرض فإلى من يعرج بأرواحهم وأعمالهم؟ ولم تفتح أبواب السماء لقوم وتغلق عن آخرين، إذا كان الله بزعمكم في الأرض؟ وما منزلة قول الله ﷻ عندهم إذ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعرَاف: ٤٠].

فمن آمن بهذا القرآن الذي احتججنا منه بهذه الآيات، وصدق هذا الرسول الذي روينا عنه هذه الروايات، لزمه الإقرار بأن الله بكماله فوق عرشه، فوق سماواته، وإلا فليحتمل قرآناً غير هذا؛ فإنه غير مؤمن بهذا.

ليس هناك طريق إلا من فوقها، العبور من فوقها، ينصب الصراط من فوقها ويعبر الناس بأعمالهم، وقد يكون الإنسان عبوره مثل خطف البصر، تفتح بصرك ثم تغمضه، وبعضه يكون مثل البرق، ثم يكون مثل أجاود الخيل هكذا ذكر الرسول ﷺ تفاوت الناس في العبور، ثم أخيراً من لا يستطيع العبور فيسقط، أعمالهم تعجِز بهم لأن العبور بالعمل[1].

قوله: «**ولرفع أعمالهم إلى الله ﷻ منها**»، يعني أن رفعها إلى الله، معناه أنها تفتح لترفع، والله جل وعلا يقول: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [المعارج: ٤] وأخبر جل وعلا أن العمل الصالح يرفع إليه، فهو فوق تعالى وتقدس.

قوله: «**وإلا فليحتمل قرآنا غير هذا**» كما قالت قريش: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ

---

(١) ورد هذا في حديث الشفاعة الطويل، أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ح (٧٤٣٩)، ومسلم، كتاب الإيمان ح (١٨٣) من حديث أبي سعيد ﷺ.

ومما يحقق قولنا ويبطل دعواهم احتجاب الله ﷻ من الخلق فوق السماوات العلى.

غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ﴾ [يونس: ١٥]، فهم يريدون أن يقولوا هكذا، كما قال كفار قريش، وهذا من الجرأة على الله بمكان، نسأل الله العافية.



باب الاحتجاب

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشّورىٰ: ٥١]

قوله: «**الاحتجاب**»: يعني أنه بينه وبين خلقه حجب، ولولا هذه الحجب لذابت المخلوقات كلها بنور الله جل وعلا، كما دل على ذلك ما وقع لكليمه موسى عليه السلام، فإنه لما كلمه ربه بلا واسطة، وكان موسى في الأرض، والله جل وعلا فوق العرش، فلما جاء موسى عليه السلام لميقات ربه كلمه الله، وقد أخبر جل وعلا أنه ناداه في هذا، فلما كلمه قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، جعل الله جل وعلا له الجبل آية ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ﴾، ومعلوم أن الجبل لا يقاس بابن آدم الضعيف المسكين، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ تدكدك الجبل وزال ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ لما شاهد ذلك ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: تُبْتُ إليك من هذا الطلب، فإني لا أستطيع أنا ولا غيري ذلك، فحياة البشر أضعف من ذلك، وهكذا كل المخلوقات، لو أن الله جل وعلا كشف الحجب لذهبت واحترقت.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ الوحي هو الإعلام بخفية، أي: أنه يوحيه بواسطة الملك.

﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى عليه السلام، وكما كلم محمداً ﷺ

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: نظر إلي رسول الله ﷺ، فقال: «يا جابر، ما لي أراك مهتماً؟». قال: قلت: استُشهد أبي وترك ديناً عليه وعيالاً. فقال: «ألا أخبرك؟ ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحاً، فقال: يا عبدي، تَمَنَّ عليَّ أعطِكَ. وساق عليٌّ الحديث[١].

ليلة المعراج، فإنه كلمه بلا واسطة ولكن لم يشاهده، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال له: هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نوراً» وفي رواية: «نورٌ أنى أراه»[٢]. يعني لا أستطيع، ولا يمكن أن أراه.

قوله: **«وكلم أباك كفاحاً»** هذا بعد الموت، كلمه كفاحاً يعني: مقابلة، قابله وشاهده وكلمه، ولهذا يقول ﷺ: «واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت»[٣]، فهذا من نعيمه ومن جزائه كونه كلمه.

وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رضي الله عنهما، موقفه في أُحد معروف، لما حصل ما حصل من المسلمين من الانتكاسة، وقيل له: قُتل الرسول، قال: وإذا قتل الرسول علام تجلسون؟ موتوا على ما مات عليه، ثم التفت إلى الذين انهزموا، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، والتفت إلى الكفار، وقال: وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، ثم أقبل عليهم يقاتلهم، فحُسب فيه أكثر من سبعين ضربة في بدنه، حتى ما عرفوه من كثرة الجراحات التي فيه، فقال الرسول ﷺ لابنه جابر هذا القول ليجبر بذلك خاطره حتى ما يهتم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣/١٦٣ ح ١٤٨٨١).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان (١٧٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم، كتاب الفتن (٢٩٣٠) من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ.

عن مسروق، قال: بينا أنا عند عائشة أم المؤمنين، فقالت: يا أبا عائشة من زعم أن محمداً رأى ربه؛ فقد أعظم على الله الفرية، وتلت: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]»[١].

عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع، فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره»[٢].

قول عائشة رضي الله عنها: «**من زعم أن محمدا، رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية**» وهو القول الصحيح، لأنه نقل خلاف، هل الرسول ﷺ رأى ربه؟

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنه رآه»[٣] هكذا، وفي رواية: «رآه بفؤاده»[٤]، مرة أطلقها، ومرة قيدها، والقاعدة عند العلماء أن المطلق يحمل على المقيد، فالرؤية بالفؤاد غير الرؤية بالبصر.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، ح (٤٨٥٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، ح (١٧٧).

(٢) تقدم تخريجه ص١٠٢.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٨٥، ٢٩٠)، قال ابن كثير في التفسير ٨/ ١٠٢: إسناده على شرط الشيخين. وأورده في السنة عبد الله بن أحمد (١/ ٢٩٢ ح ٥٦٣). ورواه ابن خزيمة في التوحيد ١/ ٤٨١ وما بعدها، واللالكائي في السنة ٣/ ٥١٣ وغيرهم.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (١/ ١٥٨ ح١٧٦).

عن ابن عمر، قال: «احتجب الله من خلقه بأربع: بنار وظلمة، ونور وظلمة»[(١)].

عن زرارة بن أوفى، أن النبي ﷺ سأل جبريل: «هل رأيت ربك؟. فانتفض جبريل وقال: يا محمد، إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور، لو دنوت من أدناها لاحترقت»[(٢)].

قال أبو سعيد: مَنْ يَقْدرُ قَدْرَ هذه الحجب التي احتجب الجبار بها؟ ومن يعلم كيف هي غير الذي أحاط بكل شيء علماً؟ ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨].

قوله: **«احتجب الله من خلقه بأربع»** هذه الحجب التي احتجب بها، وهؤلاء ينكرون الحجب، حتى الأشاعرة ينكرون ذلك، لماذا ينكرون الحجب، ما السبب؟

يقولون: ما يحجب إلا الأجسام، الحجاب لا يحجب إلا الأجسام، هذا هو البلاء الذي يمنعهم من الإيمان، وهو توهم الوقوع في التجسيم أو التشبيه كما يقولون، هذا الذي منعهم من الإيمان بما جاء به المصطفى، ومعنى ذلك أنهم ما فهموا كلام الله وكلام رسوله ﷺ في هذه الصفات، وإنما فهموا الشيء الذي يتصورونه من أنفسهم، وهذا يقتضي أنه قد ارتسم التشبيه في أذهانهم أولاً، ثم صاروا ينفون ذلك المرتسم، ولهذا يقول العلماء: «كل معطل مشبه»[(٣)]، أي يشبه أولاً ثم يعطل ثانياً، فيجتمع عنده البلاء، نسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. واللالكائي (٣/ ٤٧٦)، وابن بطة (٧/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٧٧)، وأبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١/ ٣٧٢). وهو مرسل، فإن زرارة تابعي.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة (١/ ٢٤٤).

ففي هذا أيضاً دليل أنه بائن من خلقه، محتجب عنهم، لا يستطيع جبريل ـ مع قربه إليه ـ الدنوَّ من تلك الحجب، وليس كما يقول هؤلاء الزائغة: إنه معهم في كل مكان، ولو كان كذلك ما كان للحجب هناك معنىً؛ لأن الذي هو في كل مكان لا يحتجب بشيء من شيء، فكيف يحتجب من هو خارج الحجاب كما هو من ورائه؟ فليس لقول الله ﷻ: ﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ عند القوم مصداق.

والآثار التي جاءت عن رسول الله ﷺ في نزول الرب تبارك وتعالى تدل على أن الله ﷻ فوق السماوات على عرشه، بائن من خلقه.

وأما الله جل وعلا فهو على خلاف ما يتصورون، وليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أوصافه.

قوله: «**وليس كما يقول هؤلاء الزائغة: إنه معهم في كل مكان..**» هؤلاء يقولون: ليس هناك حجب، لأنه في كل مكان!! هذا ربهم الذي يعبدونه!! أما رب المسلمين فهو كما أخبر الله جل وعلا عن نفسه، وأخبرت به رسله عن ذلك، فهم يؤمنون بأخبار الرسل، ولا سيما رسول الله محمد خاتمهم، الذي جاء بالتفاصيل والإيضاح البين الذي لا يشكل على المؤمن.

قوله: «**بائن من خلقه**» سبق أن ذكرنا معنى «بائن من خلقه» أنه ليس معهم بذاته، وليس مختلطاً فيهم، بل هو مستوٍ على عرشه، وهو جل وعلا لا يخفى عليه شيء مما يقولونه ويفعلونه، فعلمه محيط بكل شيء، وبصره كذلك وإحاطته، ولهذا صح أن نقول: هو معهم أينما كانوا.

❁ ❁ ❁




باب النزول

قوله: «**باب النزول**» يعني: نزول الله جل وعلا، والنزول يكون في الدنيا في كل ليلة كما أخبر به الرسول ﷺ[١]، ويكون يوم عرفة كما جاء أيضاً في الحديث[٢]، ويكون يوم القيامة[٣].

ولكن يجب أن نعلم أن نزوله ليس كنزول المخلوق، فإذا كان المخلوق فوق السطح مثلاً، ثم نزل يقال: نزل عن السطح، فلا بد أن يكون السطح فوقه، فهذا نزول المخلوق الضعيف، أما نزول ربنا فهو يخصه، ينزل وهو على عرشه تعالى وتقدس، ولا يكون شيء فوقه، لأنه أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، فقد يعسر فهم هذا على بعض من لا يتصور عظمة الله، فيقال له: من الأمور التي تقرب إلى الفهم أن الله جل وعلا أفعاله ليست كأفعال الخلق، ولهذا يستمع إلينا وإن كنا ملء الأرض في آن واحد، يعلم طلباتنا في آن واحد، ولا يَشْغَلُه سماع هذا عن هذا، هذا في الوقت الحاضر الآن، ويوم القيامة يحاسب الناس كلهم في وقت واحد، فكل واحد يظن أنه يحاسب وحده، وهو يحاسب الكل، وكل هذا تخالفه أفعال الخلق.

ولهذا نقول: إن الله في فعله ليس كفعل المخلوق، وفي ذاته ليس

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) سيأتي قريباً في الحديث الذي يلي هذا.
(٣) سيأتي قريباً في الحديث الذي يلي هذا.

قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللهُ: فمما يعتبر به من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ في النزول، ويحتج به على من أنكره، قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]. وهذا يوم القيامة إذا نزل الله ليحكم بين العباد، وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥ ـ ٢٦]. فالذي يقدر على النزول يوم القيامة من السماوات كلها ليفصل بين عباده قادر أن ينزل كل ليلة من سماء إلى سماء، فإن ردوا قول رسول الله ﷺ في النزول، فماذا يصنعون بقول الله عَزَّ وَجَلَّ تبارك وتعالى؟

كذات المخلوق، وكذلك في أوصافه، فمن تصور أن نزول الله كنزول المخلوق، فهذا هو البلاء الذي يمنع الإنسان من أنْ يُؤمن بذلك، فالنزول شيء يختص به سبحانه، يخالف النزول الذي نعلمه.

يجب أن نعرف هذا حتى لا نقع فيما وقع فيه المعطلة.

قوله: «**فإن ردوا قول رسول الله ﷺ في النزول، فماذا يصنعون بقول الله**» يعني: لو قدر أنهم يردون الحديث ويقولون: هذا الحديث أخبار آحاد فلا نقبلها، نقول لهم: كيف تقولون في كلام الله؟ إن الله أخبرنا أنه يأتي يوم القيامة، كما قال جل وعلا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾، يعني: ينتظرون، ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾، والغمام هو السحاب الرقيق كما فسره أهل اللغة، يعني أن الله يأتي بهذا، وإتيانه إلى الأرض يكون كما قدمنا أنه يأتي وهو فوق عرشه، فوق جميع مخلوقاته، لا يكون شيء فوقه، تعالى الله وتقدس، لأنه أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، ولهذا قال أئمة السلف وعلماؤهم: إن العلو من صفات الذات.

عن الأغر أبي مسلم، قال: أشهد على أبي سعيد وأبي هريرة أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله يمهل حتى إذا ذهب ثلث الليل هبط فقال: مَنْ تائبٌ فيُتابَ عليه؟ مَنْ داعٍ فيستجابَ له؟ من مستغفر؟ من مذنب؟ من سائل فيعطى؟»[١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليلِ الآخر، فيقول: من يدعوني أستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟»[٢].

والفرق بين صفة الذات وصفة الفعل أن صفات الذات صفات ملازمة لا تفارق الله أبداً، أما صفات الفعل فهي تتعلق بمشيئته، إذا شاء أن يفعلها فعلها، وإذا شاء أن لا يفعلها لا يفعلها، فالعلو من صفات الذات، مثل الحياة، ومثل العلم، لا يمكن أن يقال عن الحياة: إنها تفارقه في وقت ما، وكذلك العلم أو السمع أو البصر.

قوله: «**حتى إذا ذهب ثلث الليل هبط**» هذا في كل ليلة، «إن الله يمهل حتى إذا ذهب ثلث الليل» وفي رواية «ثلثا الليل وبقي الثلث».

قوله: «**هبط**»: الهبوط هو النزول.

قوله: «**فقال: مَنْ تائب**» والقائل هو ربنا جل وعلا، فمعنى ذلك أنه يطلب من عباده التوبة، يحثهم أن يتوبوا، «هل من تائب فيتاب عليه، هل من مستغفر فيغفر له، هل من يسأل فيعطى»، فهو يفتح بابه ويطلب من عباده أن يسألوه لكرمه وجوده، وهل هو ينتفع بشيء من ذلك؟

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ح (٧٥٨).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، ح (١١٤٥)، ومسلم، كتاب كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ح (٧٨٥).

قال أبو سعيد: وزادني فيه أحمد بن صالح، عن ابن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب، بإسناده[١].

عن عطاء بن يسار، أن رفاعة الجهني، حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مضى ثلث الليل، أو شطر الليل، أو ثلثا الليل، يتنزل الله إلى سماء الدنيا، فيقول: لا أسأل عن عبادي أحداً غيري، من يستغفرني أغفر له؟ من يدعوني أستجيب له؟ ومن يسألني أعطيه؟ حتى ينفجر الصبح»[٢].

عن أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى ينزل في ثلاث ساعات من الليل يفتح الذكر، فينظر الله في الساعة الأولى منهن في الكتاب الذي لم يره غيره، فيمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء، ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن، وهي داره التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، وهي مسكنه، ولا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاثة: النبيين، والصديقين، والشهداء، ثم يقول: طوبى لمن دخلك. ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى السماء الدنيا بروحه وملائكته، فتنتفض، فيقول: قومي بعزتي، ثم يطلع إلى

نقول: كلا، هو الغني بذاته عما سواه، ولكن من كرمه وجوده أنه ينادي عباده، وربما كثير منهم عن ذلك غافلون ساهون، ما يهتمون بهذا الأمر، والله المستعان! واللهِ نغفُل عن هذا.

---

(١) أخرجه أحمد (١٣/ ٣٤ ح ٧٥٩٢)، وابن ماجه، أبواب قامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في أي ساعات الليل أفضل، ح (١٣٦٦)، والدارمي (١/ ٣٤٧)، ابن خزيمة (ص ١٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦/ ١٥٦ ح ١٦٢١٨)، وابن ماجه، أبواب قامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في أي ساعات الليل أفضل، ح (١٣٦٧)، والدارمي (١/ ٣٤٧)، وابن خزيمة (ص ١٣٢).

عباده، فيقول: هل من مستغفر أغفر له؟ وهل من داع أجيب؟ حتى تكون صلاة الفجر»، ولذلك يقول: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسرَاء: ٧٨] يشهده الله وملائكة الليل والنهار»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا بقي، أو قال: مضى ثلث الليل ينزل الله إلى سماء الدنيا فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسترزقني فأرزقه؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستكشف الضر أكشف عنه؟ حتى ينفجر الصبح»(٢).

عن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يفتح أبواب السماء في ثلث الليل، فيهبط إلى السماء الدنيا، فيبسط يديه، فيقول: ألا عبد يسألني فأعطيه؟ إلى طلوع الفجر»(٣).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة، ولأخرتُ العشاء الآخرة حتى يذهب ثلث الليل، فإنه إذا ذهب ثلثُ الليل الأولُ هبط الله إلى السماء الدنيا، فلا يزال بها حتى يطلع الفجر، يقول قائل: ألا من سائل فيعطى، ألا من داع فيستجابَ له؟، ألا من مريض يَسْتَشْفي فَيُشْفى؟ ألا من مذنب يستغفرُ فيغفر له؟»(٤).

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ بمثل حديث

....

(١) أخرجه ابن خزيمة (ص ١٣٥ ـ ١٣٦)، وابن جرير في التفسير (١٥/ ١٣٩).
(٢) أخرجه وأحمد (١٦/ ٤٤٠ ح ١٠٧٥٦).
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٢ ح ٣٨٢١)، وابن خزيمة (ص ١٣٤ ـ ١٣٥)، والآجري (ص ٣١٢).
(٤) أخرجه أحمد (١٦/ ٣٦١ ح ١٠٦١٨).

أبي هريرة رضي الله عنه[١].

عن ابن عباس، قال: إن الله يمهل حتى إذا مضى ثلث الليل هبط إلى سماء الدنيا، ثم قال: هل من تائب فيتاب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل يعطى؟»[٢].

عن عبيد بن عمير، قال: إذا مضى ثلث، أو: بقي نصف الليل، ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا، فيقول: «من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟»[٣].

هذه كلها أحاديث في النزول.



(١) أخرجه أحمد (٢/٤٣ ح ٦٠٧)، والدارمي (١/٣٤٨).
(٢) أخرجه ابن أبي عاصم (٥١٣).
(٣) ذكره الذهبي في العلو (ص ٩٣) وعزاه إلى عبد الله بن أحمد في الرد على الجهمية.




باب النزول ليلة النصف من شعبان

عن مصعب بن أبي الحارث، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر، عن أبيه، أو عن عمه، عن جده أبي بكر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى ليلة النصف من شعبان، فيغفر لكل نفس إلا مشرك بالله ومشاحن»[١].

الأحاديث في النزول في ليلة النصف من شعبان ضعيفة، والقاعدة في هذا أن صفات الله جل وعلا والأصول لا يثبت منها إلا ما كان ثابتاً عن رسول الله ﷺ، ويكفينا هذا الذي ذكر من أحاديث النزول، وإن كان بعضها فيها مقال، ولكن أحاديث النزول بالجملة تكاد تكون متواترة[٢] وهي كثيرة وثابتة عن رسول الله ﷺ، فيجب أن نؤمن بها، ويكون ذلك على وفق ما وصف الله جل وعلا به نفسه، فنزوله يليق به ويليق بعظمته كما سبق؛ لأن نزوله ليس كالنزول المعهود لنا، فهو شيء يخص الله جل وعلا، ولهذا ينزل وهو فوق كل شيء، والسماء وغيرها تكون بالنسبة إليه صغيرة حقيرة، وواجب على مثل هذه الأمور أنه لا يثبت منها إلا الشيء الذي لا مطعن فيه.

---

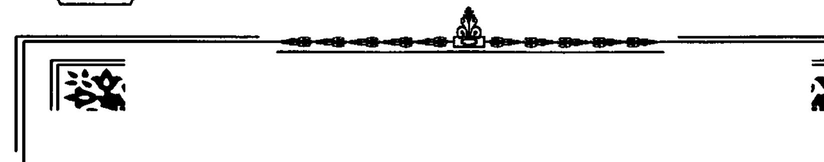
(١) أخرجه ابن خزيمة (ص ١٣٦)، وابن أبي عاصم (٥٠٩)، والبيهقي في الشعب (٢/٣٩/٢).

(٢) نص على ذلك جمع، منهم عبد الغني المقدسي في الاقتصاد في الاعتقاد (ص ١٠٠)، وابن تيمية في شرح حديث النزول (ص ٣٢٣)، وابن القيم كما في مختصر الصواعق (١١٠٨/٣).
وانظر: نظم المتناثر في الحديث المتواتر (ص ١٧٨).

. . . .

أما الأحاديث التي جاءت في نصف الليل من شعبان، فكثير من الأئمة طعنوا فيها، وقالوا: إنها ليست ثابتة، وقالوا: إنه لا يثبت في ليلة النصف من شعبان حديث، والله أعلم.





باب النزول يوم عرفة

عن عاصم بن أبي النجود، قال: قالت أم سلمة: «نِعْم اليوم يوم عرفة، ينزل فيه رب العزة إلى السماء الدنيا»[(١)].

هذا موقوف، وعاصم بن أبي النجود كما هو معروف ضعيف.



(١) أخرجه الصابوني (٧٦)، والدارقطني في النزول (٩٥، ٩٦).

باب نزول الرب تبارك وتعالى يوم القيامة للحساب

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه»، وساق الحديث إلى قوله: «وتبقى هذه الأمة، فيقولون: هذا مكانُنا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله عز وجل، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه»، وساق نُعَيمٌ الحديث إلى آخره(١).

عن الحسن، أن رسول الله ﷺ قال: «يأتينا ربنا يوم القيامة

قوله: «**نزول الرب ـ تبارك وتعالى ـ يوم القيامة للحساب**» هذا ثابت عن الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة، وفي القرآن عدد من الآيات نص في النزول والإتيان يوم القيامة.

قوله: «**يتبعونه**» لأنه قال: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، وهؤلاء المؤمنون يعبدون الله جل وعلا ثم يتبعونه، يتبعونه إلى أين؟ يتبعونه حتى يحكم بينهم ثم ينزلهم الجنة، ويكرمهم غاية الإكرام، نسأل الله من فضله.

وقوله: «**يأتينا ربنا يوم القيامة**» يعني لهذه الأمة؛ لأن هذه الأمة هي أول من يحاسب من الأمم، وتكون هي أسبق الأمم إلى المحشر،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق. باب الصراط جسر جهنم، ح (٦٥٧٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، ح (١٨٢).

ونحن على مكان رفيع، فيتجلى لنا ضاحكاً»[(١)].

عن ابن عباس، قال: ينادي مناد بين يدي الساعة: أتتكم الساعة، حتى يسمعها كل حي وميت. قال: فينادي المنادي: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]»[(٢)].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه قال ـ وتلا هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ـ قال: يبدلها الله يوم القيامة بأرض

ويكونون في مكان مرتفع في المحشر، فهم فضلوا على سائر الأمم، ولكن لمن يكون هذا التفضيل، الحقيقة أنه يكون لمن اتبع الرسول ﷺ، أما من كذبه وأبى أن يتبعه فمقتضى القياس أن يكون عذابه أشد من غيره؛ لأن من كذب أفضلَ الرسل، وأكثرَهم آيات، وأعظمَهم قربة لله جل وعلا، اقتضى ذلك أنه يكون أشد عذاباً من غيره، ولكن الله لا يظلم أحداً.

قول ابن عباس: هذا الذي جاء فيه ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ كما في القرآن، هذا يكون يوم القيامة، وقد جاء في حديث أنه يكون حين يقبض السماوات والأرض ثم يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، فلا يجيبه أحد؛ لأن كل الخلق ماتوا، فيجيب نفسه جل وعلا، فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[(٣)].

قوله: «**يبدلها الله يوم القيامة بأرض من فضة**»، هذا في الحشر بعد

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في الزهد (٢/ ١٣٠)، والحاكم (٢/ ٤٣٧) وصححه على شرط مسلم.

(٣) روي هذا المعنى في حديث مرفوع وفي آثار موقوفة، فأما المرفوع فقد أخرجه البيهقي في البعث والنشور (ص ٣٣٦)، وضعفه كما في شعب الإيمان (١/ ٥٣٥).

من فضة، لم يعمل عليها الخطايا، ينزل عليها الجبار تبارك وتعالى»[١].

عن ابن عباس، في هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]، قال: ينزل أهل سماء الدنيا، وهم أكثر من أهل الأرض ومن الجن والإنس، فيقول أهل الأرض: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، وسيأتي، ثم تشقق السماء الثانية. وساق أبو سلمة الحديث إلى السماء السابعة قال: فيقولون: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، وسيأتي، ثم يأتي الرب تبارك وتعالى في الكروبيين، وهم أكثر من أهل السماوات والأرض»[٢].

عن الضحاك بن مزاحم، قال: «إن الله يأمر السماء يوم القيامة فتنشق بمن فيها، فيحيطون بالأرض ومن فيها، ويأمر السماء الثانية، حتى ذكر سبع سماوات، فيكونون سبعة صفوف قد أحاطوا بالناس. قال: ثم ينزل الله في بهائه وجماله، ومعه ما شاء من الملائكة، على مجنبته اليسرى جهنم، فإذا رآها الناس تَلَظّى وسمعوا زفيرها

الموت، وبعد البعث، فتبدل الأرض غير الأرض، وتمد وتصبح كبيرة جداً حتى تتسع للناس؛ لأن الناس كثيرون، وكلهم يبعثون في ذلك اليوم، ويجمعون جميعاً مع الشياطين، والملائكة يكونون من ورائهم، ثم ينزل الله جل وعلا للفصل بينهم.

قوله: «**في الكروبيين**» هم نوع من الملائكة الذين في السماء

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٢٥١) مقتصراً على ذكر تبديل الأرض بأرض من فضة.

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠)، وقال: رواة هذا الحديث عن آخرهم محتج بهم غير علي بن زيد بن جدعان، وهو وإن كان موقوفاً على ابن عباس فإنه عجيب بمرة. اهـ. وقال الذهبي: إسناده قوي.

وشهيقها ند الناس في الأرض، فلا يأتون قطرا من أقطارها إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة، وذلك قول الله ﷿: ﴿وَيَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢]. يقول: يند الناس، فيقول الله ﷿: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وذلك قوله ﷿: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٣]، و﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥)﴾ [الفرقان: ٢٥]. ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧)﴾ [الحاقة: ١٦ ـ ١٨]. قال: قلت: فما أرجاؤها؟ قال: حافتها»[1].

السابعة، خلقهم الله جل وعلا لعبادته وكلهم خلقوا لعبادته.

قول الضحاك: هذه الآيات حق كما ذكر الله جل وعلا، ولكن هذا القول عن الضحاك بن مزاحم، موقوف عليه، ومثل هذا لا يجوز أن يتكلم فيه الإنسان من تلقاء نفسه، فإما أنه نقله عن أهل الكتاب، أو أنه فهمه فهماً، ومثل هذا يجب أن يكون مرفوعاً إلى النبي ﷺ، ولا يجوز أن يتكلم الإنسان في الله إلا بدليل ثابت.



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأهوال (١٥١).

باب نزول الله لأهل الجنة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل وفي يده كهيئة المرآة البيضاء، وفيها نكتة سوداء.

قلت: ما هذه يا جبريل؟

قال: هذه الجمعة، بعث بها إليك ربك، تكون عيداً لك ولأمتك

قوله: «**نزول الله لأهل الجنة**» نزوله حتى يكشف الحجاب بينه وبينهم فيشاهدونه ويرونه، وهو نعيم أهل الجنة كما ثبت ذلك في صحيح مسلم وغيره، ففي صحيح مسلم عن صهيب رضي الله عنه أنه سمع الرسول ﷺ يقول: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وجوهَنا؟ ألم تدخلْنا الجنة، وتُنَجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»[1].

قول الله جل وعلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قال: «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم جل وعلا»[2].

---

(١) لفظ مسلم، كتاب الإيمان (ح ١٨١).

(٢) تفسير الزيادة في الآية بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل ثابت من حديث صهيب المتقدم، ومن قول أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وأبي موسى الأشعري وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وعدد كبير من التابعين وغيرهم. انظر: اعتقاد أهل السنة للالكائي ٣/٤٥٨ ـ ٤٦٣.

من بعدك.

قلت: وما لنا فيها؟ قال: لكم فيها خير كثير، أنتم الآخرون السابقون يوم القيامة، وفيها ساعة لا يوافقها عبد يصلي يسأل الله شيئا إلا أعطاه.

قلت: ما هذه النكتة السوداء؟ قال: هذه الساعة، تكون يوم الجمعة، وهو سيد الأيام، ونحن نسميه عندنا يوم المزيد.

قلت: وما المزيد يا جبريل؟ قال: ذلك بأن ربك اتخذ في الجنة وادياً أفيحَ من مسكٍ أبيضَ، فإذا كان يوم الجمعة من أيام الآخرة هبط الرب تبارك وتعالى عن عرشه إلى كرسيه، وحف الكرسي بمنابر من نور، فيجلس عليها النبيون، وحف المنابر بكراسي من ذهب، فيجلس عليها الصديقون والشهداء، ويهبط أهل الغرف من غرفهم، فيجلسون على كثبان المسك، لا يرون لأهل المنابر والكراسي عليهم فضلاً في المجلس، ثم يتبدى لهم ذو الجلال والإكرام، فيقول: سلوني، فيقولون بأجمعهم: نسألك الرضا، فيُشهدهم على الرضا، ثم يسألونه، حتى تنتهي نهية كل عبد منهم، ثم يسعى عليهم بما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم يرتفع الرب عن كرسيه إلى عرشه، ويرتفع أهل الغرف إلى غرفهم، وهي غرفة من لؤلؤة بيضاء، أو زبرجدة خضراء، أو ياقوتة حمراء، ليس فيها قصم، ولا وصم، مُطَّرِدة فيها أنهارُها، مُتَدَلّية فيها ثمارُها، فيها أزواجها وخدمها ومساكنها، فليس أهل الجنة إلى شيء أشوقَ منهم إلى يوم الجمعة، ليزدادوا قرباً من الله ورضواناً».

عن أنس ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل

....

في كفه كالمرآة البيضاء، فيها كالنكتة السوداء، فقلت: ما هذا الذي في يدك؟ قال: الجمعة، قلت: وما الجمعة؟ قال: لكم فيها خير، وهو عندنا سيد الأيام، ونحن نسميه يوم القيامة المزيد، قلت: ولم ذاك؟ قال: لأن الرب تبارك وتعالى اتخذ في الجنة وادياً أفيحَ من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة ينزل على كرسيه من عليين، أو نزل من عليين على كرسيه، ثم حف الكرسي بمنابر من ذهب مكللة بالجوهر، ثم يجيء النبيون حتى يجلسوا على تلك المنابر.

ثم ينزل أهل الغرف حتى يجلسوا على ذلك الكثيب، ثم يتجلى لهم ربهم فيقول: أنا الذي صدقتكم وعدي، وأتممت عليكم نعمتي، وهذا محل كرامتي، فسلوني». وساق عثمان بن أبي شيبة الحديث إلى قوله: «وذلك مقدار منصرفهم من الجمعة، ثم يرتفع إلى عرشه عن كرسيه، ويرتفع معه النبيون والصديقون والشهداء، أو النبيون والشهداء والصديقون، ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم»(١).

هذه الأحاديث التي ذكرها في النزول مرتبة:

أولاً: في نزوله في الدنيا في كل ليلة، والأحاديث في هذا كثيرة وتكاد تتواتر.

ثم النزول يوم القيامة قد جاءت آيات في كتاب الله جل وعلا تثبت ذلك، والأحاديث هذه تبين ذلك وتوضحه، ونحن نؤمن بما ذكره الله جل وعلا وذكره رسوله ﷺ، كما أننا نسأله جل وعلا أن يجعلنا من الذين يتنعمون بالرؤية إليه في جنة النعيم.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠ ـ ١٥١)، وابن جرير (٢٦/ ١٧٥)، وعبد الله بن أحمد (٤٨ ـ ٤٩) غيرهم.

عن عمر بن عبد العزيز، قال: «فإذا فرغ الله ﷻ من أهل الجنة والنار، أقبل الله ﷻ ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البَقَرَة: ٢١٠]. فسلم على أهل الجنة في أول درجة، فيردون عليه السلام. قال القرظي: وهذا في القرآن ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يَس: ٥٨]. فيقول: سلوني، قال: ففعل ذلك بهم في درجهم حتى يستوي في مجلسه، ثم يأتيهم التحف من الله تحملها الملائكة إليهم»[1].

قال أبو سعيد: فهذه الأحاديث قد جاءت كلها وأكثر منها في نزول الرب تبارك وتعالى في هذه المواطن، وعلى تصديقها والإيمان

في هذا الحديث الذي ذكره عن عمر بن عبد العزيز، قال: «**فإذا فرغ الله جل وعلا من أهل الجنة**» إلخ، الله جل وعلا لا يَشْغَلُه شيء عن شيء، وأمره إذا أراده قال له: كن، فيكون في الحال، ومعنى فرغ: أي انتهى، وليس معنى ذلك أنه انشغل، أو أنه يكون في أمر يحتاج إلى أن يعمل عليه ينتظر فراغه منه، تعالى الله وتقدس، ولكن هكذا أخبر بالشيء الذي يفهمه الناس في هذا، كقوله جل وعلا: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] وإلا أخبر أنه قال للسماء والأرض: وهي دخان ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، يعني في الحال، وقوله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]، سبق أنه لو شاء لخلقها في لحظة، ولكن هذا لحكمة أرادها جل وعلا، فهو لا يَشْغَله شيء عن شيء، ولا يشتغل بأمر يحتاج معه إلى وقت حتى يفرغ منه، وإنما هذا على حسب ما يخاطب الناس فيه ويعرفونه.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ٢١ ـ ٢٢)، وعزاه السيوطي في الدر (٥/ ٢٦٧) إلى أبي نصر السجزي في الإبانة.

بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا، لا ينكرها منهم أحد، ولا يمتنع من روايتها، حتى ظهرت هذه العصابة فعارضت آثار رسول الله ﷺ برد، وتشمروا لدفعها بجد، فقالوا: كيف نزوله هذا؟ قلنا: لم نكلَّفْ معرفة كيفية نزوله في ديننا، ولا تعقله قلوبنا، وليس كمثله شيء من خلقه فنشبه منه فعلاً أو صفة بفعالهم وصفتهم، ولكن ينزل بقدرته ولطف ربوبيته كيف يشاء، فالكيف منه غير معقول، والإيمان بقول رسول الله ﷺ في نزوله واجب، ولا يُسأل الرب عما يفعل كيف يفعل وهم يسألون، لأنه القادر على ما يشاء أن يفعله كيف يشاء، وإنما يقال لفعل المخلوق الضعيف الذي لا قدرة له إلا ما أقدره الله تعالى عليه: كيف يصنع؟ وكيف قدر؟.

ولو قد آمنتم باستواء الرب على عرشه، وارتفاعه فوق السماء السابعة بدءً إذ خلقها، كإيمان المصلين به، لقلنا لكم: ليس نزوله من سماء إلى سماء بأشد عليه، ولا بأعجب من استوائه عليها إذ خلقها بدءً، فكما قَدَرَ على الأولى منهما كيف يشاء، فكذلك يقدر على الأخرى كيف يشاء.

هذا القياس في قوله: «**فكما قَدَرَ على هذا يقدر على ذاك**»، لأن الله أخبرنا بهذا فيجب أن نؤمن به، وهو إتيانه جل وعلا، وكذلك مجيئه وفعله، ليس كالفعل الذي نعهده، فهو خاص به جل وعلا، ولهذا اتفق جمهور أهل السنة[1] على أنه لا يخلو من عرشه، وإنما هو دائماً على عرشه مع إتيانه، يأتي إلى الأرض وهو فوق كل شيء، وهو فوق عرشه تعالى وتقدس، لأنه أكبر من كل شيء، والمخلوقات إذا شاء قبضها كلها بيده وصارت حقيرة صغيرة، ولهذا يجب على العبد أن يقدر الله ﷻ

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة (٣/ ١٢٢٣).

وليس قول رسول الله ﷺ في نزوله بأعجبَ من قول الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. ومن قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]. فكما يقدر على هذا يقدر على ذاك.

فهذا الناطق من قول الله ﷻ، وذاك المحفوظ من قول رسول الله ﷺ بأخبار ليس عليها غبار، فإن كنتم من عباد الله المؤمنين، لزمكم الإيمان بها، كما آمن بها المؤمنون، وإلا فصرحوا بما تضمرون، ودعوا هذه الأغلوطات التي تلوون بها ألسنتكم، فلئن كان أهل الجهل في شك من أمركم، إن أهل العلم من أمركم لعلى يقين.

قال: فقال قائل منهم: معنى إتيانه في ظلل من الغمام، ومجيئه والملك صفا صفا، كمعنى كذا وكذا.

قلت: هذا التكذيب بالآية صراحاً، تلك معناها بيّن للأمة، لا اختلاف بيننا وبينكم وبين المسلمين في معناها المفهوم المعقول عند جميع المسلمين، فأما مجيئه يوم القيامة، وإتيانه في ظلل من الغمام

حق قدره، ويعلم أنه جل وعلا أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وأنه لا يُعجزه شيء، وقد قال الله جل وعلا في إعادة الخلق: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، فليس عليه شيء صعب تعالى الله وتقدس.

قوله: «**كمعنى كذا وكذا**» لم يذكر هذا المعنى، لأنه ـ كما سبق ـ يستبشع كلامهم، فلهذا حذف قولهم هذا، ولكن يفهم من جوابه ماذا قالوا.

قوله: «**فأما مجيئه يوم القيامة**» المشهور أن تأويلهم المجيء والإتيان: أنه إما مجيء ملائكته، أو مجيء أمره، أو مجيء عذابه،

والملائكة، فلا اختلاف بين الأمة أنه إنما يأتيهم يومئذ كذلك لمحاسبتهم، وليصدع بين خلقه ويقررهم بأعمالهم، ويجزيهم بها، ولينصف المظلوم من الظالم، لا يتولى ذلك أحد غيره تبارك اسمه وتعالى جده، فمن لم يؤمن بذلك لم يؤمن بيوم الحساب.

فـ(جاء) يعني جاء عذابه، أو جاء ملك من ملائكته، أو جاء أمره، ولكن مثل هذا التأويل، يقال فيه: أمره من أين يأتي؟ وأنتم تقولون: إنه في كل مكان؟ وكذلك عذابه؟

العذاب يأتي دائماً وليس خاصاً بوقت ما، وإذا كانوا أيضاً كما سبق يقولون في النزول: ينزل الملك أو ينزل الأمر، نقول: هل الأمر والملك الذي له غاية ينتهي إليها في نزوله إلى السماء الدنيا أو في آخر الليل؟ رحمته أو ملكه أو أمره ينزل في كل وقت، وإلى كل مكان، وإنما هذا كما قال المصطفى ﷺ: أنه جل وعلا الذي ينزل، فكما أنه ينزل في آخر الليل إلى السماء الدنيا، يأتي يوم القيامة إلى الأرض يفصل بين خلقه، كما نطقت بذلك النصوص عن رسول الله ﷺ، الذي هو أعلم الخلق بالله، وهو ﷺ أنصح الخلق فيما وكل إليه، وهو أقدرهم على البيان والإيضاح، وهو أغيَرُهم على الله جل وعلا بألّا يصفه بما يتعالى ويتقدس عنه، وكل هذه الأمور تمنع هذا التأويل الباطل.

ثم ما المحذور عندهم؟

المحذور عندهم أنهم لا يصفون الله بأن له وجوداً معيناً كما سبق، فلا يكون مستوياً على عرشه، وإذا كان مستوياً على عرشه لا يمتنع عليه الإتيان، ولكن الله عندهم ليس مستوياً على عرشه، ولهذا قالوا: الذي يأتي أمره، أو يأتي ملك من الملائكة، والملك هو الذي يحاسب الناس، وهو الذي يتولى حسابهم، وهو الذي يخاطبهم، ويقول: «أليس عدلاً مني أن أُولِيَ كل واحد منكم ما كان يتولاه في الدنيا»، وهو الذي

ولكن إن كنتم محقين في تأويلكم هذا وما ادعيتم من باطلكم، ولستم كذلك، فأتوا بحديث يقوي مذهبكم فيه عن رسول الله ﷺ، أو بتفسير تأثرونه صحيحاً عن أحد من الصحابة أو التابعين كما أتيناكم به عنهم نحن لمذهبنا، وإلا فمتى نزلت الجهمية من العلم بكتاب الله وبتفسيره المنزلة التي يجب على الناس قبول قولهم فيه، وترك ما يؤثر من خلافهم عن رسول الله ﷺ، وعن أصحابه، وعن التابعين بعدهم.

هذا حدث كبير في الإسلام، وظلم عظيم أن يُتَّبَعَ تفسيرُكم كتابَ الله بلا أثر، ويترك المأثور فيه الصحيح من قول رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم؟

يقول للمؤمن إذا وضع عليه كنفه، ثم قرره بذنوبه: «سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[(١)]، هل يمكن أن الملك يقول هذا؟

كلها مغالطات وتستر كما قال، تستر على الكفر الذي يبطنونه والتكذيب، وهو تكذيب في الواقع، لأن التأويل الذي لا وجه له هو كما يقول بعض العلماء: هذا لعب في كلام الله وكلام رسوله ﷺ لا يجوز أن يقر، ولكن إذا كانوا يتسترون بذلك فأمرهم إلى الله جل وعلا.

قوله: «**أن يُتَّبَعَ تفسيرُكم كتابَ الله**» كتاب الله: مفعول تفسير، يعني أننا نتبع ما فسرتم به كتاب الله بلا أثر، أي: بلا حديث عن رسول الله ﷺ، أو عن أصحابه، لأن هذا خلاف الظاهر، وخلاف ما خوطبنا به، ونحن خوطبنا بكلام فصيح بليغ معلوم المعنى لا خفاء فيه، فلا يترك

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم والغضب باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ح(٢٤٤١). ومسلم كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ح(٢٧٦٨).

ومتى ما قَدَرْتُم أن تجامعوا أهل العلم في مجالسهم، أو تنتحلوا شيئاً من العلم في آباد الدهر إلا منافقة واستتاراً، حتى تتقلدوا اليوم من تفسير كتاب الله ما كان يتوقى أوضحَ منه أصحابُ رسول الله ﷺ؟ لقد عَدَوْتُم طورَكم، وأنزلتم أنفسكم المنزلة التي بعَّدَكم الله منها، ثم المسلمون.

ولو لم يوجد فيها عن رسول الله ﷺ، ولا عن أصحابه خبر ولا أثر لم تكونوا مؤتَمنين على كتاب الله وتفسيره أن يُلْتَفَتَ إلى شيء من أقاويلكم، أو يعتمد على شيء من تفسيركم كتاب الله، لما ظهر للأمة من إلحادكم، فكيف إذا هم خالفوكم؟.

الظاهر الجلي من كلام الله وكلام رسوله لدعوى باطلة قصد بها ضلال.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ومتى ما قدرتم أن تجامعوا أهل العلم في مجالسهم، أو تنتحلوا شيئاً من العلم..**» يعني أنكم ما عُرفتم بالعلم، ولا عُرفتم بمجالس العلماء، فليس عندكم علم بتفسير كلام الله ولا بأحاديث رسوله ﷺ، ولم يعرف لكم طلب له، فهذا من الأمور التي توقع الشك في أن لكم مرادا سيئا، وتريدون أن تفسدوا عقائد المسلمين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**حتى تتقلدوا اليوم من تفسير الله**» يقول: الذي كان يتوقاه أصحاب الرسول في الأمور الواضحة، مثل ما هو معروف من قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقول غيره كذلك من التابعين الذين يقول أحدهم: «ذهب الذين يعرفون فيما نزل القرآن»[1]، وليس معنى ذلك أنهم لا يعرفون التفسير، ولكنهم يَتَوقَّوْن ذلك خوفاً من الوقوع في الخطأ، وهؤلاء

---

(١) عن محمد بن سيرين، قال: سألت عَبيدةَ عن آية من القرآن، فقال: «اتق الله! وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل من القرآن». أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص ٩)، قال ابن حجر في العباب (١/ ١٩٩): سنده صحيح.

قال أبو سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومما يرد هذا ويبطله قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨]. فهذا مما يحقق دعوانا ويبطل دعواكم التي تخرصتموها عَدْواً بغير علم في إتيان الله تعالى ومجيئه يوم القيامة والملك صفاً صفاً.

فإن أبيتم إلا لزوماً لتفسيركم هذا، ومخالفة لما احتججنا به من كتاب الله وآثار رسول الله ﷺ وأصحاب رسول الله ﷺ، فإنه ليس لكم من الرسوخ في العلم والمعرفة بالكتاب والسنة ما يعتمد فيه على تفسيركم لو قد أصبتم الحق، فكيف إذا أنتم أخطأتموه.

ولكن بيننا وبينكم حجة واضحة يعقلها من شاء الله من النساء والولدان، ألستم تعلمون أنّا قد أتيناكم بهذه الروايات عن رسول الله ﷺ، وعن أصحابه والتابعين، منصوصة صحيحة عنهم، أن الله تبارك وتعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، وقد علمتم يقيناً أنّا لم نخترع هذه الروايات، ولم نفتعلها، بل رويناها عن الأئمة الهادين الذين نقلوا أصول الدين وفروعه إلى الأنام، وكانت مستفيضة في أيديهم، يتنافسون فيها، ويتزينون بروايتها، ويحتجون بها على من خالفها، قد علمتم ذلك ورويتموها كما رويناها إن شاء الله، فأْتوا

يسارعون إلى أن يعينوا مراداً لله جل وعلا بعيداً عن مفهوم الكلام.

قوله: «**فهذا مما يحقق دعوانا ويبطل دعواكم..**» المَلَك اسم جنس، يعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن وجه إبطال الآية لقولهم: أن الآية جاءت بالتعدد، الله جل وعلا يقول: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فهذا واحد، ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، فإذاً إتيان الله غير إتيان الملائكة، وإتيان آياته غير إتيانه، فهذا يعني أن إتيانه حقيقي، فهذا هو وجه كون هذه الآية تبطل تأويلهم.

ببعضها، أنه لا ينزل منصوصاً كما روينا عنهم النزول منصوصاً، حتى يكون بعض ما تأتون به ضداً لبعض ما أتيناكم به، وإلا لم يَدفع إجماعَ الأمة وما ثبت عنهم في النزول منصوصاً بلا ضد منصوصٌ من قولهم، أو من قول نظرائهم، ولم يدفع شيء بلا شيء، لأن أقاويلهم ورواياتهم شيء لازم وأصل منيع، وأقاويلكم ريح ليست بشيء، ولا يلزم أحداً منها شيء إلا أن تأتوا فيها بأثر ثابت مستفيض في الأمة كاستفاضة ما روينا عنهم، ولن تأتوا به أبداً، هذا واضح بين يعقله كثير من ضعفاء الرجال والنساء، وتعقلونه أنتم إن شاء الله، فإنه ليس لكم من الغفلة كل ما لا تعلمون أن هذه الحجج آخذة بحلوقكم، غير أنكم تقصدون شيئاً لا ينقاد إلا بدفع هذه الحجج والآثار كلها، تزعمون أن إلهكم الذي كنتم تعبدون في كل مكان، واقع على كل شيء، لا حد له ولا منتهى عندكم، ولا يخلو منه مكان بزعمكم.

وجه الإلزام في هذا يقول: إنه لا تقبل دعوى إلا بعلم، نحن جئناكم بالدليل على أن الله ينزل إلى سماء الدنيا، وأنه يجيء يوم القيامة، بنصوص من كتاب الله، ومن أحاديث رسوله ﷺ، وأنتم قلتم أقوالاً من عند أنفسكم، تأولتم بها كلام الله الواضح، وآثار رسوله ﷺ البينة الواضحة، وهي أي أقوالكم وتأويلاتكم لا تدل عليها النصوص لا لفظاً ولا معنى، فكيف يصار إليها وهي بهذه الصفة، وتترك نصوص الله جل وعلا في آياته؟ وكذلك نصوص الرسول ﷺ، بمجرد دعوى.

وهذا نظير قول اليهود: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾، فقال الله جل وعلا لهم: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، فلا بد من البرهان، أما مجرد الدعوى فهي غير

ثم قلتم: إنما يوصف بالنزول من هو في مكان دون مكان، فأما من هو في كل مكان فكيف ينزل إلى مكان؟.

قلنا: هذه صفة خلاف صفة رب العالمين، ولا نعرف بهذه الصفة شيئاً إلا هذا الهواء الداخل في كل مكان، النازل على كل شيء، فإن لم يكن ذلك إلهكم الذي تعبدون، فقد غلبكم عن عبادة الله رأساً، وصرتم في عبادة ما تعبدون أسوأ منزلة من عبادة الأوثان، وعبادة الشمس والقمر، لأن كل صنف منهم عبد شيئاً هو عند الخلق شيء، وعبدتم أنتم شيئاً هو عند الخلق لا شيء، لأن الكلمة قد اتفقت من الخلق كلهم أن الشيء لا يكون إلا بحدٍّ وصفة، وأن لا شيء ليس له حد ولا صفة، ....

مقبولة، هذا هو وجه الإلزام، أنكم لم تأتوا بدليل إلا بمجرد الدعوى، والدعوى لا تقبل.

قوله: «**قلتم: إنما يوصف بالنزول من هو في مكان دون مكان، فأما من هو في كل مكان فكيف ينزل إلى مكان**» يعني: أن قولكم حين لا تصفون الله جل وعلا بالنزول، إنما أبيتم وصفه بالنزول أو بالاستواء؛ لأنه في كل مكان عندكم، والذي في كل مكان لا يصح أن يكون نازلاً ولا مستوياً ولا صاعداً.

فيقال: إن هذا هو العدم، ولا نعرف من الشيء إلا الهواء الذي يملأ الفراغ، وهو ليس بشيء، قد ينتهي ولا يكون شاغلاً لشيء، فهذا معناه أنكم تعبدون عدماً، ولا تعبدون شيئاً. والله جل وعلا أخبر أنه أكبر من كل شيء، وأمر عباده الذين يسجدون ويركعون له أنهم في كل نُقلة يقولون: الله أكبر، أي الله أكبر من كل شيء، ولو كان كما تقولون لما صار أكبر من كل شيء، وكذلك فعل الرسول ﷺ الذي هو أعلم الخلق بالله، ومن تعليمه لصحابته أنه كان إذا كان في السفر وعلَوْا نَشَزاً أي

فلذلك قلتم: لا حد له، وقد أكذبكم الله تعالى، فسمى نفسه: أكبر الأشياء، وأعظم الأشياء، وخلاق الأشياء. قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]. وقال ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. فهو سمى نفسه: أكبر الأشياء، وأعظم الأشياء، وخلاق الأشياء، وله حد، وهو يعلمه لا غيره.

عن ابن المبارك، أنه سئل: بم نعرف ربنا؟ قال: «بأنه فوق العرش، فوق السماء السابعة على العرش، بائن من خلقه». قال: قلت: بحد؟ قال: «فبأي شيء؟»[١].

مرتفعاً من الأرض يكبرون، الله أكبر الله أكبر، يعني أن الله أكبر من كل كبير، وإذا هبطوا في منخفض صاروا يسبحون، سبحان الله، ومعنى ذلك أنه ينزه ويقدس أن يكون في السفل، فهو في العلو، ولهذا أمرنا رسولنا ﷺ أن نقول في سجودنا سبحان ربي الأعلى، وفي الركوع أن نقول: سبحان ربي العظيم، فالأعلى أن يكون في العلو تعالى وتقدس. فكل لفظ يأتي عن رسول الله ﷺ أو يأتي في كتاب الله فإنه يبطل زعم هؤلاء المعطلة.

كلمة **«الحد»** هذه جاء نفيها وإثباتها، وسيأتي باب مستقل في هذا، باب الحد، سنذكره فيما بعد إن شاء الله، ولكن قبل أن ندخل فيه نقول: مقصوده بالحد كما قال: أنه بائن من خلقه، يعني أنه ليس مختلطاً بالخلق، ومقصود الذي يقول: إنه ليس له حد، أنه ليس له حد يعلمه الخلق، فالله جل وعلا كبير عظيم، لا يحد ولا يحاط به، فلا يكون في ذلك خلاف أو تضارب.

قول ابن المبارك: «فبأي شيء» المعروف أنه قال: بحد، وهنا

---

(١) تقدم ذكره.

قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ: والحجة لقول ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزُّمَر: ٧٥]. فلماذا يحفون حول العرش إلا لأن الله ﷻ فوقه، ولو كان في كل مكان لحفوا بالأمكنة كلها، لا بالعرش دونها، ففي هذا بيان بيّن للحد، وأن الله فوق العرش، والملائكة حوله حافون يسبحونه ويقدسونه، ويحمل عرشَه بعضُهم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ

يقول: «فبأي شيء»، كأنه يقول: لا بد من الحد، يعني: وبأي شيء يكون بائنا؟ لا بد أن يكون بحد، ومعنى ذلك أنه جل وعلا بائن من خلقه أي: أنه ليس مختلطاً بخلقه، فهو تعالى وتقدس فوق العرش، هذا واضح.

ولما بلغ الإمام أحمد هذا القول، قال: «وهو كذلك عندنا»[1] فمعنى ذلك أن هذا هو قول الأئمة الذين يعرفون ربهم، ويفهمون كلامه وكلام رسول الله ﷺ، خلاف هؤلاء، وهؤلاء الغالب أنهم عجم، ولهذا كانوا يرمون بالعجمة.

قوله: «**حافين**» يعني: أنهم يكونون على حافَتِهِ أو حوله، هذا معناه، ثم العرش أخبرنا رسول الله ﷺ أنه سقف المخلوقات، وأن الجنة في السماء السابعة، والسماء السابعة هي أكبر السماوات، والله جل وعلا أخبر أن عرضها ـ أي الجنة ـ كعرض السماء والأرض، فهي أوسع من السماء والأرض، لأنها فوق السماء السابعة، فلهذا كانت أوسعَ وأكبرَ، وأخبر أن فوقها بحراً، والبحر فوقه العرش، والمسافة طويلة جداً بينها وبين عرش الرحمن جل وعلا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ويحمل عرشَه بعضُهم**» يعني أن العرش له حملة، وحول

---

(١) تقدم تخريجه.

ﭐﻟۡﻌَﺮۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [غافر: ٧].

قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ: فسمعت محتجاً، يحتج عنهم في إنكارهم الحد والنزول، وفي قولهم: هو في كل مكان، بحديث: «أربعة أملاك الْتَقَوْا: أحدهم جاء من المشرق، والآخر من المغرب، والثالث من السماء، والرابع من الأرض. فقالوا أربعتهم: جئنا من عند الله فقلت: إن أفلس الناس من الحديث وأفقرهم فيه الذي لا يجد من الحديث ما يدفع به تلك الأحاديث الصحيحة المشهورة في تلك الأبواب إلا هذا الحديث، وهو أيضاً من الحديث أفلس، لأن هذا الحديث لو صح كان عليه لا له، فالحمد لله إذ ألجأتهم الضرورة إلى هذا وما أشبهه، لأنهم لو وجدوا حديثاً منصوصاً في دعواهم لاحتجوا به لا بهذا، ولكن حين أيسوا من ذلك وأعياهم طلبه تعلقوا بهذا الحديث المشتبه على جهال الناس ليروجوا بسببه عليهم أغلوطة، وسنبين لهم ما اشتبه عليهم من هذا الحديث إن شاء الله، حتى يعلموا أنه عليهم لا لهم.

العرش ملائكة يسبحون ربهم، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا، وهذا جاء كثيراً حتى في دعوة الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

فهذا مقصود الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ، أن هذا بيّن واضح، حيث ذكر أن العرش له حملة وحوله ملائكة يحفون به؛ عبادة لله جل وعلا.

حديث: «أربعة أملاك التقوا» هذا حديث باطل، والموضوع الباطل الذي لا سند له، لا يجوز أن نشتغل فيه، ولكن خوفاً من أن يلتبس على بعض الجهلة كما قال، يتكلم فيه، وهذه الحجة التي احتجوا بها، نظير الحجة التي احتج بها الجويني ـ عفا الله عنا وعنه ـ لأصحابه وتلامذته،

. . . .

لأنه احتج بشيء عجيب على أن الله في كل مكان، وذلك أنه أتاه أحد أصدقائه أو زملائه، فلم يجد ما يقدمه له من الهدايا، فقال لطلابه: أنا أعلم حجة تدل على أن الله في كل مكان، ولكن لن أخبركم بها حتى تأتوني بشيء أقدمه لصديقنا هذا الذي جاء إلينا، ففرحوا وجاؤوا بما يريد، وطلبوا الحديث، فقال: إن الرسول ﷺ يقول: «لا تفضلوني على يونس بن متى»[1] ويونس بن متى التقمه الحوت، فصار في بطن الحوت في قاع البحر، والرسول ﷺ عرج به إلى السماء السابعة فصار فوق السماء السابعة عند سدرة المنتهى.

فقوله: «لا تفضلوني» معناه أنني ويونس بالنسبة لله سواء، هذا في قاع البحر، وذاك عند سدرة المنتهى.

مع أن هذا الحديث ما يعرف بهذا اللفظ، وإنما المعروف قوله ﷺ: «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»[2] يعني قد يتجرأ متجرئ ويقول: يونس ذهب مغاضباً فالتقمه الحوت، وأنا لم أقع في شيء من ذلك.

وأما هذا اللفظ الذي ذكره فهو لفظ منكر، بل غير معروف، بل لا وجود له، ومع ذلك فهذا استدلال من أعجب ما يكون، كاستدلال هؤلاء بأنه في كل مكان، ثم لو قدر أن قوله: «لا تفضلوني» جاء في حديث، فإننا نقول: لا يدل على مراده وقوله، والعجب أن يتعلق بمثل هذا، ويترك قول الله جل وعلا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ح (٤٨٠٥).

(٢) قال ابن تيمية عن هذا الحديث: كذب. بيان تلبيس الجهمية (٥/ ١٠٠)، وقال كما في الفتاوى (٢/ ٢٢٤): باطل. اهـ. وقال ابن القيم: مكذوب موضوع. اهـ. الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٣٣).

قلنا: هذا الحديث لو صح لكان معناه مفهوماً معقولاً، لا لَبْس له، أنهم جاؤوا كلهم من عند الله كما قالوا، لأن الله تعالى على عرشه، فوق سماواته، وسماواته فوق أرضه كالقبة، وكما وصف رسول الله ﷺ، فهو ينزل ملائكة من عنده بالمشرق، وملائكة بالمغرب، وملائكة إلى تخوم الأرض، للأمر من أموره، ولرحمته، ولعذابه، ولما يشاء من أموره. فلو أنزل أحد هؤلاء الأربعة بالمشرق، والثاني بالمغرب، والثالث أنزله من السماء إلى تخوم الأرض للأمر من أموره، ثم عرجوا منها، والتقوا جميعاً في ملتقىً من الأرض مع رابع، نزل من ملتقاهم من السماء، فسُئلوا جميعاً من أين جاؤوا، فقالوا جميعاً: جئنا من عند الله، لكان المعنى فيه صحيحاً على مذهبنا، لا على مذهبكم، لأن كلًّا بعثهم الله تعالى من السماء، وكلًّا نزلوا من عنده في مواطن مختلفة.

ولو نزل مائة ألف ملك في مائة ألف مكان من الأرض لجاؤوا من عند الله، وإنما قيل: من عند الله، لأن الله تبارك وتعالى فوق السماء، والملائكة في السماوات، وبعضهم حافّون بعرشه، فهم أقرب إلى عرش الرحمن من أهل الأرض.

ومما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، ففي هذه الآية بيان لتحقيق ما ادعينا للحد، فإنه فوق العرش بائن من خلقه،

ونظائرها من الأمور الواضحة.

وهذا يدل على اتباع الهوى، والتعصب للمذهب، بحيث يتعلق بالأمور التي هي أضعف من خيط العنكبوت، ويترك الأمور الواضحة الجلية.

ولإبطال دعوى الذين ادّعوا أن الله في كل مكان، لأنه لو كان في كل مكان ما كان لخصوص الملائكة أنهم ﴿عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] معنى، بل كانت الملائكة والجن والإنس وسائر الخلق كلهم عند ربك في دعواهم بمنزلة واحدة، إذ لو كان في كل مكان، إذاً لذهب معنى قوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾؛ لأن أكثر أهل الأرض من الجن والإنس من يستكبر عن عبادته، ولا يسجد له، ولكن خص الله بهذه الصفة الملائكة الذين هم عنده في السماوات، فأوطئوا بهذه الآية، وأقرعوا بها رؤوسهم عند دعواهم: إن الله في كل مكان، فإنها آخذة بحلوقهم، لا مفر لهم منها إلا بجحود، فإن أقروا أنهم من الملائكة الذين عنده دون من سواهم، فقد أصابوا ما أراد الله، ونقضوا قولهم: إن الله في كل مكان، وأقروا له بالحد، وأنه فوق السماوات، والملائكة عنده: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

وإن لم يقروا به كانوا بذلك جاحدين لتنزيل الله تعالى، ويلزمهم في دعواهم أن يشهدوا لجميع عبدة الأوثان، وعبدة الشمس والقمر، والجن والإنس، وكفرة أهل الكتابين والمجوس أنهم كلهم ﴿عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾؛ لأن الله تعالى قد أخبر أن الذين عنده كذلك صفاتهم، فإن يكن الخلق كلهم في دعواهم عنده وهو عندهم، ....

قوله: «**في دعواهم**» يعني في دعوى هؤلاء، يقول: إن دعواهم لا تعود على الخلق، وإنما تعود على المتقدمين، يعني هؤلاء الذين يدعون.

قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ هذا عام لهم، الذين يحفون بالعرش، ويحملون العرش،

وكل يسبح له، ويسجد له، ولا يستكبر عن عبادته، ومن قال هذا فقد كفر بكتاب الله، وجحد بآيات الله، لأن الله تعالى وصف الملائكة الذين عنده بهذه الصفة، ووصف كفار الجن والإنس، وعبدة الأوثان بالعتو والاستكبار عن عبادته، والنفور عن طاعته. قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾. فافهموا هذه الآية، فإنها قاطعة لحججهم.

وغيرهم ممن هو عند الملائكة، ولو كان كما تقولون لم يكن هناك فرق بين هؤلاء الذين يحفون بالعرش وهم عند ربك، وبين غيرهم من الخلق، فلزم من ذلك أن يكون الجن والإنس كلهم يسجدون ولا يستكبرون، لأنهم كلهم عند ربك، يشملهم قوله: «**عند ربك**»، هذا قولهم، وهذا يكذبه كتاب الله جل وعلا، أن بعض الجن والإنس يستكبرون عن عبادته،

هذا وجه استدلاله بذلك، وهو واضح.





باب الرؤية

قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ: قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطففين: ١٥-١٧].

ففي هذا دليل أن الكفار كلهم محجوبون عن النظر إلى الرحمن عز وعلا، وأن أهل الجنة غير محجوبين عنه.

قوله: «**باب الرؤية**» يعني رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، ثم الرؤية تكون في الموقف، كما قال العلماء في عَرَصات القيامة، والعرصات هي المواقف، أي: أنها تكون في عدد من مواقف القيامة، وتكون في الجنة، أما الكفار فأخبر جل وعلا أنهم محجوبون عن الله، ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾، ثم منطوق هذه الآية يعني حجب الكفار، ومفهومها: أن المؤمنين غير محجوبين عن ربهم جل وعلا، كما استدل بها الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: «لما حجب أهل الشقاء دل على أن أهل التقى يرونه»[1]. وهذا دليل واضح. وقد جاءت آيات أخر، كقوله جل وعلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٥١٨)، وابن بطة في الإبانة (٧/ ٦٠).

قال رسول الله ﷺ: «أيما والد جحد ولده؛ احتجب الله منه، وفضحه على رءوس الأولين والآخرين».

فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦] وفسر رسول الله ﷺ: (الحسنى) بأنها الجنة، و(الزيادة) بالنظر إلى وجه الله الكريم جل وعلا[(١)].

وقوله في الآية الأخرى: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣٥]، لما ذكر أهل الجنة، وأنه أزلفها لهم، قال: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ المزيد على الجنة ما يكون إلا النظر إلى وجه الله جل وعلا، في آيات أخر.

وأما الأحاديث فهي واضحة جداً، حتى قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو أن أحداً ممن عنده من الفصاحة والبلاغة تكلف أن يأتي بكلام أوضح مما قاله الرسول ﷺ في ذلك وأبين ما استطاع»[(٢)] لأنه قال: «هل ترون القمر ليلة البدر ليس بينكم وبينه سحاب ولا قتر؟». قالوا: نعم، قال: «وهل تضامون في رؤيته؟». قالوا: لا، قال: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر، ليس بينكم وبينه سحاب ولا قتر»[(٣)].

وفي حديث آخر: «إنكم ترونه كما ترون الشمس في الضحى صحواً ليس بينكم وبينها سحاب ولا قتر»[(٤)]، وقال: «هل تضامون في رؤية القمر، في حديث: «هل ترون القمر ليلة البدر»، وليلة البدر هي ليلة أربع عشرة، وهي أوضح ما يكون القمر، فالأحاديث كثيرة.

وهذا المعنى مرةً قاله لهم مبتدئاً، ومرةً سألوه، قالوا: «هل نرى ربنا؟» فأجابهم ببعض هذه الأجوبة، ثم إن هذه الأحاديث رواها عدد

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) انظر: بغية المرتاد (ص ٤٧٦) بنحوه.
(٣) متفق عليه وسيأتي تخريجه قريباً.
(٤) متفق عليه أخرجه البخاري (٨٠٦، ٤٥٨١) وغيرها، ومسلم ح (٢٩٩).

قال أبو سعيد: ففي هذا الحديث دليل أنه إذا احتجب عن بعضهم لم يحتجب من بعض، وقال رسول الله ﷺ: «سترون ربكم ﷻ كما ترون الشمس والقمر». فلم يدع لمتأول فيه مقالاً.

عن جرير، قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ، فرفع رأسه إلى السماء ليلة البدر، فنظر إلى القمر، فقال: «أما إنكم سترون ربكم عيانا، كما ترون هذا، لا تُضامونَ في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»[١].

كبير من الصحابة، وجاءت الروايات فيها متواترة[٢]، فإذا كانت مثل هذه تنكر فما الذي يثبت عند هؤلاء؟ فهذا دليل على أنهم لا يريدون الحق، وإنما يريدون الباطل، وهم إذا اتهموا النصوص بأنها تدل على التشبيه والتجسيم فالواقع أن اتهامهم يتجه إلى من؟ يتجه إلى الله وإلى رسوله ﷺ، أما المؤمنون الذين يؤمنون بكلام الله وبكلام رسوله فهم متبعون لا مبتدعون، لم يأتوا بشيء من عند أنفسهم.

قوله: **«كما ترون الشمس والقمر»** هل هناك ما هو أوضح من الشمس والقمر؟ لا يوجد ما هو أوضح من ذلك، وهذا ليس تشبيهاً، وإنما هو تشبيه الرؤية بالرؤية في الوضوح والجلاء، أي: رؤيته تكون واضحة جداً، وليس تشبيه المرئي بالمرئي، فيجب.

قوله: **«عِياناً»** هنا ينفي كل احتمال، يعني ترونه بأعينكم وتشاهدونه، فصلوات الله وسلامه على من أعطي البيانَ البليغ.

يقول العلماء: إن هذا إشارة إلى أن من حافظ على هاتين الصلاتين

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، ح (٧٤٣٥).

(٢) انظر: فتح المغيث (٤/ ٢٢)، ونظم المتناثر (ص ٢٣٨).

قال علي بن المديني: «هي عندنا صلاة العصر، وصلاة الصبح، إن شاء الله تعالى».

عن صهيب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، ودخل أهلُ النارِ النارَ، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنْجِزَكُموه». قال: «فيقال: ما هو؟ ألم يُبيضْ وجوهَنا، ويثقِّل موازينَنا، وأدخلنا الجنة، وأجارنا من النار؟». قال: «فيكشف الحجاب، فيتجلى لهم تبارك وتعالى». قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما أعطاهم شيئاً هو أحبَّ إليهم ولا أقر لأعينهم من النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى»[١].

عن أبي رَزين العقيلي، قال: قلت: يا رسول الله، أكُلُّنا يرى ربه يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا رزين، أليس كلكم يرى القمر مُخْلِيا به؟». قلت: بلى! قال: «فالله أعظم»[٢].

فإنه يجزى بالنظر في هذين الوقتين، والمقصود بالصلاتين صلاة العصر، وصلاة الفجر، صلاة قبل غروب الشمس هي صلاة العصر، وصلاة قبل طلوعها هي صلاة الفجر.

قوله ﷺ: «**أليس كلكم يرى القمر مخلياً به..**» هذا تقريب للفهم، الله أكبر وأعظم من القمر الذي يراه الناس كلهم خالين به، لا يحتاجنا إلى أن يجتمعوا ويساعد بعضهم بعضاً في رؤيته، وأبو رَزينٍ رضي الله عنه كان عنده

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، ح (١٨١).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في الرؤية (٤٧٣١)، وابن ماجه، أبواب السنة، باب فيما أنكرت الجهمية، ح (١٨٠).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال الناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تُضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟». قالوا: لا، قال: «فهل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟». قالوا: لا، قال: «فكذلك ترون ربكم يوم القيامة، إن الله يجمع الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبدُ الشمسَ الشمس، ومن كان يعبد القمرَ القمر، ومن كان يعبد الطواغيتَ الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها

أسئلة عجيبة، وعنده جرأة على سؤال الرسول ﷺ، وقد ذكر له عبد الله بن أحمد في كتاب السنة حديثاً طويلاً فيه أشياء كثيرة سأل عنها الرسول ﷺ، ومنها: أنه قال لما ذكر الرؤية: إن الله شخص ونحن كثيرون، فكيف نرى فما آية ذلك؟ قال: يا رسول الله! كيف ونحن ملء الأرض وهو شخص واحد ينظر إلينا وننظر إليه؟ فذكر لهم مثل هذا، وسأله عن الموتى، وسأله عن أشياء متعددة[1]، ومثل هذا الذي كان يقول فيه أنس بن مالك رضي الله عنه: كنا نفرح بالرجل العاقل من البادية، يأتي يسأل رسول الله ﷺ ونحن نسمع[2]؛ لأنهم ما كانوا يجترئون أن يسألوه عن الأشياء التي قد لا تكون لهم ضرورة إليها؛ لأنهم نهوا عن السؤال، والأعراب عندهم جرأة كما هو معروف، وهو ﷺ من أتاه غريباً يقول له: سل ما تريد.

قوله: **«ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت»** هذا الحديث فيه ذكر

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٨٥)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢١١)، وأخرجه مختصراً ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٣١)، والدارقطني في الرؤية (ص ٢٨٧)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٤٠): رواه عبد الله والطبراني بنحوه، وأحد طريقي عبد الله إسنادها متصل ورجالها ثقات. اهـ.

(٢) تقدم تخريجه.

منافقوها». وساق الحديث إلى قوله: «هذا مكانُنا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه». قال عطاء بن يزيد في آخر الحديث: قال أبو سعيد يعني الخدري، وهو مع أبي هريرة حين حدث بهذا الحديث، لا يردُّ عليه شيئاً من حديثه، حتى إذا قال: «ذلك له ومثله معه». قال أبو سعيد: أشهدُ لَحَفِظْتُه من رسول الله ﷺ: «ذلك له وعشرة أمثاله»[(١)].

الطواغيت، فمن كان يعبد الطواغيت يتبعها، والطواغيت المقصود بها المعبودات من دون الله، فكل من عبد من دون الله فهو طاغوت، وفيه ذكر الصورة: «فيأتيهم في صورة لا يعرفون»، وفي رواية مسلم: «فيأتيهم في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة»[(٢)]، ففيه إثبات الصورة لله جل وعلا، وهو أمر واضح، ويجب أن يبقى كما قال الرسول ﷺ، وكل من هو قائم بنفسه له صورة ولا بد، وصورة الله جل وعلا تليق بعظمته، فهي خاصة به.

ولكن قد يشكل على بعض الناس أن الرسول ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته»[(٣)] فالمقصود بقوله على صورته هنا الوجه، لأنه جاء في حديث ابن عمر: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته» يعني اجتنب ضرب الوجه، فإنه لا يجوز، حتى وإن كان المقاتَل كافراً، ولو كان المقصود بالصورة الجملة لمنع من الضرب في كل البدن، وكان الرأس والظهر والرجل وغيرها كلها.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل السجود، ح (٨٠٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، ح (١٨٢).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ح (١٨٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، ح (٦٢٢٧) ومسلم، كتاب البر والصلة، ح (٢٦١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في الشمس في الظهيرة صحواً ليس فيها سحاب؟». قال: قلنا: لا، قال: قال رسول الله ﷺ: «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب؟». قال: فقلنا: لا، فقال رسول الله ﷺ: «فما تضارون في رؤيته يوم القيامة إلا كهيئة ما تضارون في رؤية أحدهما»[(١)].

عن عمارة القرشي، أنه كان عند عمر بن عبد العزيز، فأتاه أبو بردة بن أبي موسى الأشعري ﷺ، فقضى له حوائجه، فلما خرج رجع، فقال عمر: أذكر الشيخ؟ فقال له عمر: ما ردك؟ ألم تقض حوائجك؟ قال: بلى، ولكن ذكرت حديثاً حدثناه أبو موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «يجمع الله الأمم يوم القيامة في صعيد واحد، فإذا بدا له أن يصدع بين خلقه مثل لكل قوم ما كانوا

كلمة «**تضامون**» جاء ضبطها بتخفيف الميم، أي: لا يلحقكم ضرر ولا ضيم في رؤيته، كما يلحق الذي يرى الشيء الخفي؛ لأن الناس في العادة يجتمعون يساعد بعضهم بعضاً على رؤية الشيء الخفي، فبعضهم لا يراه، وذلك مثل رؤية الهلال أول ما يستهل.

وفي ضبط آخر: بتشديد الميم «تضامّون» أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض للمساعدة في الرؤية.

فكل هذه الألفاظ تدل على أن الله ﷻ يُرى رؤيةً واضحةً جليلة بارزة ليس فيها أي إشكال.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، ح (١٨٣).

يعبدون، فيدرجونهم حتى يقحموهم النار، ثم يأتينا ربنا، ونحن في مكان رفيع، فيقول: من أنتم؟ فنقول: نحن المؤمنون. فيقول: ما تنتظرون؟ فنقول: ننتظر ربنا، فيقول: من أين تعلمون أنه ربكم؟ فيقولون: حدثنا الرسل، أو جاءتنا، أو ما أشبه معناه، فيقول: هل تعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: نعم، فيقول: كيف تعرفونه ولم تروه؟ فيقولون: نعم، إنه لا عدل له، فيتجلى لنا ضاحكاً، ثم يقول تبارك وتعالى: أبشروا معشر المسلمين، فإنه ليس منكم أحد إلا قد جعلت مكانه في النار يهودياً، أو نصرانياً». فقال عمر لأبي بردة: والله لقد سمعتَ أبا موسى يحدث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ؟ قال: نعم[1].

قوله: «**والله لقد سمعت أبا موسى يحدث بهذا الحديث**» يعني أنه استحلفه وطلب منه أن يحلف.

قوله: «**يجمع الله الأمم يوم القيامة في صعيد واحد**» هذا في المحشر، في الموقف، فالرؤية هذه تكون في الموقف.

وقوله: «**فإذا بدا له**» هذه الكلمة قد تشكل على بعض الناس، وقد جاء في صحيح البخاري في حديث الثلاثة: الأبرص والأقرع والأعمى، قال في رواية للبخاري: «بدا لله أن يبتليهم»[2]، ثم ذكرهم، والرواية الأخرى: «أراد الله»[3] فمعنى بدا هو معنى أراد، فهو تعبير من الراوي، وهنا نفس الشيء، فلا يجوز أن يشك كما يشك بعض طلبة العلم بهذا،

(١) أخرجه أحمد (٣٢/ ٤٢٢ ح ١٩٦٥٤)، والآجري (ص ٢٦٣)، وابن خزيمة (٢٣٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح (٣٤٦٤).

(٣) هذا لفظ مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، ح (٢٩٦٤).

. . . .

أو كما يقول بعضهم: إن في البخاري أشياء تخالف العقيدة، وجب الحذر منها، إلخ... والرسول ﷺ أحياناً يذكر اللفظ ثم يذكر مرادفه، أو يذكر معناه، والذين يفهمونه يفهمون اللغة العربية، ولا يأتي في كلامهم ما فيه تنقص لله جل وعلا، كما يدعي اليهود أن الله يبدو له الشيء بعد أن يكون خفياً تعالى الله وتقدس، ننبه على هذا حتى لا يشكل على طالب العلم ما قاله بعض العلماء في هذا الحديث الذي أشرت إليه وفي مثل هذا، قال: «فإذا بدا» هنا معنى بدا ظهر، وليس بدا من البداء من كونه يبدو له أن يأتي، أو لا يأتي، تعالى الله وتقدس.

قوله: **«جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً»** هذا جاء معناه أيضاً في أحاديث أخرى، أن كل عبد من الناس رجل أو امرأة لها منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا كان من أهل الجنة، قيل: منزلك الذي في النار قد أخذه كافر من الكفار[1]، لا يلزم أنه فقط يهودي أو نصراني، قد يكون يهودياً أو نصرانياً أو ملحداً، أو أي كافر، ويقابل هذا أن أهل الجنة يرثون أهل النار، يرثون أماكنهم التي لهم في الجنة[2]، وهذا من معنى قوله جل وعلا في الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، فقد جاء في عدد من الآيات ذكر أن أهل النار خسروا أنفسهم وأهليهم، من أهلوهم الذين خسروهم؟ هم أهلوهم في الدنيا، لأن أهليهم في الدنيا كل استقل

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب التوبة، ح (٢٧٦٧) من حديث أبي موسى ﷺ ولفظه: «لَا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا أَدْخَلَ اللهُ مَكَانَهُ النَّارَ، يَهُودِيّاً، أَوْ نَصْرَانِيّاً».

(٢) أخرجه ابن ماجه، أبواب الزهد، باب صفة الجنة، ح (٤٣٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥٨١) من حديث أبي هريرة ﷺ ولفظه: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ»** قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٦٦): هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين. اهـ. وصححه ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٤٢).

عن أبي بكر الصديق ﷺ، في حديث الشفاعة قال: قال رسول الله ﷺ... وساق إسحاق الحديث إلى قوله: «يخر ساجداً قدر جمعة، فيقول الله تبارك وتعالى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع»، فيرفع رأسه، فإذا نظر إلى ربه خَرَّ ساجداً قدر جمعة أخرى[(١)].

عن عبادة بن الصامت ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»[(٢)].

عن علي بن الحسين، أن رجلاً من أهل العلم أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «تمد الأرض يوم القيامة مَدَّ الأديم، فأكون أول من أدعى، فأخِرُّ ساجداً، حتى يأذن الله لي برفع رأسي، فأرفع، ثم أقوم، وجبريل عن يمين الرحمن، لم ير الرحمن تبارك اسمه قبل ذلك»[(٣)].

بعمله، والموت فرق بينهم، فلا صلة لأحد بأحد، والمرء يتبرأ من أبيه وأمه وأخيه وزوجه في الموقف، حتى الصلة التي بين الرجل وبين زوجته تنقطع بالموت، أما كونها تكون زوجة له فليس بخياره، هي تخير إن كانت تخير، وإلا فلا تلزم هي، لأن الإنسان يجزى بعمله في الآخرة، والصلات التي في الدنيا انقطعت. فالمقصود أن أهليهم الذين خسروهم هم أهلوهم الذين في الجنة، خسروهم وورثهم أهل الجنة، فهذا معنى قوله: «إنه جعل مكانك يهودياً أو نصرانياً».

قوله: **«لن تروا ربكم حتى تموتوا»** هذا النفي له مفهوم، وهو أنكم إذا متم، فسترونه بعد الموت، هذا هو المقصود.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣٩٣) مطولاً.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٥/ ١٤٦)، والحاكم (٤/ ٥٧١).

عن علي بن زيد، عن أبي نَضْرةَ، قال: خَطَبَنا ابنُ عباس على هذا المنبر بالبصرة، فقال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا له دعوة تَعَجَّلها في الدنيا، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، وأنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وآدم ومن دونه تحت لوائي ولا فخر». قال رسول الله ﷺ: «فيطول ذلك اليوم على الناس، فيقول بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر، فليشفع لنا إلى ربنا». وساق الحديث إلى قوله: «فآتي باب الجنة فآخذ بحلْقة الباب، فأقرع الباب، فيقال: من أنت؟ فأقول: أنا محمد، فيفتح الباب، فآتي ربي وهو على كرسيه، أو على سريره، فيتجلى لي ربي، فأخر له ساجداً»، وساق أبو سلمة الحديث بطوله إلى آخره[١].

عن أبي الزبير، قال: سألت جابراً رضي الله عنه عن الورود، فأخبرني أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس، فتُدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد، الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك، فيقول: ما تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك، فيتبعونه»[٢].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل وفي يده كهيئة المرآة البيضاء، وفيها نكتة سوداء، فقلت: ما هذه يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة، بعث بها إليك ربك، تكون عيداً لك ولأمتك من بعدك قلت: وما لنا فيها؟ قال: لكم فيها خير كثير،

معنى «**تجلى**» يعني: ظهر ورآه بائناً واضحاً.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٤٢٧) ح (٢٩٦٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، ح (١٩١).

أنتم الآخرون السابقون يوم القيامة، وفيها ساعة لا يوافقها عبد يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، قلت: ما هذه النكتة السوداء؟ قال: هذه الساعة، تكون يوم الجمعة، وهو سيد الأيام، ونحن نسميه عندنا يوم المزيد، قلت: وما المزيد يا جبريل؟ قال: ذلك بأن ربك اتخذ في الجنة وادياً أفيَحَ من مسكٍ أبيضَ، فإذا كان يوم الجمعة من أيام الآخرة هبط الرب تبارك وتعالى عن عرشه إلى كرسيه، وحف الكرسي بمنابر من نور، فيجلس عليها النبيون، وحف المنابر بكراسي من ذهب، فيجلس عليها الصديقون والشهداء، ويهبط أهل الغرف من غرفهم، فيجلسون على كثبان المسك، لا يرون لأهل المنابر والكراسي عليهم فضلاً في المجلس، ثم يتبدى لهم ذو الجلال والإكرام، فيقول: سلوني، فيقولون بأجمعهم: نسألك الرضا، فيُشهدهم على الرضا، ثم يسألونه حتى تنتهي نهية كل عبد منهم، ثم يسعى عليهم بما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم يرتفع الرب عن كرسيه إلى عرشه، ويرتفع أهل الغرف إلى غرفهم، وهي غرفة من لؤلؤة بيضاء، أو زبرجدة خضراء، أو ياقوتة حمراء، ليس فيها قصم، ولا وصم، مُطَّرِدة فيها أنهارها، متدلِّية فيها ثمارها، فيها أزواجها وخدمها ومساكنها، فليس أهل الجنة إلى شيء أشوقَ منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا قرباً من الله ورضوانا»[١].

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قام للناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال، فقال: «لا أدري أتدركونه، ما

....

(١) تقدم.

من نبي إلا وقد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكني أقول لكم قولا لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور».

قال الزهري: وأخبرني عمر بن ثابت الأنصاري أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال يوم حذَّرَ الناس: «إنه مكتوب بين عينيه: كافر، يقرأه من كره عمله». أو: «يقرأه كل مؤمن». وقال: «تعلمُنَّ أنه لن يرى أحدكم ربه حتى يموت»[1].

عن عطاء بن السائب، عن أبيه، أن عمار بن ياسر رضي الله عنه، صلى بأصحابه صلاة أوجز فيها، فقيل له: خففتَ! فقال: أما إني قد دعوت فيها بدعاء سمعته من رسول الله ﷺ، ومضى، فتبعه رجل فسأله عن الدعاء، ثم رجع إلى القوم فأخبرهم، فقال: «اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمتَ الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفَد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، ....

قوله: «**تعلمنّ أنه لن يرى..**» يعني اعلموا أنه لن يرى أحدكم ربه حتى يموت.

قوله: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك**» هذا هو الشاهد في الحديث، سأل أن ينظر إلى وجه الله، وبين أنه نظر إليه لأن له لذة، وهذا كما سبق في الحديث من حديث صهيب رضي الله عنه، أن النظر إلى وجه الله جل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، ح (٧١٢٠)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، ح (٢٩٣١).

وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[١].

عن ابن عمر، قال: «ألا أخبرك بأسفل أهل الجنة؟». وساق أحمدُ الحديثَ بطوله قال: «حتى إذا بلغ النعيمُ منهم كلَّ مبلغ، وظنوا أنْ لا نعيم أفضل منه، تجلى لهم الرب، فنظروا إلى وجه الرحمن».

قال أحمد: قلت لأبي شهاب: حديث خالد بن دينار هذا في ذكر الجنة رفعه؟ قال: نعم[٢].

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. قال: «النظر إلى وجه الله عز وجل»[٣].

وعلا فوق نعيم الجنة، أي أنه أعظم منه[٤].

يقول: **«فنظروا إلى وجه الرحمن»**، هذا فيه دليل أيضاً للرؤية، ودل على أن لله وجهاً جل وعلا، وجهه الكريم، والنظر إليه أكبر النعيم، ففيه إثبات النظر إلى الله جل وعلا، وأن الله جل وعلا ينعم به على عباده المؤمنين في الجنة، وأمور الآخرة وما يتعلق بالله كلها أمور غيبية، يجب أن نؤمن بها على وفق النص الذي جاء عن المصطفى ﷺ، وما في كتاب الله جل وعلا، ويجب أن نفهم ذلك على ما يليق بعظمة الله جل وعلا.

قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: سبق أن هذا مرفوع إلى النبي ﷺ، وهو من التفسير الذي لا يجوز أن يطلب غيره، لأنه ثبت في صحيح مسلم

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر، ح (١٣٠٥)، وأحمد في السنة (ص ٥٠)، والحاكم (١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥) وصححه.

(٢) أخرجه عبد بن حميد (١/ ٢٦٨)، والدارقطني في الرؤية (٢٧٥).

(٣) أخرجه ابن جرير (١١/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

(٤) تقدم.

عن حذيفة رضي الله عنه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: «النظر إلى وجه الله عز وجل»(١).

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة، والزيادة: «النظر إلى وجه الله عز وجل، لا يصيبهم بعد النظر إليه قتر ولا ذلة»(٢).

عن الضحاك: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «النظر إلى وجه الله عز وجل»(٣).

عن عامر بن سعد، في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الزيادة: النظر إلى وجه ربهم عز وجل»(٤).

عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: «الزيادة: النظر إلى وجه الرب»(٥).

عن أبي مرية، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: رآهم أبو موسى وهم ينظرون إلى الهلال، فقال: «كيف ربكم إذا رأيتموه جهرة»(٦).

كما سبق في حديث صهيب رضي الله عنه(٧).

قوله: «جهرة» مثل قوله في الحديث الآخر: «كفاحاً»، ومثل «يتجلى لهم»، يعني أنهم يرونه ليس بينهم وبينه حائل يحول بينهم، فيرونه أيضاً بتمكن ووضوح.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم (٤٧٣).
(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد (ص ٤٥)، وابن جرير (١١/١٠٥)، وابن خزيمة (ص ١٨١ _ ١٨٢).
(٣) عزاه السيوطي (٣/٣٠٦) إلى الدارقطني.
(٤) أخرجه ابن جرير (١١/١٠٥)، وابن خزيمة (ص ١٨٣).
(٥) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (ص ١٨٤).
(٦) أخرجه عبد الله بن أحمد (ص ٥٠، ١٥٣). (٧) تقدم.

عن عمار بن ياسر رضي الله عنه، أنه كان يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك، وشوقاً إلى لقائك»[١].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]. قال: «يتجلى لهم كل جمعة»[٢].

عن الضحاك، قال: «إن الملائكة إذا أخذوا بأصوات من تحميد وتقديس وثناء على الله عز وجل، فليس شيء أطربَ منه إلا النظر إلى الله.

عن يزيد النحوي، عن عكرمة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، قال: ينظرون إلى الله نظرا»[٣].

عن كعب، قال: ما نظر الله عز وجل إلى الجنة إلا قال: طِيبي لأهلك، فزادت طيباً على ما كانت، وما مر يوم كان لهم عيداً في الدنيا إلا يخرجون في مقداره في رياض الجنة، ويبرز لهم الرب ينظرون إليه، وتَسفِي عليهم الريح بالطيب والمسك، فلا يسألون ربهم شيئاً إلا أعطاهم، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفاً[٤].

عن إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة الأنصاري، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أمراء الأجناد: «أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله وطاعته والتمسك بأمره، والمعاهدة على ما حملك الله من دينه، واستحفظك من كتابه، فإن بتقوى الله نجا أولياؤه من

....

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (ص ١٢٦).
(٢) تقدم.
(٣) أخرجه ابن جرير (١٩٢/٢٩)، والآجري (ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧)، وعبد الله بن أحمد (ص ٥٣).
(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٧٩/٥).

سخطه، وبها تحقق لهم ولايته، وبها وافقوا أنبياءه، وبها نضرت وجوههم، ونظروا إلى خالقهم»[١].

قال أبو سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهذه الأحاديث كلها وأكثر منها قد رويت في الرؤية، على تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا، ولم يزل المسلمون قديماً وحديثاً يروونها ويؤمنون بها، لا يستنكرونها ولا ينكرونها، ومن أنكرها من أهل الزيغ نسبوه إلى الضلال، بل كان من أكبر رجائهم، وأجزل ثواب الله في أنفسهم، النظرُ إلى وجه خالقهم، حتى ما يعدلون به شيئاً من نعيم الجنة.

وقد كلمت بعض أولئك المعطلة، وحدثته ببعض هذه الأحاديث، وكان ممن يتزين بالحديث في الظاهر ويدعي معرفتها، فأنكر بعضها ورد رداً عنيفا:

قلت: قد صحت الآثار عن رسول الله ﷺ، فمن بعده من أهل العلم، وكتاب الله الناطق به، فإذا اجتمع الكتاب وقول الرسول وإجماع الأمة لم يبق لمتأول عندها تأول، إلا لمكابر أو جاحد. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]، ولم يقل للكفار: محجوبون إلا وإن المؤمنين لا يحجبون عنه، فإن كان المؤمنون عندكم محجوبين عن الله كالكفار، فأي توبيخ للكفار في هذه الآية إذا كانوا هم والمؤمنون جميعاً عن الله يومئذ محجوبين؟!

قوله جل وعلا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾، بالضاد أخت الصاد، من النضرة والبهاء والجمال، أي أنّ فيها نضرة النعيم واضحة وجلية، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ من النظر، أي أنها تنظر بأعينها إلى الله،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٧٨).

....

فجعل هذا كله في الوجوه، ومعلوم في لغة العرب أنه إذا أضيف النظر إلى الوجه فإنه لا يمكن أن يكون بغير البصر والنظر بالعين، فمحاولة دعوى أنه يكون لأمر آخر، كما حاول الزمخشري في تفسيره، قال: «ناظرة يعني منتظرة، منتظرة في نعيمها»(١). هذا مثل ما قال بعض العلماء: يشبه اللعب بكتاب الله، يعني أنه بعيد كل البعد عن التأويل، إذ الآية كما قال الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ، نص على رؤية الله جل وعلا في الجنة، وأما آية سورة المطففين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥]، فـ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ التنوين هنا عوض عن محذوف، وتقديره يوم القيامة، ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ يعني لا يرونه، فدل على أن حجبهم عن الله عذاب، ففي مفهوم هذا أن رؤيته وعدم الحجب نعيم.

وبين في الآية الأخرى التي في سورة يونس أن هذا النعيم فوق نعيم الجنة، فأعلى ما يكرم به أهل الجنة أن ينظروا إلى ربهم جل وعلا، وهل يكون النظر إليه إلا في مكان؟ ولهذا لما كانت النصوص كثيرة لإثبات الرؤية ما استطاع الأشاعرة أن يردوها، وقالوا: صحيح، الرؤية ثابتة، وقال لهم الذين يحاجونهم من المعتزلة ـ وهم ينكرون الرؤية ـ من أين يرى، قالوا: يرى لا في جهة، فضحكوا عليهم، إذ هذا مستحيل، أن يرى لا في جهة، لا يمكن أن يكون المرئي إلا في جهة، والجهات لا تخلو: إما يمين، أو شمال، أو تحت، أو فوق، ولا تمكن رؤية ربنا جل وعلا إلا من فوق، لأنه هو العلي الأعلى، والعلو ثبت له كله؛ علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، تعالى وتقدس.

فالعلو ينقسم إلى أقسام ثلاثة، وكلها ثابتة لربنا تعالى وتقدس، وهذا

---

(١) انظر: نفسير الزمخشري (٤/ ٦٦٢).

. . . .

من أظهر الأدلة، وإنكاره من أظهر العناد، والتكبر عن الحق، والمراوغة التي تدل على أنهم لا يريدون أن يقبلوا الحق الواضح، فما جزاء من يفعل ذلك؟ وما حكمه؟ أما الأحكام فالأحكام يجب أن تكون بالكتاب والسنة، ولا يجوز أن تكون بالآراء أو بالتخرص، أو ما تمليه على الإنسان ميوله، أو أن تحمله عليه عداوة أو محبة أو غير ذلك، بل يجب أن يكون الحكم بما حكم الله جل وعلا به.

فأولاً: نقول: هؤلاء الغالب أن الذي دعاهم إلى هذا الإنكار وهذه المراوغة أنهم يرون أن هذا تنزيه لله جل وعلا، ويرون أن إثبات ذلك يقتضي التشبيه، وإن كان هذا باطلاً عند أهل الحق، ومن أظهر الباطل، ولكن هكذا قام في نفوسهم، فلا يعتقد أنهم يريدون مخالفة الرسول ﷺ، ورد ما جاء به، ولهذا يؤولون الكلام، وإن كان التأويل في مثل هذا غير مستساغ أصلاً، لأنه ليس له وجه، لكنهم قام عندهم في نفوسهم أن الذي يُرى يكون جسماً، وأن الذي يقول: إن الله جسم فهو كافر، فخافوا من الوقوع في الكفر، فقالوا ما قالوا، هذا هو الغالب.

أما الكبار منهم والدعاة فهذا لا ينطلي عليهم، ولذا فلهم حكم آخر، وعلى كل حال ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] فالهداية بيد الله، وإن كانت الأمور واضحة، ولكن نقول: هؤلاء من المسلمين، دعاهم إلى هذا القول الباطل الذي خالفوا به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ الظنون والتلقيات التي تلقوها من أكابرهم وعلمائهم، وعاشوا عليها، ووثقوا بمن يعلمهم الثقة التامة، واستبعدوا أن يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، هذا في الجملة، ثم الواجب على العبد أن يتجرد عن الهوى، وعن تعظيم الآباء والمشايخ والمذاهب، وأن يطلب طاعة الرسول ﷺ واتباعه، هذا هو الواجب،

وأما قول الرسول ﷺ، فقوله: «لا تضامون في رؤيته، كما لا تضامون في رؤية الشمس والقمر في الصحو»[(١)]. ثم ما روينا عن هذه الجماعة من أصحاب محمد ﷺ والتابعين، فهل عندكم ما رد ذلك من كتاب أو سنة أو إجماع من الأمة؟ فاحتج بحديث أبي ذر عن النبي ﷺ: «نور، أنَّى أراه؟»[(٢)]. فقلت: هذا في الدنيا، وكلاهما قد قاله رسول الله ﷺ، وتفسيرهما بيِّن في الحديثين جميعاً.

فقالت عائشة: «من زعم أن محمدا رأى ربه ﷻ فقد أعظم على الله الفرية، وتلت: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣]».

وإذا قصر عن ذلك فهو ملوم، وعليه تبعات ذلك، وسوف يحاسبه الله جل وعلا، وكثير من الناس يقولون: جزاء من أنكر ذلك أن يحرم هذا النعيم العظيم أي رؤية الله في الآخرة، ولكن الحكم إلى الله، ليس هو إلى أحد، الحكم إلى الله، هو الذي يحكم بين عباده جل وعلا، أما الحكم في الدنيا فهو أن نقول: هؤلاء من المسلمين، ليسوا كفاراً، سواءٌ كانوا من المعتزلة، أو كانوا من الأشاعرة، لأنهم كما قالوا: إن الذي دعاهم إلى ذلك الخوف من الوقوع في الشرك والكفر، ولهذا يرمون من أثبت ذلك بأنه مشبه.

قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ﴾، وهم أيضاً استدلوا بهذه الآية على نفي الرؤية، فجعلوا نفي الإدراك عاماً في الرؤية، وهذا غير صحيح؛ لأن الإدراك غير الرؤية، ولهذا ذكر الله جل وعلا في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، لما خرج ببني إسرائيل واتجه إلى

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، ح (١٨٣).

(٢) تقدم.

قال أبو سعيد:

وأنتم وجميع الأمة تقولون به: إنه لم ير، ولا يرى في الدنيا، فأما في الآخرة فما أكبرُ نعيم أهل الجنة إلا النظرُ إلى وجهه، والخيبة لمن حرمه، وما تعجبون من أن كان الله ولا شيء من خلقه، ثم خلق الخلق، ثم استوى على عرشه فوق سماواته، واحتجب من خلقه بحُجُب النار والظلمة، كما جاءت به الآثار، ثم أرسل إليهم رسله، يعرّفهم نفسه بصفاته المقدسة، ليبلو بذلك إيمانهم أيهم يؤمن به ويعرفه بالغيب ولم يره. وإنما يجزي العباد على إيمانهم بالله بالغيب، لأن الله ﷻ لو تبدى لخلقه وتجلى لهم في الدنيا لم يكن لإيمان الغيب هناك معنىً، كما أنه لم يكفر به عندها كافر، ولا عصاه عاص، ولكنه احتجب عنهم في الدنيا، ودعاهم إلى الإيمان به بالغيب، وإلى معرفته، والإقرار بربوبيته ليؤمن به من سبقت له منه السعادة، ويحق القول على الكافرين .

ولو قد تجلى لهم لآمن به من في الأرض كلهم جميعاً بغير رسل ولا كتب، ولا دعاة، ولم يعصوه طرْفَةَ عين، فإذا كان يوم القيامة

خليج البحر الأحمر، فصار البحر أمامه، وتبعه فرعون بجنوده، فقال له أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] يعني كيف نذهب؟ البحر أمامنا، وهذا فرعون جاء خلفنا، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝﴾ [الشعراء: ٦٢] فالإدراك هنا في كلام بني إسرائيل يقصد به أن يحاط بهم، ويمسكون ويقتلون، ولذلك قال في أول الآية: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝﴾ [الشعراء: ٦١]، فأثبتت الرؤية من غير إدراك، فالإدراك هو الإحاطة بالشيء، وليست هي الرؤية. فموسى عليه السلام نفى الإدراك مع حصول الرؤية، فدل على أن الإدراك غير الرؤية، فإذاً تأويلهم غير صحيح.

تجلى لمن آمن به، وصدق رسله وكتبه، وآمن برؤيته، وأقر بصفاته التي وصف بها نفسه، حتى يروه عِياناً، مثوبةً منه لهم وإكراماً، ليزدادوا بالنظر إلى من عبدوه بالغيب نعيماً، وبرؤيته فرحاً واغتباطاً، ولم يُحرَموا رؤيته في الدنيا والآخرة جميعاً، وحجب عنه الكفار يومئذ إذ حُرموا رؤيته كما حُرِموها في الدنيا ليزدادوا حسرة وثبورا.

فاحتج محتج منهم بقول الله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. قلنا: هذا لنا عليكم، لا لكم، إنما قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ في الدنيا، لأن بصر موسى من الأبصار التي كتب الله عليها الفناء في الدنيا، فلا تحمل النظر إلى نور البقاء، فإذا كان يوم القيامة رُكبت الأبصار والأسماع للبقاء، فاحتملت النظر إلى الله ﷻ بما طوقها الله، ألا ترى أنه يقول: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ .

ولو قد شاء لاستقر الجبل ورآه موسى، ولكن سبقت منه الكلمة أن لا يراه أحد في الدنيا، فلذلك قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾. فأما في الآخرة فإن الله تعالى ينشئ خلقه فيركب أسماعهم وأبصارهم للبقاء، فيراه أولياؤه جهراً، كما قال رسول الله ﷺ.

وقال بعضهم: إنا لا نقبل هذه الآثار، ولا نحتج بها، قلت: أجل، ولا كتاب الله تقبلون، أرأيتم إن لم تقبلوها، أتشكون أنها مروية عن السلف، مأثورة عنهم، مستفيضة فيهم، يتوارثونها عن أعلام الناس وفقهائهم قرناً بعد قرن؟ قالوا: نعم، قلنا: فحسبُنا إقراركم بها عليكم حجة لدعوانا أنها مشهورة مروية، تداولتها العلماء والفقهاء، فهاتوا عنهم مثلَها حجةً لدعواكم التي كذبتها الآثار

....

كلها، فلا تقدرون أن تأتوا فيها بخبر ولا أثر، وقد علمتم، إن شاء الله، أنه لا يستدرك سنن رسول الله ﷺ وأصحابه، وأحكامهم وقضاياهم، إلا بهذه الآثار والأسانيد على ما فيها من الاختلاف، وهي السبب إلى ذلك،والنهج الذي درج عليه المسلمون، وكانت إمامهم في دينهم بعد كتاب الله ﷻ، منها يقتبسون العلم، وبها يقضون، وبها يقيمون، وعليها يعتمدون، وبها يتزينون، يورثها الأول منهم الآخر، ويبلغها الشاهد منهم الغائب، احتجاجاً بها، واحتساباً في أدائها إلى من لم يسمعها، يسمونها السنن، والآثار، والفقه، والعلم، ويضربون في طلبها شرق الأرض وغربها، يحلون بها حلال الله، ويحرمون بها حرامه، ويميزون بها بين الحق والباطل، والسنن والبدع، ويستدلون بها على تفسير القرآن ومعانيه وأحكامه، ويعرفون بها ضلالة من ضل عن الهدى، فمن رغب عنها فإنما يرغب عن آثار السلف وهديهم، ويريد مخالفتهم ليتخذ دينه هواه، وليتأول كتاب الله برأيه خلاف ما عنى الله به.

فإن كنتم من المؤمنين، وعلى منهاج أسلافهم، فاقتبسوا العلم من آثارهم، واقتبسوا الهدى في سبيله، وارضَوْا بهذه الآثار إماماً، كما رضي بها القوم لأنفسهم إماما، فلعمري ما أنتم أعلمَ بكتاب الله منهم ولا مثلهم، ولا يمكن الاقتداء بهم إلا باتباع هذه الآثار على ما تروى، فمن لم يقبلها فإنه يريد أن يتبع غير سبيل المؤمنين، وقال الله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النّساء: ١١٥].

قوله: «**ولا يمكن الاقتداء بهم إلا باتباع هذه الآثار**» هذه الآثار هي التي تفسر القرآن وتبينه، والمقصود بالآثار الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ، وقد حذر الرسول ﷺ من مثل ما قال هؤلاء، وقال: «ألا إني

. . . .

أوتيت الكتاب ومثله معه»[١] وفي رواية: «ومثليه معه».

وقال ﷺ: «ألا يوشك رجل شبعان على أركيته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه»[٢]، فمعلوم أن القرآن كما أخبر الله جل وعلا عن رسوله أنه أنزل عليه الذكر ليبين للناس ما نزل إليهم، فإذاً ما هو الذكر الذي أنزله ليبين؟

وهو الوحي الثاني الذي هو السنة، فالقرآن فيه الأمر بإقامة الصلاة، وفيه الأمر بأداء الزكاة، وليس في القرآن أن صلاة الظهر أربع، وصلاة العصر أربع، وصلاة المغرب ثلاث، وصلاة العشاء أربع، وصلاة الفجر ركعتان، وإنما جاءت في سنة المصطفى ﷺ، وهو الذي بين لنا كتاب الله، وكذلك الزكاة ما تجد في القرآن الأنصبة، أن نصاب زكاة الإبل كذا، ونصاب زكاة الغنم كذا، والخارج من الأرض كذا... إلخ، وهذا كثير جداً.

فالذي يرد الآثار والسنة هو في الحقيقة يرد دعوة الرسول ﷺ ودين الله، فالأمر كما قال: لأنكم لا تريدون أن تقبلوا ولا تريدون أن تتبعوا الحق، وإلا فهذه دعوة الرسول واضحة، والذين اعتنوا بهذا هم المسلمون، وهم أهل العلم الذين أخبر الرسول ﷺ بأنهم منصورون، وأنهم على الحق.

وقوله: «**إنكم تتأولون**» وهذا تأول لكتاب الله بالآراء، والآراء لا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٤١٠ ح ١٧١٧٤)، وأبو داود، كتاب السنة، باب لزوم السنة، ح (٤٦٠٤)، من حديث المقدام بن معديكرب رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

فقال قائل منهم: لا، بل نقول بالمعقول. قلنا: هاهنا ضَلَلْتم عن سواء السبيل، ووقعتم في تِيهٍ لا مخرج لكم منه، لأن المعقول ليس لشيء واحد موصوف بحدود عند جميع الناس فيقتصر عليه، ولو كان كذلك كان راحة للناس، ولقلنا به ولم نعد، ولم يكن الله تبارك وتعالى قال: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]. فوجدنا المعقول عند كل حزب ما هم عليه، والمجهول عندهم ما خالفهم، فوجدنا فِرَقَكم ـ معشر الجهمية ـ في المعقول مختلفين، كل فرقة منكم تدّعي أن المعقول عندها ما تدعو إليه، والمجهول ما خالفها، فحين رأينا المعقول اختلف منا ومنكم ومن جميع أهل الأهواء، ولم نقف له على حدّ بيّن في كل شيء، رأينا أرشد الوجوه وأهداها أن نرد المعقولات كلها إلى أمر رسول الله ﷺ، ....

تنفع، بل هي تضر، وهي تؤدي إلى الباطل، ولا شك أن الصحابة ﷺ امتثلوا هذا، ورووه لنا حتى نعمل به، لا لنضرب بعضه ببعض، ونقول: ما نقبل إلا ما كان متواتراً.

قوله رحمه الله: «**فقال قائل منهم: لا، بل نقول بالمعقول..**» تكلم هنا عن المعقول، يقولون: نعمل بالعقل، والعقل عندهم ـ كما يقول الفخر الرازي؛ لأنه سلك مسلكهم ـ: (إذا تعارض العقل والنقل فمن المستحيل أن نقدم النقل الذي هو الكتاب والسنة، لأن العقل هو الذي دلنا على صدق الرسول ﷺ ليكون هو الأصل)[1]، هذه مغالطات ومكابرات، فإن العقل لو لم يأت الرسول ولم يأت الكتاب لا قيمة له، وإنما الكتاب والسنة يقومان العقل ويدلانه على المنهج الصحيح، والقول الصحيح، أما أن يستقل فلا، كيف يستقل العقل بمعرفة الله وبمعرفة

---

(١) انظر: أساس التقديس للرازي (ص ٢٢٠ ـ ٢٢١).

وإلى المعقول عند أصحابه المستفيض بين أظهرهم، لأن الوحي كان ينزل بين أظهرهم، فكانوا أعلمَ بتأويله منا ومنكم، وكانوا مؤتلفين في أصول الدين، لم يفترقوا فيه، ولم تظهر فيهم البدع والأهواء الحائدة عن الطريق.

فالمعقول عندنا ما وافق هديَهم، والمجهول ما خالفهم، ولا سبيل إلى معرفة هديهم وطريقتهم إلا هذه الآثار، وقد انسلختم منها، وانتفيتم منها بزعمكم، فأنى تهتدون؟.

كماله إلا بالجملة فقط، ثم التفاصيل مثل كونه له السمع، وله البصر، وله كمال الإرادة، وأنه فعال لما يريد، وأنه فوق، إلى آخر ما أخبرنا جل وعلا به معرّفاً لنا أنه يجب علينا أن نعرف ربنا بهذا، هذا ما يهتدي إليه العقل، فهو من أمور الغيب.

وكذلك الشرع الذي جاء به الرسول ﷺ لا يمكن أن يكون العقل هادياً لهذا، ثم العقل لا يخالف ذلك إلا أن بعض العقول منتكسة، فالعقل الذي يجوّز مثلاً عبادة الشجر، وعبادة الحجر، وأن يجعله واسطة بينه وبين ربه، ليس كعقل المخلص المؤمن الذي يرى أن هذا هو الذي يحول بين الإنسان وبين إكرام الله له، أو مثلاً الذي يسوي المخلوق بالله جل وعلا، ويجعل للمخلوق مثل ما لله جل وعلا، ما يمكن هذا، أو نقول: لا يمكن أن يكون عقل أبي بكر رضي الله عنه كعقل أبي لهب، أو كعقل أبي جهل، اللذين قدّما الشرك على التوحيد، وغير ذلك.

فإذا تبين أن العقول تتفاوت فإذاً العقول غير معتبرة، فالواجب أن نرجع إلى ما جاء به الوحي من كلام الله وكلام رسوله، وسيأتي تعليله في نهاية ذكر الأدلة على الرؤية، وسيذكر حجتهم التي احتجوا بها في آخر الباب.

واحتج محتج منهم بقول مجاهد: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. قال: تنتظر ثواب ربها.

قلنا: نعم، تنتظر ثواب ربها، ولا ثواب أعظم من النظر إلى وجهه تبارك وتعالى.

فإن أبيتم إلا تعلقاً بحديث مجاهد هذا، واحتجاجاً به دون ما سواه من الآثار، فهذا آية شذوذكم عن الحق واتباعكم الباطل، لأن دعواكم هذه لو صحت عن مجاهد على المعنى الذي تذهبون إليه كان مدحوضاً القول إليه، مع هذه الآثار التي قد صحت فيه عن رسول الله ﷺ وأصحابه وجماعة التابعين، أوَلَسْتُم قد زعمتم أنكم لا تقبلون هذه الآثار ولا تحتجون بها؟! فكيف تحتجون بالأثر عن مجاهد إذ وجدتم سبيلاً إلى التعلق به لباطلكم على غير بيان؟! وتركتم آثار رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين إذ خالفت مذهبكم! فأما إذا أقررتم بقبول الأثر عن مجاهد، فقد حكمتم على أنفسكم بقبول آثار رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين بعدهم، لأنكم لم تسمعوا هذا عن مجاهد، بل تأثرونه عنه بإسناد، وتأثرون بأسانيدَ مثلِها أو أجودَ منها عن رسول الله ﷺ، وعن أصحابه والتابعين ما هو خلافه عندكم، فكيف ألزمتم أنفسكم اتباع المشتبه من آثار مجاهد وحده، وتركتم الصحيح المنصوص من آثار رسول الله ﷺ وأصحابه ونظراء مجاهد من التابعين، إلا من ريبة وشذوذ عن الحق.

قول مجاهد: «تنتظر ثواب ربها» يعني أن هذا من لازم المعنى، أن النظر ثواب، فتأويل مجاهد هذا داخل في المعنى باللزوم، ولا ينافي كونه يرى أن هذه الوجوه تنظر إلى الله جل وعلا، فهي من أعظم الثواب، كما قال: هو النظر إلى وجه الله جل وعلا من أعلاه، وأكمله: أن تنظر إلى الله جل وعلا.

إن الذي يريد الشذوذ عن الحق، يتبع الشاذ من قول العلماء، ويتعلق بزلاتهم، والذي يؤم الحق في نفسه يتبع المشهور من قول جماعتهم، وينقلب مع جمهورهم، فهما آيتان بيّنتان يستدل بهما على اتباع الرجل، وعلى ابتداعه.

قوله: «**فهما آيتان بينتان يستدل بهما على اتباع الرجل، وعلى ابتداعه**» يعني أن هذا يدل على الضلال ؛ لأن كلام الله وكلام الرسول ﷺ هو الواجب اتباعه، فتركوه وأخذوا بقول مجاهد لأن فيه متعلَّقاً لهم، فهو كما قال جل وعلا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

فبقي احتجاجهم الذي يقولون: إنه احتجاج بالعقل، وهو أن العقل دلنا على نفي الرؤية، ومقصودهم بالعقل عقولهم التي صوروها هم، والعقل يجتمع مع القياس، وهو قياس في الواقع، يسمى قياساً عقلياً، لأن العقل يدل عليه، فقالوا مثلاً: الرؤية هي شعاع البصر الذي ينطلق من البصر، ولا بد أن يكون أمامه شيء يصطدم به، وإذا لم يكن أمامه جسم يصطدم به فلا يمكن أن يرى شيئاً، فلهذا الشيء الذي يكون قريباً جداً للبصر ما يرى، والذي يكون بعيداً جداً ما يرى، فهذا مبدأ القياس هنا.

فهم يقولون: إذا زعمتم أو قلتم: إن الله يُرى، فلا بد أن شعاع البصر الذي ينطلق منكم لا بد أنْ يصطدم بجسم، فيكون الله جسماً عندكم، فهذه شبهتم التي يشبهون بها، وسبق الجواب عنها، وأن الله أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأنه جل وعلا مستوٍ حقيقة فوق عرشه، فهو فوق خلقه كلهم، والفوقية كما يزعمون هم يسمونها مكاناً، ولذلك ينزهون الله عنها بزعمهم، فنقول: نعم نسميها مكاناً، ولكن مكان غير محصور، وغير محاط بشيء، فالله لا يحيط به شيء،

....

وليس فوقه شيء، فهو فوق العرش، والعرش هو سقف المخلوقات، والله حق ليس خيالاً كما تتخيلون أنتم، فأنتم على هذا إما أنكم تشبهون الله جل وعلا بالمخلوقات، فلهذا بنيتم نفيكم ذلك على التشبيه الذي مبناه على ما هو مدرك ومحسوس من المخلوقات، وإن لم تنطقوا بذلك صراحة، نقول لكم: الذي يرى يقتضي أشعة تصطدم بجسم... إلخ هذا هو المحسوس عندكم، وجعلتم رؤية الله تعالى من جنس رؤية هذه المخلوقات، فوقعتم في التشبيه، وهذا هو أصل قياسهم في هذه المسألة .

فإذاً نقول: قولكم هذا هو الذي دعاكم إلى الباطل، وهو باطل، فالله جل وعلا أعظم من كل شيء، والذي يرى وجهه تعالى، ولا يحاط به، تبارك ربنا وتعالى عن أن يكون كما ظن هؤلاء الذين ظنوا بالله ظن السوء، وسوف يجازيهم الله جل وعلا على ظنهم وعلى أعمالهم التي صدوا بها كثيراً ممن جهل مرادهم بذلك، فظن أنهم يريدون التنزيه، لذا قالوا: إن الله ليس بجسم، وليس عرضاً، ويتنزه عن الأبعاض، وعن الأغراض، وعن كذا وكذا، وربما يقول من يسمعهم: إنهم يريدون التنزيه، والواقع أنهم يريدون التعطيل.

فقولهم: ليس جسماً، يريدون أنه ليس مستو على عرشه، وليس فوق، وقولهم: إنه ليس عرضاً، يعني أنه ليس له سمع ولا بصر، ولا علم ولا إرادة، وقولهم: يتنزه عن الأبعاض أي ليس له عينان، وليس له يد، وليس له رجل، إلى آخره، فهذا مرادهم في هذا، فهم ينفون هذه الألفاظ المجملة ويريدون تعطيل الله والذي يسمعهم يقول هذا وهو لا يعرف مذهبهم، قد يظن أنهم يريدون التنزيه، وهم في الواقع يريدون ما يقتضي الكفر تعالى الله وتقدس، ولهذا اشتد نكير الإمام الدارمي عليهم، لأنه يعرف مرادهم، وكذلك غيره من أهل العلم، من الذين ردوا عليهم

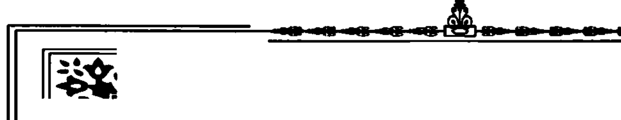
....

وقابلوهم، وبعضهم عرف مرادهم، وقال: هؤلاء زنادقة، لا يجوز أن نكلمهم، واتركوهم حتى يموت مذهبهم، لأنكم إذا رددتم عليهم تردد الكلام، ثم ازداد وانتشر عند الناس وهو باطل، والباطل يجب أن يعرض عنه.

والمقصود أن نذكر علتهم التي اعتلوا بها وتمسكوا بها، فجعلوا القرآن غير قاضٍ على هذه الشبهات التي يوردونها، وهي في الواقع إذا حققت ونظرت فيها تبين لك أنها باطلة لا حقيقة لها.









باب ذكر علم الله تبارك وتعالى

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «سبق علم الله في خلقه، فهم صائرون إلى ذلك»[١].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جف القلم على علم الله عز وجل»[٢].

قال أبو سعيد: وما لنا نرى أن يبلغ غداً قوم في تعطيل صفات الله ما بلغ بهذه العصابة عدلهم في تعطيلها، حتى أنكروا سابق علم الله في خلقه، وما الخلق عاملون قبل أن يعملوا.

ثم قالوا: ما نقول إن الله من فوق عرشه يعلم ما في الأرض،

قوله: «**عدلهم**» يعني: ميلهم وبعدهم عن الحق، فهم لا يثبتون لله علماً، وإذا قيل لهم: إن الله جل وعلا إذا نفيتم عنه العلم يلزم أن يوجد ضده، لأن الشيء لا يخلو من الشيء أو ضده، قالوا: لا، ما ضد العلم؟ الجهل، قالوا: لا نقول إنه جهل، ولكن نقول: إنه لا يجهل، وقولهم: لا يجهل ليس فيه إثبات العلم، ولهذا قيل لهم: حتى هذا الجدار يجوز أن نقول: لا يجهل ولكنه لا يعلم، فهذا تعطيل.

وقوله رحمه الله: «**ثم قالوا: ما نقول إن الله من فوق عرشه..**» هذا قول

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٤٤٨).

(٢) أخرجه الترمذي، ح (٢٦٤٢) وحسنه.

ولكن علم الله هو الله بزعمهم، والله بزعمهم في كل مكان، ليس له علم به يعلم، ولا هو يسمع بسمع، ولا يبصر ببصر، إنما سمعه وبصره وعلمه بزعمهم شيء واحد، فلا السمع عندهم غير البصر، ولا البصر غير السمع، ولا العلم غير البصر، هو كله بزعمهم سمع وبصر وعلم، وهو بكليته في كل مكان، إن علم علم بكله، وإن سمع سمع بكله، وإن رأى رأى بكله.

ويزعمون أن علم الله بمنزلة النظر والمشاهدة، لا يعلم بالشيء حتى يكون، فإذا كان الشيء علم به علم كينونته، لا بعلم لم يزل في نفسه قبل كينونته، ولكن إذا حدث الشيء كان هو عند الشيء، ومعه الشيء بنفسه، فإن أراد ذلك الشيء، كان هو يدل الشيء بزعمهم من مكانه، فذلك إحاطة علم الله بالأشياء عندهم، لا أن يكون علم بشيء منها في نفسه قبل كينونته، فتبارك الله رب العالمين، وتعالى عما يصفون.

آخر لهم، بعضهم هكذا قالوا: علم الله هو الله، وسمع الله هو الله، كل ذلك فرار من إثبات الصفات، وهذه مغالطات، كيف يكون علم الله هو الله؟ هذه مغالطات وعدول عن الحجة التي ألزموا بها، وتهرب منها.

وقولهم: «**فذلك إحاطة علم الله بالأشياء عندهم، لا أن يكون علم بشيء منها في نفسه قبل كينونته**» الذي يقولون عنه هذا ليس هو الله! هذا شيء آخر، هذا شيء لا وجود له، أما الله الذي يؤمن به المؤمنون فهو كما وصف نفسه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١]، فعلمه محيط بكل شيء، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقد كتب ذلك: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، تعالى وتقدس، فهل من يقول هذا القول يكون مؤمناً، قابلاً لما جاء به

هذا هو الرد لكتاب الله والجحود لآيات الله، وصاحب هذا المذهب يخرجه مذهبه إلى مذهب الزندقة حتى لا يؤمن بيوم الحساب، لأن الذي لا يقر بالعلم السابق بالأشياء قبل أن تكون، يلزمه في مذهبه ألا يؤمن بيوم الحساب، وبقيام الساعة والبعث والثواب والعقاب، لأن العباد إنما لزمهم الإيمان بها لإخبار الله بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأنه محاسبهم يوم الحساب، مثيبهم ومعاقبهم.

الرسول؟ نقول: كلا، هو يريد شيئاً لم يأت به الرسول ﷺ، لأن هذا من أظهر الأشياء وأجلاها، كون الله جل وعلا يوصف بالعلم، ويوصف بالسمع والبصر، فإذا لم يوصف بعلم ولا سمع ولا بصر ولا كلام فهذا فيه إبطال للشرع وللرسالة وللدين الذي يأمر الله جل وعلا به، لأنه بسمعه يسمع خلقه ويراقبهم، وببصره يُبصرهم، وينظر إليهم ويشاهدهم، وكذلك علمه محيط بكل شيء. والواقع أن هذا من الإلحاد الذي هو كفر بالله جل وعلا، ونقول: مثل هذه الأمور التافهة التي تنبو عنها أسماع من يؤمن بالله جل وعلا، وتقشعر منها جلودهم، الواجب أن يضرب عنها صفحاً، والمجادلات فيها مجادلات في شيء باطل، ولكن إذا وجدت الشبهات يجب أن تزال الشبهة فقط، فلا يردد هذا الشيء.

الذين يقولون هذا القول هل يؤمنون بأن الله يعلم ما يعملون، ويراقبهم ويسمع كلامهم؟ حقيقة مذهبهم أنهم لا يؤمنون بالله جل وعلا، ولا يبالون بشيء، فهل مثل هذا يحاجّ أو يجادَل؟ أو يقال إنه يمكن أنه يجهل جهلاً يعذر به؟ ولهذا اتهم هؤلاء بأنهم زنادقة؛ لأنهم يريدون إبطال دين المسلمين، لأنهم ما بين يهودي ونصراني ومجوسي وملحد، غاظه ظهور الإسلام وانتصار المسلمين، ولهذا السبب لما ظهرت هذه الأشياء صارت حروب كلامية وردود، هذا يرد على هذا، وهذا يرد على

فإذا كان الله بزعمهم لا يعلم بالشيء حتى يكون، كيف علم في مذهبهم بقيام الساعة. والبعث ولم تقم الساعة بعد، ولا تقوم إلا بعد فناء الخلق، وارتفاع الدنيا؟

فإن أقروا لله بعلم قيام الساعة، والبعث، والحساب، لزمهم أن يقروا له بعلم كل شيء دونها، فإن أنكروا علم الله ﷻ بما دونها لزمهم الإنكار بها وبقيامها، وبالبعث والحساب، لأن علمه بالساعة كعلمه بالخلق وأعمالهم سواء لا يزيد ولا ينقص، فمن لم يؤمن بأحدهما لزمه ألا يؤمن بالآخر، وهي من أوضح الحجج وأشدها على من رد العلم وأنكره.

واعلموا أن الله ﷻ لم يزل عالماً بالخلق وأعمالهم قبل أن يخلقهم، ولا يزال بهم عالماً، لم يزدد في علمه بكينونة الخلق خردلة واحدة، ولا أقل منها ولا أكثر، ولكن خلق الخلق على ما كان في نفسه قبل أن يخلقهم، ومِن عندِه بدأ العلم، وهو علَّم الخلقَ ما لم يعلموا، فقال تبارك وتعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العَلق: ٥]. وقال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠]

هذا، وتمزق الناس بهذا، ولا يزال الناس إلى الآن يعانون من هذه الخلافات، من أين جاءت هذه الفرق؟ هؤلاء ماتريدية، وهؤلاء أشاعرة، وهؤلاء كلابية، وهؤلاء معتزلة... إلخ، كلها بسبب هذا، وهذا عمل عمله في المسلمين بالتفرقة، وعدم الاجتماع، وعدم الألفة، حتى في الشيء الظاهر جداً، فلهذا أدرك أولئك بعض مرادهم، أو كثيراً من مرادهم.

قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، من العلماء من يقول: إن الأرض سُكنت قبل آدم، سكنها الجن، وإن

فبلغنا في تفسيره عن مجاهد قال: «عَلِمَ مِنْ إبليس المعصية وخلقه لها».

الجن مخلوقون قبل الإنس، وسفكوا فيها الدماء، وقاتلتهم الملائكة، ولهذا قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، يعني كما سفكت فيها الدماء قبل هذا، هذا قول بعض المفسرين(١).

فالملائكة علموا ذلك بما سبق أن وجد في الأرض، ويجوز كما قال المصنف أن يكون الله جل وعلا علمهم أن بني آدم يسفكون الدماء، أي يتقاتلون فيما بينهم.

والله جل وعلا ذكر في بعض آيات القرآن تقديم الجن على الإنس في الخلق، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا كان الجن مقدمين بالذكر يجوز أنهم أيضاً مقدمون في الوجود والخلق، وهذا وجه ما ذكره المفسرون.

وليس في هذا إشكال، الإشكال في كونهم ينفون علم الله تعالى وتقدس، وإثبات علمه من الضروريات التي لا بد منها، والكفار المشركون الذين ما عندهم علم ولم يتعلموا يُقِرُّون بهذا، ومن أنكره رموه بالجهل، كما ذكر عن ابن مسعود ﷺ، أنه قال: «اجتمع ثلاثة من كبار المشركين عند البيت، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، ثقفي وقرشيان، أو قال: ثقفيان وقرشي، فقال واحد منهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهما: إذا رفعنا أصواتنا سمعنا، وإذا لم نرفع لم يسمع، فقال الثالث: إن كان يسمع إذا رفعنا فهو يسمع إذا خفضنا»(٢)،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٤٥٥ وما بعدها)، وزاد المسير (١/ ٥٠).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾، ح (٤٨١٧)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين، ح (٢٧٧٥).

قال أبو سعيد: ولَعمري ما علمت الملائكة بسفك الدماء والفساد غيباً من قبل أنفسهم، ولكن علّمهم ذلك علام الغيوب قبل أن يقولوا، ولذلك ادعوا معرفته.

وقال أيضاً: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣١-٣٢]. فأخبر الله تبارك وتعالى أنه هو الذي علّم آدم والملائكة العلم، من غير أن يعلموا شيئاً منه، وأقرت الملائكة بذلك، ورَدَّتِ العلم كله إلى من بدأ منه، فقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] فهل علّمهم إلا ما قد علمه قبل ذلك؟

فهذا جعل ابنَ مسعود رضي الله عنه يرميهم بالجهل وأنهم قليل فقه قلوبهم، أي لا يعرفون ولا يفقهون وهم مشركون كفار.

فالمقصود: أن الكفار في أشعارهم وفي كلامهم إثبات علم الله، وأنه عليم بكل شيء، ويعلم بكل شيء.

كرر رحمه الله كلمة «**ولعمري**»، وقد سبق هذا مراراً منه، وهذا ليس قسماً كما يتصوره بعض الناس، يقولون: لعمري قسم، ولكنه أسلوب من أساليب العرب لتأكيد الكلام، ولهذا جاء ذلك كما في صحيح مسلم[1] عن عائشة أنها قالت ذلك، فهو ليس قسماً.

وقوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ كثير من الناس يقول: أي خليفة لله، وهذا خطأ؛ لأن الخليفة لمن يخلف غيره، والله لا يخلفه أحد، فهو الرقيب على كل شيء، المشاهد لكل شيء، تعالى الله

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج، ح (١٢٥٥)، ولفظه: «لعمري ما اعتمر رسول الله ﷺ في رجب».

وقال فيما أنزله على رسوله ﷺ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النّساء: ١٧]، ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]، ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]، ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧]، قال: ما لم تحدث به نفسك، ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩].

فأخبر الله سبحانه أنه كان العالم قبل كل أحد، ومنه بدأ العلم، قال: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: ٤٣]، وقال: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عِمران: ٦١]، جاءه العلم من الله، وهو القرآن.

ثم أخبر بعلمه السابق في عباده قبل أن يعملوا، فقال: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ [الجاثية: ٢٣] الآية. وقال: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبإ: ٣]. وقال: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [المُزّمل: ٢٠] الآية. وما أشبه هذا من كتاب الله كثير.

وتقدس، ولكنه آدم خليفة لمن سبقه في الأرض، أو أنه جعل ذريته يخلف بعضهم بعضاً، كلما مات جيل خلفه جيل بعده، إلى آخر الدنيا.

وقوله: «**فأخبر الله سبحانه أنه كان العالِمَ قبل كل أحد، ومنه بدأ العلم**» هذا من الأمور الضرورية، أعني الإيمان بعلم الله، ومن لم يؤمن بهذا فلم يؤمن بالله جل وعلا.

ولو لم يكن منها في كتاب الله إلا حرف واحد لاكتُفي به حجة بالغة، فكيف والكتاب كله ينطق بنصه، يستغنى فيه بالتنزيل عن التفسير، وتعرفه العامة والخاصة.

فلم تزل عليه الأمة إلى أن نبغت هذه النابغة بين أظهر المسلمين، فأعظموا في الله القول، وسَبُّوه بأقبح السباب، وجهلوه ونَفَوْا عنه صفاته التي بها يُعَرُف صفةً صفةً، حتى نفوا عنه العلمَ الأول السابق، والكلام، والسمع والبصر، والأمر كله، ثم جعلوه كلا شيءٍ، فقالوا في الجملة: ما نعرف إلها غير هذا، الذي في كل مكان، فإذا باد شيء صار مكانه. فنظرنا في صفة معبودهم هذا فلم نجد بهذه الصفة شيئاً غير هذا الهواء القائم على كل شيء، الداخل في كل مكان، فمن قصد بعبادته إلى إله بهذه الصفة فإنما يعبد غير الله، وليس معبوده ذاك بإله، كُفْرانَه، لا غُفْرانَه.

قوله: «**ولو لم يكن منها في كتاب الله إلا حرف واحد لاكتفي به حجة بالغة، فكيف والكتاب كله ينطق بنصه**» وكل هذا لا يجدي بهم شيئاً، لو تلي عليهم كتاب الله كله لم يقبلوه، ولم يؤمنوا به، لأنهم لا يريدون الحق، وإلا هل يخفى عليهم هذا؟

هذا لا يخفى على الصبيان الذين في الكتاتيب، فهم يعلمون ذلك، أن الله علام الغيوب، والقضايا التي يقولها الناس من قديم الزمان في الجاهلية نفسها فيها أدلة كثيرة على هذا لا حصر لها وأنهم مقرون بعلم الله، فهل طالب العلم أو العالم مثل هؤلاء المعطلة يعتقد أنه يخفى عليهم مثل ذلك؟ كلا، وإنما لهم مراد، ولهم هدف سيئ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فمن قصد بعبادته إلى إله بهذه الصفة فإنما يعبد غير الله**» بل هو العدم، لا يوجد في الكون على ما يصفون إلا العدم المحض، وإلا كيف يصدق هذا الذي يقولون: إن الله ليس فوق،

فاحذروا هؤلاء القوم على أنفسكم وأهليكم وأولادكم أن يفتنوكم، أو يكفِّروا صدورَكم بالمغاليط والأضاليل التي تشتبه على جهالكم، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

فإن جحد منهم جاحد وانتفى من بعض ما حكينا عنهم، فلا تصدقوهم، فإنه دينهم الذي يعتقدونه في أنفسهم، لا يجحد ذلك منهم إلا متعوِّذ مستتر، أو جاهل بمذاهبهم، لا يتوجه بشيء منها، فقد اعترف لنا بذلك بعض كبرائهم، أو بما يشبه معناه، وأسندوا بعض ذلك إلى بعض المضلين من أشياخهم، فإلى الله أشكو رأياً هذا تأويله، وقوماً هذا إبطالهم لعلم ربنا.

والله لقد عَلِمَتِ الملائكة بما علَمهم الله ما هو كائن من بني آدم

ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا داخل العالم، ولا خارج العالم، ولا تصح إليه الإشارة، ولا يقال: أين هو، إذاً ماذا يكون، هل يكون هذا غير عدم؟ لا يكون أبداً، لكنهم أحياناً يقولون هذا، وهذا يكتبونه في كتبهم، موجود في كتبهم بهذه النصوص وأكثر من ذلك، بهذه الألفاظ وأكثر، فلهذا نقول: هؤلاء المعطلة إلههم معدوم لا وجود له، وهم لا يؤمنون بالله الحق المبين، الذي تعرف إلى عباده بصفاته وبأفعاله ومخلوقاته.

وقوله: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، يعني اتخذوا واقياً يقي أنفسكم وأهليكم من النار، فدل على أننا نملك هذا الشيء، يعني نملك أن نجعل واقياً يقينا، وهذا لا يكون إلا بتقوى الله واتباع رسوله ﷺ، والإيمان بما جاء به، ومعرفة الله جل وعلا بأوصافه وأسمائه وصفاته.

من الفساد وسفك الدماء قبل أن يخلقوا، فكيف خالقهم الذي علمهم ذلك؟ فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠] فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠].

ووصف الله هذه الأمة في التوراة والإنجيل قبل أن يخلقوا بصفاتهم، فكيف وصفهم من غير علم له بهم؟ فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ [الفَتْح: ٢٩]. قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧].

فما قَدَروا أن يَتَعَدَّوا هذه الصفات، ولا يَقْصروا عن شيء مما وصفهم الله به قبل أن يكونوا، وقال ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. فكتب ذلك بعلم قبل أن يرثوها!

وقال ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء: ٤]. قضى عليهم في الكتاب الإفساد في الأرض قبل أن يفسدوا. وقوله: ﴿وَقَضَيْنَا﴾ قال مجاهد: «كتبنا» .وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء:

. . . .

١٠١]، سبقت لهم الحسنى من الله قبل أن يخلقوا لعلم الله فيهم، فما استطاعوا أن يتعدَّوا شيئاً علِمَه الله فيهم. وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصَّافات: ١٧١-١٧٣]. وأخبر عن أعمال قوم قبل أن يعملوها. وقال: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هُود: ٤٨]، فأخبر الله تعالى بتمتيعهم ومس العذاب إياهم قبل أن يخلقوا، قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجُمُعَة: ٣]. روي في بعض التفاسير أنهم الأعاجم، أخبر الله بدخولهم في الإسلام قبل أن يدخلوا.

وقال لأهل بدر حين أخذوا الفداء من المشركين: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفَال: ٦٨]. يقول: لولا ما سبق لأهل بدر من السعادة لمسهم العذاب في أخذهم الفداء، فلم يقدر أهل بدر ألا يأخذوه، ولو حَرَصوا على تركه. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يُونس: ٩٦-٩٧]. وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعَام: ٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدّخان: ١٥-١٦]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحَشر: ١٠]. فسبقت لهم منه الرحمة قبل أن يخلقوا، والدعاء لمن سبقهم قبل أن يَدْعُوا .

وقال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدّخان: ٢٣-٢٤]. فأخبر الله باتباعهم وإغراقهم قبل أن يكون.

. . . .

وقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، فأخبر باختلافهم قبل أن يختلفوا.

وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣].

ولكن علم منهم غير ذلك، فصاروا إلى ما علم منهم. وأخبر بعلمه في قوم فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]. وأخبر عن قوم آخرين فقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾ [المؤمنون: ٧٥].

قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ إلخ، هذه أمور لم تقع، فهو يعلم جل وعلا أنها لو وقعت لكانت على هذا الذي ذكره، فهو يعلم الشيء الذي لم يقع لو وقع كيف يكون، كما قال جل وعلا في أهل النار: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨] يعني لو ردوا إلى الدنيا وأمهلوا لعادوا إلى الكفر بالله جل وعلا.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾ [التوبة: ٤٦]، هذا شيء لم يقع، يخبر الله جل وعلا بأنه لو وقع لكان على الحالة التي ذكرها، فهو يعلم الشيء الذي لا يكون، لو كان كيف يكون، فكيف بالشيء الموجود؟ فعلمه محيط بكل

فمن آمن بكتاب الله، وصدق رسل الله، اكتفى ببعض ما ذكرنا في علم الله السابق في الخلق وأعمالِهم قبل أن يعملوها، ومن يحصي ما في كتاب الله، وفي آثار رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين في إثبات علم الله له والإقرار به؟! ويكفي في معرفة ذلك أقل مما جمعنا، ولكن جمعناها ليتدبرها أهل العقول والأفهام، فيعرفوا ضلالة هؤلاء الذين أخرجوا الله من العلم ونَفَوْه عنه، وجعلوه في العلم والمعرفة كالخلق سواء، فقالوا: كما لا يعلم الخلقُ بالشيء قبل أن يكون، فكذلك الله بزعمهم! لا يعلم قبل أن يكون. فما فضلُ علام الغيوب الذي يعلم السر وأخفى على المخلوق الذي لا يعلم شيئاً إلا ما علّمه الله.

وهذا المذهب الذي ادّعَوْه في علم الله قد وافقهم على بعضه بعض المعتزلة، لأنه لا يبقى مذهب الفريقين جميعاً إلا برد علم الله، فكفى به ضلالاً، ولأنهم متى ما أقروا بعلم سابق خُصِموا، كذلك قال عمر بن عبد العزيز

عن عمر بن عبد العزيز، قال: «من أقر بالعلم فقد خصم».

قال أبو سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فتأويل قولهم ومذهبهم أنه كلما حدث لله خلقٌ حدث له عِلمٌ بكينونته، عَلِمَ ما لم يكن عَلِمَه، ففي تأويلهم هذا كان الله ولا عَلْمَ له بزعمهم، حتى جاء الخلق فأفادوه علماً، فكلما حدث خلق حدث لله علم بزعمهم، فهو بما كان بزعمهم عالم، وبما لم يكن غير عالم حتى يكون. فتعالى الله عما يصفون.

شيء، في الأزل، وفي المستقبل، وفي الحال، وغير ذلك، وإنكار العلم من أظهر الكفر بالله جل وعلا، لأن علم الله جل وعلا إثباته ظاهر جلي بالعقل، وبالسمع، وبالإجماع؛ إجماع الأمم الذين يؤمنون بالله ورسوله.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]. وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الملك: ٢٦]. وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وقال: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ﴾ [طه: ٥٢]. فكيف يحدث لله علم بكينونة الخلق وعلى علمه السابق فيهم خلقوا، وبما كتب عليهم في أم الكتاب يعملون، لا يزيدون مثقال حبة ولا ينقصون، قال: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٢-٥٣]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ٤]، وقال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]. وقال: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فهل كتب هذه الأشياء قبل كينونتها إلا للعلم بها قبل أن تكون؟!

عن أبي أمامة الباهلي ﷺ، قال: «أيها الناس، لا يشتبه عليكم بأن الله علم علماً، وخلق خلقاً، فإن كان العلم قبل الخلق فالخلق يتبع العلم، وإن كان الخلق قبل العلم فالعلم يتبع الخلق».

قال أبو سعيد: فادعت هذه العصابة أن الخلق قبل العلم، والعلم

....

يتبع الخلق، فأي ضلال أبين من هذا؟ وقال رسول الله ﷺ: «إن أول شيء خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فكتب كل شيء يكون»[١].

قال أبو سعيد رحمه الله: فلم يدر ـ والله ـ القلم بما يجري، حتى أجراه الله بعلمه، وعلمه ما يكتب مما يكون قبل أن يكون.

وقال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير أهل السماوات والأرض قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة»[٢].

هذه المغالطة التي ذكر الاستدلال عليها بهذه الأشياء هم لا يقرون بها كما سبق، وليس مقصودهم طلب الحق، وإنما مقصودهم التشويش على الناس أولاً، وتشكيكهم في هذه الأشياء إذا أمكن. فهم أولاً يسعون في إخراجهم من الدين إن أمكن، فإن لم يمكن أثاروا لهم الشكوك والشبهات، فإن لم يمكنهم ذلك شغلوهم بالردود عليهم، كما شغلوا أبا سعيد وغيره بذلك، فصرفوه عن الأمور التي هي أهم من هذا، فلهم مقاصد سيئة جداً، وإلا فهذا لا يجهله الإنسان العاقل، أنه لا يمكن إيجاد الشيء إلا أن يسبقه التصور والعلم، كما قال الله جل وعلا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، يعني أيخلق الشيء وهو لا يعلمه ولا يحيط به؟ فهذا لا يخفى على عاقل أصلاً!!

والحديث الذي ذكره هنا: **«إن أول شيء خلق الله القلم، فقال له: اكتب»** الصحيح: أن هذه جملة واحدة، أي: أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب.

والمقصود ليس الإخبار بأن القلم هو أول المخلوقات كما قاله من

---

(١) سيأتي عند المصنف بعد قليل.

(٢) سيأتي عند المصنف بعد قليل.

فهل كتب ذلك إلا بما عَلِمَ، فما موضع كتاب هذا إن لم يكن عَلِمَه في دعواهم؟

ثم الأحاديث عن رسول الله ﷺ فيما يشبه هذا، وعن أصحابه جملة كثيرة، أكثر من أن يحصيها كتابنا هذا، وسنأتي منها ببعض ما حضر، إن شاء الله، ....

قاله، وإنما المقصود الإخبار بأن الكتابة بالقلم جرت بعد خلقه مباشرة بدون فاصل زمن، وإلا لكان فيه مخالفة بينه وبين الحديث الذي بعده، فالحديث الذي بعده حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما -: «كتب الله مقادير الأشياء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[1] فهذه الكتابة صارت بالقلم، وقوله: «وكان عرشه على الماء» يعني: مفهوم ومعروف وواضح أن العرش والماء كل منهما موجود وقت الكتابة، فبهذا استدل بأنه ليس المقصود الإخبار بأن القلم هو أول المخلوقات، وإنما المقصود بأن القلم لما خلق أمر بالكتابة مباشرة، فيكون قوله: «أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب» هذه جملة واحدة وليست جملتين، لو كانت «أول ما خلق الله القلم» وسكت لصار هذا المقصود به أن القلم هو أول المخلوقات، ولكن ليس كذلك، وإن قاله من قاله؛ لأن حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما واضح في هذا، فلا يختلف قول الرسول ﷺ.

وقوله رحمه الله: «**ثم الأحاديث عن رسول الله ﷺ فيما يشبه هذا..**» كل الأحاديث، كل ما قاله الرسول ﷺ، وقاله الله خلاف هذا؛ لأن هذا كفر واضح وجلي، ولا يمكن أن يستدلوا على ذلك بشيء مستساغ لا عقلاً ولا شرعاً، وإنكار علم الله كفر بالله جل وعلا.

---

(١) سيأتي عند المصنف بعد قليل.

مع أنا نعلم أنهم يكذِّبون بأحاديث رسول الله ﷺ، ولا يؤمنون بها، ولكن خير منهم وأطيب وأفضل وأعلم الناس من يؤمن بها فيتقيهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول شيء خلقه الله القلم، فأمره فكتب كل شيء يكون»(١).

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»(٢).

عن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله الخلق،

وقوله رحمه الله: **«مع أنا نعلم أنهم يكذِّبون بأحاديث رسول الله ﷺ، ولا يؤمنون بها»** ليس بالأحاديث فقط، بل يكذّبون بكل ما جاء به الرسول ﷺ، ولولا أنهم يخافون لكفروا كفراً بواحاً ظاهراً، لكن تستروا بذلك، كما هو معلوم عنهم.

وقوله رحمه الله: **«ولكن خير منهم وأطيب وأفضل، وأعلم الناس من يؤمن بها فيتقيهم»** يعني أن المقصود بهذا التحذير منهم، وليس المقصود هم، لأنهم لا يقرون بما يذكر، ولا يؤمنون به، فكيف يستدل عليهم بذلك؟ ولكن مقصوده حتى لا يضطر الجاهل بهم، فيستدل بما ذكر على أنهم لا يقصدون الحق.

قوله ﷺ: **«وكان عرشه على الماء»**، هكذا في صحيح مسلم: «وكان عرشه على الماء»، وكلمة «وكان عرشه على الماء» جملة حالية، يعني وقت الكتابة كان العرش على الماء موجوداً.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد (ص ١٠٩)، وابن جرير في التفسير (٢٩/ ١٦، ١٧) والبيهقي في سننه (٩/ ٣).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب القدر، ح(٢٦٥٣).

وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، فأخذ أهل اليمين بيمينه، وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى، وكلتا يدي الرحمن يمين، وقال: يا أصحاب اليمين، قالوا: لبيك وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى! ثم قال: يا أصحاب الشمال قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى! فخلط بعضهم ببعض، فقال قائل: يا رب لم خلطت بيننا؟ قال: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المؤمنون: ٦٣]، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ثم ردهم في صلب آدم». قال: وقال رسول الله ﷺ: «خلق الله الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، وأهل الجنة أهلها، وأهل النار أهلها».، فقال قائل: يا نبي الله ما الأعمال؟ قال: «أن يعمل كل قوم لمنزلتهم». فقال عمر: إذاً نجتهد. قال: وسئل رسول الله ﷺ عن الأعمال، فقيل: يا رسول الله أرأيت الأعمال، أهو شيء يُؤْتَنَف، أو فُرِغ منها؟ قال: «بل فرغ منها»[1].

عن ابن عباس، في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: خلق الله آدم، فأخذ ميثاقه أنه ربه، وكتب أجله ورزقه ومصائبه، وأخرج ولده من ظهره كهيئة الذر، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم[2].

المقصود بهذا الإخبار أن الله جل وعلا علم أهل الجنة من أهل النار قبل وجودهم، وهذا القول في الحديث أنه قال كذا، يعني أنه نصب الأشياء التي يظهر معها الدليل الجلي الذي لا يجوز مخالفته، فالقول قد يأتي ويقصد به الفعل؛ لأن هذا القول «قالوا: بلى» لا أحد يذكر أن الله

---

(١) تقدم.
(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/ ١١٢).

. . . .

قال له ذلك، وأنه شهد، فهل الشيء الذي لا يذكر ولا يعلم يكون حجة؟ هذا الذي نازع فيه من نازع، وقال: إن المقصود بذلك الإخبار بعلم الله الأزلي، وتقديره السابق للخلق، وليس المقصود إخراجهم بالفعل واستنطاقهم واستشهادهم بالقول، ثم يشهدون، والله جل وعلا إنما يأخذ الخلق بأمر ظاهر جلي، ولا يأخذهم بأمر لا يذكرونه، أما قول من قال إن الرسل جاءت بتذكيرهم لذلك، فالحجة بمجيء الرسل ليس بذلك، لأن بعض العلماء يطعن في هذه الأحاديث، ويقول إنها غير ثابتة. والله أعلم.

قوله: «**ثم ردهم في صلب آدم**» هذا قبل وجود آدم، فكيف يكون هذا ثم ردهم في صلب آدم، يعني هذا التقدير السابق، ثم قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ قال: من بني آدم، ليس من آدم، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وفي القراءة الأخرى: ﴿ذرياتهم﴾[1]، وهذه قراءة سبعية أيضاً، فيكون هذا الأخذ مثل ما قال شيخنا ابن تيمية وغيره[2] أن المقصود به ما فطروا عليه من الفطرة التي تكون حجة، الله فطر عباده على معرفته، والإيمان بأنه هو الرب جل وعلا، وليس المقصود إخراجهم ـ مثل ما قيل ـ أمثال الذر، واستنطاقهم واستشهادهم، لأن ذلك إنما ورد في آدم، والآية هنا تدل على أنها من الذرية ومن الآباء، ومن أصلاب الآباء، وليس من صلب الأب الواحد الذي هو قبل وجوده، والله أعلم.

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر ونافع وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب من العشرة، انظر: المبسوط في القراءات العشر (ص ٢١٦).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٨٢ وما بعدها)، والتمهيد لابن عبد البر (١٨/ ٥٧ وما بعدها).

عن عبد الله بن الحارث، قال: خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن الله خلق أهل الجنة وما هم عاملون، وخلق أهل النار وما هم عاملون، فقال: هؤلاء لهذه، وهؤلاء لهذه[١].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سئل عن أطفال المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم»[٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ مثله[٣].

قول عمر رضي الله عنه: **«إن الله خلق أهل الجنة وما هم عاملون..»** في الصحيحين عن النبي ﷺ من غير وجه أنه أخبر: «أن الله قد علم أهل الجنة من أهل النار، وما يعمله العباد قبل أن يعملوه»[٤].

فالله علم أهل الجنة وما هم عاملون قبل وجوده، وكذلك أهل النار، فهو دليل على أن الله علم كل شيء قبل وجود الأشياء[٥] وهذا هو المقصود.

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما عن أطفال المشركين: **«الله أعلم بما كانوا عاملين»** هذه المسألة اختلفوا فيها، أطفال المشركين، هل هم في النار،

---

(١) أخرجه أبو داود في القدر كما في شفاء العليل لابن القيم (ص ٨٤).

(٢) متفق عليه، وتقدم في الحاشية قبلها.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب القدر، ح (٢٦٥٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢/ ٩٦) ح(١٣٦٢) ومسلم (٤/ ٢٠٣٩) ح(٢٦٤٧) بلفظ: «ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار»، وفي شعب الإيمان للبيهقي: «ما منكم من نفس منفوسة إلا وقد علم مكانها من الجنة والنار» شعب الإيمان (١/ ٣٥٨) ح(١٨٢) وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٦٢) ح(١٠٦٥). ومنها قول النبي ﷺ في أولاد المشركين: «الله أعلم بما كانوا عاملين». في البخاري، كتاب القدر، باب (الله أعلم بما كانوا عاملين)، ح (٦٥٩٨)، ومسلم، كتاب القدر، ح (٢٦٥٩).

(٥) انظر كتاب الإيمان لابن تيمية (ص: ٣٠١).

عن ابن أبي الجدعاء، قال: قال رجل: يا رسول الله متى كتبت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[١].

أم في الجنة؟ وجاء حديث يفهم منه النهي عن الخوض في هذه المسألة، وأنه لا يجوز، فمثل ما قال هنا: الله أعلم بما هم عاملون يعني لو عاشوا، ولكن المعلوم أنه لا يؤاخذ الإنسان بالشيء الذي لم يعمل به بالفعل، فالله لا يؤاخذ بعلمه، وإنما يؤاخذ بالعمل.

وأكثر أهل السنة والعلماء على أنهم ليسوا معذبين، فلهذا جاء في حديث أن الرسول ﷺ لما سئل عن أطفال المسلمين، قال: «هم في الجنة»، قالوا: وأطفال المشركين، قال: «وأطفال المشركين»[٢]، وأنكر ﷺ أن يقتلوا، ونهى عن ذلك، فقال رجل: أليسوا منهم، قال: أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ وأنتم قبل أن تسلموا كنتم مشركين؟[٣].

فالخوض في هذا قد يحتاج إلى تأمل، وتكلم فيه العلماء كلاماً كثيراً، ولكن المرجع في ذلك إلى قول الرسول ﷺ.

وقوله ﷺ: «وآدم بين الروح والجسد» بعضهم يرويه: «بين الماء

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧/ ١٧٦ ح ١٦٦٢٣،)، وابن أبي عاصم (٤١١)، والآجري (ص ٤١٦، ٤١٧)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٥٣).

(٢) مسند البزار (١٠/ ٣٨٤) ح ٤٥١٦) ولفظه: «سئل عن أطفال المشركين فقال: هم خدم أهل الجنة». والطبراني في الأوسط ح(٢٠٤٥) وصححه الألباني، انظر الصحيحة: ح(١٤٦٨) وصحيح الجامع: ح(١٠٢٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤/ ٣٥٤) ح (١٥٥٨٨)، والنسائي في الكبرى، كتاب السير، باب النهي عن قتل ذراري المشركين، ح (٨٥٦٢)، من حديث الأسود بن سريع. قال الضياء في المختارة (٤/ ٢٤٨): إسناده منقطع. وأما النهي عموما عن قتل النساء والصبيان، فقد ثبت في الصحيحن من حديث ابن عمر. أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قتل الصبيان في الحرب، ح (٣٠١٤)، ومسلم، كتاب الجهاد، ح (١٧٤٤).

عن عرباض بن سارية السلمي رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إني عبد الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته»[١].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض»[٢].

عن عبد الله بن عمرو، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟». قالوا: لا يا رسول الله، فقال للأيمن منهما: «هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ....

والطين»[٣] وهذا غير صحيح، والصحيح بين الروح والجسد، ما معنى بين الروح والجسد؟ يعني أن هذا التقدير كان قبل خلق آدم ووجوده، وقبل أن يكون في آدم روح ساكنة في جسده، هذا معناه، فهو في التقدير السابق، وليس معنى ذلك أن الرسول ﷺ خلق قبل آدم، وقد يقول ذلك بعض المتطرفين من الصوفية، يقولون: أصل المخلوقات هو الله أو الرسول، ونور المخلوقات من نوره... إلخ.

وقوله ﷺ: «**وإن آدم لمنجدل في طينته**» يعني قبل أن ينفخ فيه الروح، كما في الحديث الأول، فهذا في علم الله وتقديره، ولهذا قال: «إني عند الله» يعني في علمه، وقال: «في أم الكتاب» يعني التقدير الأول، فكل شيء كتب قبل وجود الأشياء.

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٩٥ ح ١٧١٦٣)، الحاكم (٢/ ٦٠٠ ـ ٦٠١) وصححه، وعنه البيهقي في الدلائل (١/ ٧٠ ـ ٧١)، وهو عندهم بلفظ: «إني عند الله».

(٢) تقدم.

(٣) قال شيخ الإسلام في الفتاوى (١٨/ ١٢٥): هذا لفظ كذب باطل.

أُجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً»، وقال للذي في يده اليسرى: «وهذا كتاب بأسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً». فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء يعمل إن كان هذا الأمر قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أيما عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيما عمل». ثم قبض يديه وقال: «فرغ ربكم من العباد». ثم قال بيده اليمنى فنبذ بها، فقال: «فريق في الجنة». ونبذ بالأخرى وقال: «فريق في السعير»[1].

قوله ﷺ: «**فرغ ربكم من العباد**» المقصود بهذا الفراغ من أمر العباد هو التقدير الأول، ومعلوم أن الكتابة والمشيئة والإرادة كلها تتبع العلم، فالله علم كل شيء قبل وجوده، وعلمه جل وعلا من صفاته، صفات الذات التي لا تفارقه أبداً، لا يمكن أن يوجد شيء بلا علم، فلهذا قال جل وعلا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، يعني المخلوقات، وما كتبه.

وقوله: «**أجمل**» يعني أنه علم كل مخلوق، فلا يزاد فيهم مخلوق، فالآن وفي هذا الوقت يسيرون حتى يكمل الخلق الذي قدره الله، فإذا كمل نفخ في الصور، وانتهت الدنيا عن آخرها، ولا يمكن أن يأتي شيء زائداً على ما كتبه في الأزل، وقسم عباده بعلمه، وليس بالعمل والفعل بين أهل الجنة وبين أهل النار، وقد علم من يكون في الجنة، وعلم من يكون في النار، وعلمه في هذا يقتضي أنه يعلم أنهم يفعلون الأفعال التي تكون سبباً لدخول النار باختيارهم وقدرتهم وإرادتهم، لا أحد يكرههم

---

(١) أخرجه أحمد، والترمذي (٢١٤١) وقال: حسن صحيح غريب، وابن أبي عاصم (٣٤٨).

. . . .

على ذلك، والكتابة لا تُكره أحداً ولا ترغم أحداً، لأنها مبنية على علم الله في هذا المخلوق، وأنه سوف يخلق، وسوف يختار العمل الذي يكون سبباً لدخوله النار، والمخلوق الآخر في مقابله علم أنه سيوجد، وأنه سيعمل العمل الذي يكون سبباً لدخوله الجنة باختياره وقدرته.

فالذي يقول: إذا كنت مكتوباً في الأزل أني من أهل النار، فما الفائدة في كوني أعمل؟ هذا جهل وضلال، أنت أمرت بشيء تستطيعه، وحدد لك، وأمرت بالشيء الذي لا يخرج عن طاقتك، فيجب أن تعمل، أما إذا عاندت وكابرت فمعنى ذلك أنك تريد أن تسوغ عنادك وإباءك، وتجعل اللوم على الكتابة، هذا جهل وضلال.

ولهذا الصحابة ﷺ لما أخبرهم الرسول ﷺ بذلك زادوا عملاً، لما قال: «كلٌّ قد كتب مقعده في الجنة أو في النار» قالوا: إذاً فيم العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»(١) ولا أحد يدخل الجنة إلا بعمله، ولا يدخل أحد النار إلا بعمل، ليس هو بمجرد الكتابة، ولكن الكتابة معناها أن الله علم بعلمه المحيط أن هذا الرجل سيوجد، ويعمل باختياره وقدرته العمل الذي يكون بسببه يدخل النار، والآخر الذي يقابله كذلك،وكتب ذلك بناء على علمه، ثم الذي يقول هذا يقال له: اطلعت على الغيب؟ اطلعت على ما في اللوح المحفوظ؟ حتى تقول: إنه كتب لي كذا وكذا، أنت أمرت بالاجتهاد وأخذ الحيطة، وألا تقع في حبائل

---

(١) ورد هذا المعنى في أحاديث متعددة، منها: ما اتفق عليه الشيخان من حديث عمران بن حصين ﷺ، قال: قيل يا رسول الله! أ عُلم أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: «نعم» قيل: ففيم يعلم العاملون؟ قال: «كل ميسر لما خلق له» أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب جف القلم على علم الله، ح (٦٥٩٦)، ومسلم، كتاب القدر، ح (٢٦٤٩).

قال أبو سعيد: فهؤلاء قد كتبهم الله بأسمائهم التي كان في علمه أن يسمّيَهم بها آباؤهم وأمهاتهم قبل أن يَخْلُقَهم، فما قَدَرَ الآباء لتلك الأسماء تبديلاً، ولا استطاع إبليس لمن هدى الله منهم تضليلاً.

وسئل رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»(١). فرد أمرهم إلى سابق علم الله فيهم قبل أن يخلقوا، وقبل أن يعملوا.

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «يكتب بين عيني المولود ما هو لاقٍ قبل أن يولد، حتى النكبةُ يُنْكَبُها»(٢).

الشيطان الذي يريد منك ذلك، وعندك العقل، والقدرة، والاختيار، فإذا أبيت فاللوم عليك، وليس على الكتابة، ولا غيرها، أما كون الإنسان يقول: أنا أؤمن بما كتب، نقول: نعم آمن، ولكن افعل السبب، اعمل السبب الذي تنجو به، واجتهد فيه، ولا يمكن أن يعذب الله جل وعلا بمجرد الكتابة والعلم أبداً، وإنما يعذب بالعمل.

ولهذا يقول: «فإن أحدكم يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا شبر أو ذراع [هذا تقدير] ثم يعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» يعني يختم له بذلك، وبالعكس.

قوله: «**النكبة**» يعني كونه يعثر في المشي ونحو ذلك، وكذلك حتى الشوكة التي يشاكها، معناه أن كل ما يلاقيه العبد فإنه مكتوب، ومعلوم

---

(١) تقدم قريبا.
(٢) سيأتي تخريجه قريبا.

عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله ﷻ أن يخلق النسمة، قال مَلَكُ الأرحام مُعْرِضاً: يا رب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي الله أمره، ثم يقول: يا رب، شقي أم سعيد؟ فيقضي الله أمره، ثم يكتب بين عينيه ما هو لاق، حتى النكبةَ يُنْكَبُها»[١].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: ثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث

أن الشيء الذي لا حيلة للإنسان فيه غير مؤاخذ عليه، وقد يكون له فيه ثواب وأجر إذا احتسب ذلك وصبر، وآمن بتقدير الله، فيكون رفعةً له عند الله جل وعلا.

وقوله: «**ثم يكتب بين عينه**» الكتابة التي تكون بين عينيه معناها أنه لا بد أن يصيبه ذلك، وإلا فالكتابة في الصحيفة التي بيد الملك، كما في حديث عبد الله بن مسعود الذي بعده، وأخبار الرسول ﷺ لا تتضارب، بعضها يصدق بعضاً.

حديث ابن مسعود رضي الله عنه جعله العلماء ربع الإسلام، وبعضهم جعله ثلث الإسلام، فهو أصل عظيم، يجب أن يتفهم ويتبع، حيث إن فيه ذكر التقدير، والذي يكون إليه مآل الإنسان، وفيه علم الله بكل شيء.

وقوله: «**الصادق المصدوق**» الصادق في خبره، المصدوق فيما يأتيه من الله، المصدوق من الله جل وعلا، فلا يأتيه إلا الصدق والحق.

وقوله: «**إن أحدكم يجمع في بطن أمه... إلخ**» يعني الأطوار التي ذكرها ربنا جل وعلا للخلق: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٤]، أي طور ماء،

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٤/ ٥٤)، وابن أبي عاصم (١٨٥٠١٨٢)، والآجري (ص ١٨٤).

الله ملكاً، فيؤمر بأربع كلمات، فيقول: اكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أم سعيد، فإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيغلب عليه الكتاب الذي سبق، فيختم بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيغلب عليه الكتاب الذي سبق، فيختم بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة»[١].

وطور دم، وطور لحم، وعظم، وإنشاء، وهذا الحديث ذكر أن خلق الإنسان ونفخ الروح فيه يكون الطور الثالث، وأربعين يوماً وأربعين يوماً فيكون النفح بعد مضي ثمانين يوماً على الأقل.

ولهذا بنى الفقهاء على هذا أحكاماً بناءً على ذلك، وقالوا: لو سقط الحمل قبل واحد وأربعين يوماً أو ليلة، فليس له حكم عندهم، أي أنه لا يعتد به، والمرأة لا تنظر إلى عادة، ولا تترك الصلاة ولا الصوم ولا غير ذلك، أما إذا كان بعد إحدى وثمانين ليلة، فله حكم الولادة، وبعض العلماء ينازع في هذا، لأنه جاء في صحيح مسلم حديث حذيفة: «إذا مضى اثنتان وأربعون على وضعه في الرحم أتى إليه ملك فنفخ فيه الروح»[٢]، فهذا هل يخالف هذا الحديث؟ ليس هذا محل بسط.

والشاهد من الحديث الإيمان بالقدر، ولكن لكثرة الحاجة إلى مثل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ح(٣٢٠٨)، ومسلم، كتاب القدر، ح(٢٦٤٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب القدر، ح (٢٦٤٥).ولفظه: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً، فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب أجله، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقه، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص».

عن علي رضي الله عنه، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، قال: فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا، ومعه مخصرة، فنكس، فجعل ينكُتُ بمخصرته، ثم قال: «ما منكم من أحد من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة أو النار، وإلا قد كتبت شقية، أو سعيدة». قال: فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتاب ربنا وندع العمل، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ قال: «اعملوا، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل الشقاوة». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ إلى قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ ـ ٦، ١٠][(١)].

هذا، ولكونه قد يحدث للمرأة أمور تشكل في هذا الباب، فينبغي أن ينظر فيه للحاجة إليه، فالآن الذي تقرر عند الأطباء أن النساء تختلف، منهن من يتبين خلق الجنين بعد خمسة أسابيع، ومنهن من يتأخر، وخمسة أسابيع تساوي خمسة وثلاثين يوماً، ومنهم من يقول: بعد الأربعين، والأطباء يقولون: يتبين خلقه واضحاً، فيكون هذا موافقاً لحديث حذيفة رضي الله عنه، والله أعلم.

قوله: «**مخصرة**» يعني: عوداً في يده.

قوله: «**فنكس**» يعني: نكس رأسه إلى الأرض.

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾ إلى قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ الآية تدل على أنه لا بد من العمل، وأن الله لا يأخذ إلا بالعمل، ولكن التيسير بيد الله، ييسر هذا لما فيه سبب النجاة والسعادة، والآخر ييسر له

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩﴾، ح (٤٩٤٨)، ومسلم، كتاب القدر، ح (٢٦٤٧).

عن عمر بن الخطاب ﷺ، يقول: سألت رسول الله ﷺ فقلت: أرأيت ما نعمل، أفي أمر قد فُرِغَ منه أم أمر مبتدَع، أو مبتدَأ، فقال: «فيما قد فرغ منه». فقال عمر: أفلا نتكل؟ فقال: «اعمل يا ابن الخطاب، فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فهو يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء، فهو يعمل للشقاء»(١).

قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللهُ: ومن فَرَغَ منه إلا من قد عَلِمَه قبل أن يكون، ومن ييسرهم لما خلقهم له إلا من قد عَلِمَ ما هم عاملون قبل أن يخلقهم؟ فسبحان من لا يستحق أحد أن يكون كذلك غيره، وتعالى علواً كبيراً.

فيقال لمن رد ما ذكرنا من كتاب الله وهذه الأخبار، ولم يقر لله بعلم سابق: أرأيت الله يعلم أن الساعة آتية؟ فإن قال: لا، فقد فارق قوله، وكفر بما أنزل الله على نبيه ﷺ، وكذب بالبعث، وأخبرك أنه نفسه لا يؤمن بقيام الساعة. وإن قال: يعلم الله أن الساعة آتية، فقد أقر بكل العلم، شاء أو أبى. ويقال له أيضاً: أعَلِمَ الله قبل أن يخلق الخلق أنه خالقهم؟ فإن قال: لا، فقد كفر بالله العظيم، وإن قال: بلى! فقد أقر بالعلم السابق، وانتقض عليه مذهبه في رد علم الله، وهو منتقض عليه على زعمه.

ما فيه سبب الشقاء والعذاب، فالأمر يرجع إلى الله جل وعلا.

المقصود: أن إنكار العلم كفر بالله جل وعلا، وهو من أوضح الأشياء التي يقر بها المسلمون لله جل وعلا، صفةً له أزلاً وأبداً وحالاً.

---

(١) أخرجه أحمد (١/٣٢٦ ح ١٩٦)، والترمذي، ح (٢١٣٥) وقال: حسن صحيح، وابن أبي عاصم (١٦٣، ١٦٤) والآجري (ص ١٧١).

. . . .

إذا كان هؤلاء لا يقرون بعلم الله فكيف يقرون بكلام الله جل وعلا؟

ولكن مثل ما مضى أبو سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ يرد عليهم؛ خوفاً من أن هذا الكلام وهذا الباطل والكفر قد ينطلي على بعض عوام الناس أو خواصهم، وإن كان خواصهم لا يخاف عليهم في هذا، ولكن العوام الذين لا يميزون بين الضلال الخفي وبين الحق، هم الذي يخاف عليهم، فيبين لهم هذا الأمر.

وهم لا يقولون: إن الله يتكلم، وإنما يقولون: إنه خلق الكلام، كما هو معلوم من مذهبهم ومشهور، وقد استولوا على خليفة المسلمين في عصرهم، وحسنوا له هذا المذهب الخبيث، ثم قالوا له: إن هذا أمر واجب فينبغي أن تلزم الناس به، والذي لا يلتزم به من العلماء اقتله، وإثمه علينا ليس عليك إثم، هكذا كانوا يقولون له، فهذا ـ نسأل الله العافية ـ من الجرأة على الله جل وعلا، ومن الضلال البين، وإلا فمثل هؤلاء هل يقال: إنهم يؤمنون بالجزاء؟ ويؤمنون بأنهم سيلاقون الله، ويحاسبهم؟!!





باب الإيمان بكلام الله تبارك وتعالى

قال أبو سعيد: فالله المتكلم أولاً وآخراً، لم يزل له الكلام، إذ لا متكلم غيره، ولا يزال له الكلام إذ لا يبقى متكلم غيره، فيقول: ﴿لِمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: ١٦] أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ فلا ينكر كلام الله ﷻ إلا من يريد إبطال ما أنزل الله ﷻ، وكيف يعجز عن الكلام من علّم العباد الكلام، وأنطق الأنام؟.

قال الله في كتابه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النّساء: ١٦٤]. فهذا لا يحتمل تأويلاً غير نفس الكلام.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فهذا لا يحتمل تأويلاً غير نفس الكلام**» ما السبب في كونه لا يحتمل تأويلاً غير نفس الكلام؟ لأن الفعل إذا أكد بالمصدر فلا يحتمل إلا الحقيقة، إذا قلت مثلاً: ضربت ضرباً، فضرباً مصدر، فإذا قلت: ضربت فلاناً، قد يحتمل أن ضربك باليد، ويحتمل أن ضربك بالكلام، ضربته بكلام أوجعه، ولكن إذا قلت: ضربته ضرباً، فهذا لا يحتمل إلا أنه ضرب للجسد، بِعَصاً، أو بيده، أو غيره، فهنا قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، فتكليماً مصدر أكد الفعل، فلهذا كانت هذه الآية مما لا يستطيعون تأويلها.

جاء أحدهم إلى أبي عمرو بن العلاء أحد القراء الكبار المعروفين، وقال له: أريد أن تقرأ ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، بنصب «اللهَ»، ما معنى هذا؟ معناه أن يكون موسى هو الفاعل، فقال له: أيها الرجل،

وقال لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]. وقال: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]. وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]. وقال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤]. وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

هب أني قرأت كما تريد، كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فَبُهِتَ! لأن هذه لا تحتمل أي تأويل[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني أن اليهود يسمعون كلام الله الذي يتلوه عليهم موسى، وليس المراد أنهم يسمعون كلام الله من الله.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ ومعلوم أنهم بدلوا كلام الله، ومقصوده: أن هؤلاء يقولون الكلام مخلوق، والله أخبرنا أنه ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ فالخلق لا يبدل، ولكن الكلام يمكن يبدل، ففرق بين هذا وهذا.

والنصوص مليئة بما يوضح أنه كلام الله، فإذا أخبرنا ربنا جل وعلا أنه كلامه وجب علينا أن نؤمن بأنه يتكلم، وأن هذا كلامه الذي هو التوراة والإنجيل والزبور، وما أنزل من الكتب، هي كلامه جل وعلا تكلم بها باللغات المختلفة، وكذلك آخر الكتب التي أنزلها على نبينا ﷺ القرآن، تكلم به باللغة العربية، فتحدى الناس أن يأتوا بمثله، وما

---

(١) ذكرها ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية (٣/٣٠٣)، وابن القيم في الصواعق المرسلة (١٠٣٧/٣).

وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصافات: ١٧١].

وقال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧].

قال عبيد بن عمير الليثي في تفسيرها: قال آدم لربه، وذكر خطيئته: رب، أشيء كتبته علي قبل أن تخلقني، أم شيء ابتدعته؟ فقال: بل شيء كتبته عليك قبل أن أخلقك، قال: فكما كتبته علي فاغفره لي، قال: فهؤلاء الكلمات التي قال الله ﷻ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧][1].

استطاع أهل الفصاحة والبلاغة واللَّسَنِ أن يأتوا بشيء منه، مع شدة عداوتهم لمن جاء به، ومحاولتهم لكل ما يستطيعون به إبطال دعوته، ووقفوا عاجزين، لأنه كلام الله، ولا يمكن أن يكون كلام البشر، بل هو كلام رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ الكلمات التي تلقاها لم يذكرها الله جل وعلا في هذا الموضع، ولكنه ذكرها في موضع آخر من القرآن، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، هذه الكلمات التي تلقاها، الله جل وعلا ألهمه ذلك، أن يرجع إلى ربه ويتوب، ويقر بالإساءة ويندم، ثم يطلب من ربه العفو، بخلاف الشيطان فإنه استكبر وأبى، فلهذا تاب الله على آدم عليه السلام، فمن رجع إلى الله وتاب فقد شابه أباه آدم، ومن تمادى في المعاصي فإنه يكون متبعاً لعدوه.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١/ ٢٤٤)، وأبو نعيم (٣/ ٢٧٣).

قال أبو سعيد: فسئل النبي ﷺ عن آدم، فقال: «كان نبيا مكلما».

وقال الله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠] .

وقال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨].

وقال لقوم موسى حين اتخذوا العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩﴾ [طه: ٨٩].

وقوله ﷺ: «**كان نبياً مكلماً**»؛ لأن الله كلمه بدون واسطة، وهذا ظاهر، أن الله جل وعلا لما خلقه علّمه أسماء كل شيء، وقال: اذهب إلى الملائكة وسلم عليهم واستمع ما يقولون لك، تحيتك وتحية أبنائك، ثم قال له: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩]، من أي مكان من الجنة، فهي مباحة لكما إلا شجرة بعينها، عين له شجرة بعينها، قال: هذه لا تقربها فتكون من الظالمين، فلم يزل به الشيطان يقسم له ويأمره، حتى أكل منها، فلما أكلا منها بدت لهما سوءاتهما، وكان قبل ذلك على سوءاتهما نور لا ترى، فلما أكلا من هذه الشجرة التي نهيا عنها انكشفت عورتهما، فطفق يأخذ من ورقة الشجرة، ويلزق على عورته هو وزوجه، فهذه من آثار المعاصي، آثارها وشؤمها قريب جداً، وكل ذلك بتقدير الله جل وعلا.

ولكن آدم عليه السلام اعترف بذنبه، وأقر بإساءته، واستغفر، وطلب من ربه جل وعلا التوبة، فتاب الله عليه، وأما الشيطان ففرح بهذا، وباء بالخسران، واللعنة، والطرد، والإبعاد، ولا بد أن يأتي من بني آدم من يشابه الشيطان ويكون تبعاً له، ومن يشابه أباه ويتبعه، ولا يسلم أحد من الذنب أبداً، ولكن من رحمة الله جل وعلا أنه يقبل التوبة، ويفرح بتوبة التائب.

وقال: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

قال أبو سعيد: ففي كل ما ذكرنا تحقيق كلام الله وتثبيته نصا بلا تأويل، ففيما عاب الله به العجل في عجزه عن القول والكلام بيان بيّن أن الله ﷻ غير عاجز عنه، وأنه متكلم وقائل، لأنه لم يكن يَعيب العجل بشيء هو موجود به.

وقال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]. فلم يَعِبْ إبراهيم أصنامهم وآلهتهم التي يعبدون بالعجز عن الكلام إلا وإن إلهه متكلم قائل.

ففيما ذكرنا من ذلك بيان بين لمن آمن بكتاب الله، وصدق بما أنزل الله. وقال الله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩] .

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ﴾ [لقمان: ٢٧].

وصدَق وبلّغ رسول الله ﷺ، لو جمع مياه بحور السماوات والأرض وعيونها، وقطعت أشجارها أقلاماً لنَفِدَتِ المياه وانكسرت

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ وجه ذلك أن الكلام صفة كمال، فالذي لا يتكلم ولا يرجع، ولا يجيب المكلم، ناقص، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ يعني أنه لا يجيب، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، فدل على أن الإله الحق يجب أن يكون متكلماً، ومجيباً لمن يسأله، ويملك الضر لمن يكفر به، ويملك النفع لمن يؤمن به، وإن لم يكن كذلك فلا يستحق العبادة.

الأقلام قبل أن تنفَدَ كلمات الله، لأن المياه والأشجار مخلوقة، وقد كتب الله عليها الفناء عند انتهاء مدتها، والله حي لا يموت، ولا يفنى كلامه، ولا يزال متكلماً بعد الخلق، كما لم يزل متكلماً قبلهم، فلا ينفَدُ المخلوق الفاني كلام الخالق الباقي، الذي لا انقطاع له في الدنيا والآخرة، ولو كان على ما يذهب إليه هؤلاء الجهمية أنه كلام مخلوق أضيف إلى الله، وأن الله ﷻ لم يتكلم بشيء قط، ولا يتكلم بشيء قط، ولن يتكلم، لنَفِدَ كل مخلوق من الكلام قبل أن ينفَدَ ماء بحر واحد من البحور، لأنه لو جمع كلام خلق الله كلهم من الجن والإنس والملائكة والطير والبهائم كلها، وجميع أعمالهم، وكتب بماء بحر واحد من البحور، لكتب كل ذلك ونفد قبل أن ينفد ماء بحر واحد، ولا عُشْرُ بحر واحد، ولكنه كلام لا انقطاع له، فلا ينفد ما لا يفنى، وينقطع ما يبقى.

ثم الأحاديث عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين فمن بعدهم، جمة كثيرة متظاهرة بتحقيق كلام الله وتثبيته، وسنأتي منها ببعض ما حضر إن شاء الله.

قوله: «**لَنَفِدَتِ المياه، وانكسرت الأقلام، قبل أن تنفد كلمات الله..**»، وهذا تقريب للأفهام، وإلا لو كانت بحور لا عدد لها، ولا حصر لها، لنفِدت قبل أن ينفد كلام الله، لو قدر أنها مداد للأقلام، وإنما ذكر الشيء الذي نعرفه نحن، وهو أن الأشجار التي توجد في الأرض كلها لو جعلت أقلاماً، يعني كل غصن منها قلم، أو عدد من الأقلام، والأبحر الموجودة على وجه الأرض تُمَدُّ بسبعة أبحر مثلها، لتكسرت الأقلام يعني فنيت، وانتهت، ونَفِد ماء البحر، وكلام الله باقٍ لا ينفد، لأن الله جل وعلا حيٌّ لا يموت، وهو أول بلا بداية، وآخر بلا نهاية، فلا ينفد وإنما ينفد المخلوق، والبحار كلها مخلوقة، والأشجار مخلوقة.

عن جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ يعرِض نفسه على الناس بالموقف، فيقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلمات ربي»[(١)].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شَغَلَه قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[(٢)].

عن شهر بن حوشب، أن رسول الله ﷺ قال: «إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه»[(٣)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرحمن على سائر خلقه»[(٤)].

عن جابر بن عبد الله، يقول: نظر إليَّ رسول الله ﷺ، فقال: «يا جابر، ما لي أراك مهتماً؟». قال: قلت: يا رسول الله، استُشْهد أبي، وترك ديناً عليه وعيالاً، فقال: «ألا أخبرك؟ ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كِفاحاً، فقال: يا عبد، تَمَنَّ عليَّ أُعْطِكَ قال: يا رب تحييني، فأُقْتَلَ فيك الثانية، فقال الرب

قوله: «**أبلغ كلمات ربي**» وفي رواية: «أبلغ كلام ربي»[(٥)] يعني: يبلغ القرآن الذي أوحاه الله إليه، قريش منعته من هذا فيما بينه وبينها.

---

(١) أخرجه أبو داود، ح (٤٧٣٤)، والترمذي، ح (٢٩٢٥) وقال: حس صحيح، وابن ماجه، ح (٢٠١).

(٢) أخرجه الترمذي، ح (٢٩٢٦) وقال: حسن غريب.

(٣) أخرجه الدارمي (٢/ ٤٤١).

(٤) أخرجه أحمد في السنة (ص ٢٢)، والبيهقي في الأسماء (ص ٢٣٩).

(٥) تقدم تخريجه، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٣/ ٣٧٠) ح (١٥١٩٢)، والدارمي، (٤/ ٢١١٠).

تبارك وتعالى: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب، فأبلغ من ورائي». قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ حتى أنفذ الآية [آل عمران: ١٦٩](١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لقي آدم موسى، فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسكنك الجنة، وأسجد لك ملائكته، ثم فعلت ما فعلت، فأخرجت ذريتك من الجنة؟ فقال آدم: يا موسى، أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته، وكلمك وقربك نجياً، وآتاك التوراة، فبكم تجده كتب علي العمل الذي عملت قبل أن يخلقني؟ قال: بأربعين سنة. قال: فبم تلومني يا موسى؟». قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»(٢).

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، أي أنهم يأكلون ويشربون ويتمتعون، ولكن هذا شيء لا نعقله، ولا نعرفه، فهم أحياء عند ربهم ﷻ.

ونهانا أن نقول في الآية الأخرى لمن يقتل في سبيل الله: إنه ميت، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة]، لا نشعر ما هي هذه الحياة، وهي حياة أكمل من الحياة التي قتلوا فيها، أي: من حياة الدنيا، والحياة التي بعدها الكاملة التي بعد البعث هي أكمل وأتم.

قوله: «**فحج آدم موسى**» يعني: غلبه بالحجة.

---

(١) أخرجه الترمذي، ح(٣٠١٠) وحسنه، وابن ماجه، ح(١٩٠، ٢٨٠٠)، والحاكم (٣/ ٢٠٤) وصححه وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾، ح (٣٧٣٨)، مسلم، كتاب القدر، ح (٢٦٥٢).

عن جُندب، عن النبي ﷺ قال: «لقي آدم موسى». فذكر مثله، إلا أنه قال: «وكلمك وآتاك التوراة، وقربك نجياً؟ قال: نعم، قال: فأنا أقدم أم الذكر؟ قال: الذكر». قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى». ثلاثاً[١].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، وزاد فيه: «أنْ يا موسى، أرأيت ما علم الله أنه سيكون، بد من أن يكون؟»[٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى عليهما السلام، فقال موسى: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه؟ فقال له قولاً كبيراً، لا أحفظه: أغويت الناس، وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته، وكلمك تكليماً، تلومني أن أعمل عملاً قد كتبه الله علي قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى»[٣].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى قال: يا رب أرنا آدم الذي أخرَجَنا ونفسَه من الجنة. فأراه الله آدم، فقال: أنت أبونا آدم؟ فقال: نعم، قال: الذي نفخ الله

قول موسى عليه السلام: «**أرنا آدم..**» من المعلوم أن هذا الذي قاله موسى عليه السلام وهو حي، يسأل ربه أن يريه آدم، فأراه آدم، يجوز أن تكون هذه الرؤية في المنام، ومنام الرسل وحي، والرؤية في المنام أن يراه ويكلمه

---

(١) حديث جندب، أخرجه ابن أبي عاصم (١٤٣)، والآجري (ص ١٨٠)، والطبراني (٢/ ١٧١ ـ ١٧٢).

(٢) أخرجه النجاد (٣٢، ٣٦). والحارث في مسنده، انظر: «بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث» ح(٧٣٩).

(٣) تقدم.

فيك من روحه، وعلمك الأسماء كلها، وأمر الملائكة فسجدوا لك؟ قال: نعم، قال: فما حملك على أن أخرجتنا من الجنة ونفسك؟ فقال له آدم: ومن أنت؟ قال: أنا موسى، قال: أنت نبيُّ بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: وأنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب، لم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟ قال: نعم، قال: فهل وجدت في كتاب الله أن ذلك كان في كتاب قبل أن أخلق؟ قال: بلى! قال: فبم تلومني على شيء سبق من الله ﷻ القضاء فيه قبلي؟» .

فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «فحج آدم موسى». صلوات الله عليهما[١].

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، في حديث الشفاعة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فيأتون إبراهيم، فيقول: ليس ذلكم عندي، فانطلقوا إلى موسى، فإن الله كلمه تكليماً، فيقول موسى: ليس ذلكم عندي»[٢].

ويخاطبه، وقد يكون رأى الروح نفسها، مثلما رأى الرسول ﷺ الأنبياء في منازلهم التي أنزلهم الله إياها في السماء، كل واحدٍ كلمه وردَّ عليه السلام، وعرف أن هذا فلان، وهذا فلان من صورته، حتى قال: «رأيت يوسف قد أُعطي شطرَ الحسن»[٣]، «ورأيت إبراهيم فأشبه الناس به صاحبكم» يعني نفسه... إلخ[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود، ح (٤٧٠٢)، وابن أبي عاصم (١٣٧)، وابن خزيمة (ص ١٤٣ - ١٤٤)، وغيرهم .

(٢) تقدم.

(٣) متفق عليه من حديث أنس. وقد تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإيمان، ح (١٧٢).

عن عبادة بن الصامت، يقول: إن النبي ﷺ خرج فقال: «إن جبريل أتاني فقال: اخرج فحدث بنعمة الله التي أنعم بها عليك، فبشَّرَني بعشر لم يُؤْتَها نبيٌّ قبلي: بعثني إلى الناس جميعاً، وأمرني أن أنذر الجن، ولقّاني كلامه وأنا أمّيٌّ، قد أوتي داود الزبور، وموسى الألواح، وعيسى الإنجيل»[١].

عن عطية ـ وهو ابن قيس ـ أن النبي ﷺ قال: «ما من كلام أعظمَ عند الله من كلامه، ما رد العباد إلى الله كلاماً أحب إليه من كلامه»[٢].

عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد، فجلست إليه، فقلت: أيّ الأنبياء كان أولاً؟ قال: «آدم». قلت: ونبياً كان؟ قال: «نعم، نبياً مكلماً»[٣].

عن أبي أمامة، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، قال: يا نبي الله، أنبياً كان آدم؟ قال: «نعم، مكلماً». قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون»[٤].

عن ابن عباس، عن جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، أن النبي ﷺ خرج ذات يوم من عندها، فخرج وهي في المسجد، ثم

قوله: «**نبيا مكلماً**» يعني أن الله كلمه بدون واسطة، وإلا فإن الله يوصل كلامه للرسل كلهم، ولكن بواسطة جبريل عليه السلام.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الخصائص الكبرى للسيوطي (٣/ ١٣٤ ـ ١٣٦).
(٢) أخرجه الدارمي (٢/ ٤٤٠)، والبيهقي في الأسماء (ص ٢٤٤).
(٣) أخرجه الطيالسي (٢٠١٣)، والطبراني في الأوسط كما في المجمع (٨/ ١٩٨)، والبيهقي في الشعب (١/ ٨٥).
(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وعنه البيهقي في الأسماء (ص ٢٠٦)، والطبراني (٨/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

رجع بعدما تعالى النهار، فقال: «ما زلت في مجلسك هذا منذ خرجتُ بعد؟». قالت: نعم، فقال: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، ولو وُزِنَ بكلماتك وَزَنَتْهن: سبحان الله وبحمده، عَدَدَ خلقِه، ورِضى نفسه، وزِنَة عرشِه، ومِدادَ كلماته»[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»[2].

عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم». قال: قلت: من هم؟ خابوا وخسروا، قال: فأعادها ثلاثاً، فقلت: من هم؟ خابوا وخسروا، قال: «المُسْبل، والمَنَّان، والمُنْفِقُ سِلعته

قوله: «**مداد كلماته**» يعني أنها المداد الذي لا يفنى، لأن كلماته لا تفنى.

قوله: «**ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول**» هذا الشاهد، ومعنى هذا للمستقبل، فهو قال ويقول متى شاء، فهو يتكلم جل وعلا بمشيئته، والكلام صفة فعل، وقد يكون صفة ذات، فبالنظر إلى أنه جل وعلا يتكلم متى شاء، تكون صفة فعل، وبالنظر إلى أصل اتصاله بالكلام فهو صفة ذات، ولهذا يقول العلماء في تعريف الكلام، يقولون: جنسه قديم، لأنه جل وعلا لم يزل يتكلم، وحاله تتجدد توجد حيث يشاء، ولهذا يكلم رسله، ويكلم ملائكته، وسيكلم عباده يوم القيامة، ويكلم أهل الجنة، وإذا شاء أن يتكلم تكلم، لا يمنعه أحد تعالى الله وتقدس.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ح (٢٧٢٦).

(٢) أخرجه البخاري، ح (٤٨١٢، ٦٥١٩، ٧٣٨٢)، ومسلم، ح (٢٧٨٧).

بالحَلِفِ الكاذب، أو الفاجر»[١].

عن جابر بن عبد الله، قال: صلى رسول الله ﷺ على الشهداء كلهم يوم أحد، فرجعت وأنا مُثْقَل، قد ترك أبي علي ديناً وعيالاً، فلما كان عند الليل أرسل إليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «يا جابر، إن الله قد أحيا أباك وكلَّمَه». قال: قلت: وكلمه كلاماً؟ قال: «وكلمه كلاماً، فقال له: تَمَنَّ قال: أتمنى أن تُرَدَّ روحي، وتَنْشُرَ خَلْقي كما كان، وتُرجِعَني إلى نبيك، فأقاتلَ في سبيلك، فأُقْتَلَ مرة أخرى»[٢].

قوله: «**المسبل**» يعني: المسبل ثيابه، سواء كان إزاراً أو قميصاً أو غيره، فالإسبال هو الذي يكون تحت الكعبين، كما هو معروف.

قوله: «**المنان**» الذي إذا أعطى الشيء، منَّ به وصار يعدده، ويمتن على الآخذ به، فيكون هذا شراً من العطاء، والقول المعروف خير من المن الذي يعطى به إنسان، ثم يمنُّ عليه، كما أخبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٣].

قوله: «**والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»، الإنفاق معناه أن يرغّب الناس بشرائها، فيحلف كاذباً بأن هذه السلعة شُريت بكذا، أو أنه أعطي بها كذا.

فهؤلاء جزاؤهم أن الله لا يكلمهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم.

قوله: «**أتمنى أن ترد روحي**» يعني لما رأى من الفضل والخير الذي أعطاه الله جل وعلا، تمنى أنه يقتل مرةً أخرى في سبيل الله جل وعلا، وهذا لا يكون؛ لأن الله كتب أنهم لا يرجعون إلى الدنيا إذا ماتوا، وإنما يحيون للآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، ح (١٠٦). (٢) تقدم.

عن أبي الزعراء، قال: قال عمر رضي الله عنه: «إن هذا القرآن كلام الله، فلا أعرفنكم ما عطفتموه على أهوائكم، إلا أن يكفر به عمد عين»[١].

عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «هدي وكلام، فخير الكلام كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ»[٢].

عن عبد الله، قال: «القرآن كلام الله، فمن قال فيه فليعلم ما يقول، فإنما يقول على الله»[٣].

سبق أن من صفات الله جل وعلا التكلم، وأن الكلام أمر ضروري، لأن إثبات الكلام له جل وعلا أمره واضح وضروري، بالنسبة للعبد المسلم الذي يؤمن بالله ويتبع الرسول ﷺ، لأن كلام الله جل وعلا يكون به الخلق والأمر، يخلق بكلامه، ويأمر وينهى بكلامه، فكلامه به الخلق، إذا أراد شيئاً قال له كن، فيكون، وكذلك إرسال الرسل بكلامه، وشرعه لعباده بالكلام. فالذي ينفي الكلام عن الله جل وعلا يلزمه ألا يكون الله جل وعلا آمراً، ولا شارعاً، ولا مرسِلاً أحداً من الرسل، وكذلك ألا يكون خالقاً، لأن الله جل وعلا أخبرنا أنه إذا أراد شيئاً، قال له كن، فيكون، وإثبات الكلام لله جل وعلا من باب الكمال، فالذي يتكلم أكمل من الذي لا يتكلم، وإذا كان ابن آدم لا يتكلم فهو ناقص، إما أنه أخرس لا يستطيع الكلام، وإما لأن عنده عِياً لا يستطيع أن يعبر عما في نفسه.

---

(١) مسند عبد الله بن أحمد (ص ٢١)، والبيهقي في الأسماء (٢٤٢)، والآجري (ص ٧٧).

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء (ص ١٨٩) بألفاظ مقاربة مطولاً.

(٣) خرجه البيهقي في الأسماء (ص ٢٤١)، وعبد الله بن أحمد (ص ٢١).

عن ابن عباس، قال: أخبرني رجال، من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنهم بينا هم جلوس مع النبي ﷺ رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟». قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: ولد الليلة عظيم، ومات عظيم، فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا حياة أحد، ولكنما ربنا إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم يسبح أهل السماء الذين يلونهم، ثم يسبح الذين يلونهم، حتى بلغ التسبيح أهل السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش: ما قال ربكم؟ فيخبرونهم بتسبيح أهل السماوات، حتى يبلغ الخبر أهل هذه السماء الدنيا، فيتخطف الجن السمع، فيذهبون به إلى أوليائهم، فإذا جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يرقون فيه». يعني يقرفون[(١)].

فبهذا يعلم أن إثبات الكلام من صفات الكمال، فنفيه عن الله جل وعلا نقص، ولكن هل المسلم يتعمد أن ينفي شيئاً من هذا القبيل، دون أن يكون عنده دليل وبرهان من الله ومن رسوله ﷺ؟ ويجرؤ على الله جل وعلا فيقول: إنه لا يفعل كذا، ولا يكون له كذا، من جراء ما يعتقده هو؟ أظن هذا لا يحدث إلا من جاهل قد بلغ الجهل به الغاية، وإما زنديق يريد أن يفسد دين المسلمين إذا استطاع، وبغير ذلك لا يكون.

أما قولهم: إن الكلام يتطلب أموراً يجب أن يتنزه الله عنها، من جنس ما يعرفونه في الشاهد، كقولهم: إنه يتطلب لساناً ولَهَاةً وحَنْجَرة وحِبالاً صوتية وشفتين... إلخ، ما الجواب عن هذا؟

الجواب هو أن هذا المخلوق الضعيف المسكين هو الذي يتطلب هذا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب السلام، ح (٢٢٢٩).

. . . .

الشيء، أما ربنا فهو كامل، له الكمال المطلق، ثم هذا من باب التشبيه وإن لم ينطقوا به، فهم شبهوا كلام الله بكلام المخلوق المعهود لهم، فنفوا الكلام على هذا الأساس، أساس التشبيه، فيكون الباعث للنفي والتعطيل هو التشبيه، ولهذا يقول بعض العلماء: «كل معطل مشبه» لأنه شبه أولاً، ثم دعاه التشبيه إلى التعطيل، وإن لم يتكلم بالتشبيه[١]، هذا شيء.

الشيء الثاني: أن هذا ليس لازماً، فالله أخبرنا عن أشياء كثيرة أنها تتكلم، وأنها تسبح بحمده، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، كالحصى، والشجر، وغيرها، وليس لها ألسنة، وليست لها لَهاة، وأخبرنا جل وعلا أنه إذا كان يوم القيامة يختم على أفواه بعض الناس، ويأمر أعضاءهم أن تتكلم، يتكلم السمع، والبصر، واليد، والرجل، والجلد كلها تتكلم، كيف تتكلم؟ هل لها لسان؟ ولها حَنْجَرة؟ ولها أسنان أو لَهاة؟ كلا، فإذا كان الكلام في المخلوق نفسه لا يلزم عليه هذا الذي ذكروه، أي لا يستلزم أن يكون للمخلوق الذي يتكلم هذه الأشياء، فكيف برب العالمين الذي ليس كمثله شيء؟ تعالى الله وتقدس.

كذلك أخبرنا الله جل وعلا أن الأرض سوف تحدث أخبارها، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة: ١ ـ ٤]، الأرض تحدث، الأرض عامةً، في أشياء كثيرة من هذا القبيل، كلها تبطل هذا الزعم الكاذب.

شبهة أخرى: تقول المعتزلة: الكلام يكون له مبدأ، وله متوسط، وله

---

(١) تقدم عزوه.

....

منتهى، فإذا قلت: بسم الله الرحمن الرحيم، فالباء تكون قبل السين، هذا أمر معروف، والسين قبل الميم، والميم قبل اللام، الخ، يقولون: وهذه تتطلب زمناً، حينما تقول: بسم الله، فكونك بدأت بالباء، ثم بعدها السين، فالباء أخذت زمناً، والسين أخذت زمناً بعدها، وهكذا، وهذه حوادث، والله لا تَحُلُّ به الحوادث .

مثل هذه الأمور التافهة يعطل بها صفة لله؟! وهي كلها قياس على ما يحدث من المخلوق، هل هذا مقبول؟ كل هذا تشبث بالباطل، وكما يقولون: تغبير في وجه الحق لا يضره، والله جل وعلا أخبرنا أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا في ذاته، ولا في أوصافه، وكلامه جل وعلا من كماله، فلا يجوز أن نلتفت إلى ما يقول هؤلاء المشبهة المعطلة، الذين يصفون الله جل وعلا بما يصفون به المخلوق الضعيف، مهما صوروا ذلك، وصاروا ينفون صفات الكمال عنه.

وأما هذا الحديث الذي فيه: «إنه رمي نجم فاستنار» فسألهم: «ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟» المقصود بسؤاله ﷺ أن يخبرهم بالحق الذي من أجله ترمى الكواكب، والكواكب هنا هي الشهب، وأما الكواكب التي هي كواكب تسير وترى فهذه لا يرمى بها، وإنما يرمى بشيء منها، كما أخبر الله جل وعلا أنه جعل النجوم زينة للسماء، ورجوماً ترجم بها الشياطين، وكذلك علامات يهتدى بها، فهذه ثلاث علل ذكرت في القرآن في خلق النجوم، وإن كانت في منظر العين فقط يرى أنها في السماء، ولا يلزم أن تكون معلقة في السماء، ولكنها في رأي العين إذا نظر إليها بدت كأنها في السماء وتكون كالمصابيح في البيوت، فهي زينةٌ للسماء وعلامات، لأنها على جهات معينة دائماً، إذا عرفها الإنسان عرف الجهات.

....

وقد كان الناس قديماً يسيرون في الليل على النجوم، لأنهم يعرفونها تماماً، فيهتدون بها، كما أخبر الله جل وعلا بذلك، وهي رجوم للشياطين. فقالوا: نقول إذا رمي بشيء منها: ولد عظيم، أو مات عظيم، فقال: «إنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى العَنان»، أي: السحاب، يعني: يقربون منه، والله أعطاهم هذه المقدرة، يركب بعضهم على بعض، حتى يستمع الأعلى إلى ما تتكلم به الملائكة الذين في السحاب، فيخطف الكلمة ثم يرسلها إلى من تحته بسرعة قبل أن يصيبه الشهاب، وهم يعلمون أنهم يخاطرون بأنفسهم بهذا الأمر، ولكنهم حريصون على ضلال بني آدم حتى يَدَّعوا دعوى الغيب، ليضلوا الناس من خلال الكهان، كل ذلك لأجل إغواء بني آدم، فيرسل الشهاب إليه، قد يصيبه ويقتله، وقد يذهب عقله فيكون لا عقل له، وقد يصيبه جراح، فيصبح غير قادر على الذهاب والمجيء، وقد يخطئه، وكل ذلك بأمر الله جل وعلا، فإذا وصلت الكلمة إلى من في الأرض ذهب بها مسرعاً إلى الكاهن، وأقرها في أذنه، وزاد معها مائة كلمة، ثم هو يحدث الناس بهذا الكذب الذي قال له الشيطان، فيصدقون كذب الكهان من أجل الكلمة التي سمعت من الملائكة، ولما بعث الرسول ﷺ صاروا لا يستطيعون أن يستمعوا شيئاً، كما قال الله جل وعلا عن الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ١ ـ ٩].

فلما صار هذا «رجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض

عن مسروق، عن عبد الله رضي الله عنه، قال: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصلةً كجر السلسلة على الصفوان. قال: فيفزعون، يرون أنه من أمر الساعة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]»(١).

ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء»(٢).

وذلك حتى لا يَخْطَفوا شيئاً من القرآن الذي تتكلم به الملائكة، فيأتون به إلى الكهنة، فيصير ذلك فتنة لبعض الناس، ويقال: إن هذا الذي يقوله محمد ﷺ قاله الكاهن، فهو من جنس ما تقوله الكهنة، فمُنِعوا أساساً، ثم لما انتهى الوحي عاد الأمر إلى ما كان سابقاً، فهي الآن ترمى بها، وتشاهد الآن، لأنه وإن كانت الكهنة خفت وليست كالسابق، وقد كان العرب قديما يفتخرون إذا كان عندهم كاهن.

فالمقصود من سياق الحديث هنا: أن الله جل وعلا يتكلم، لأنه قال: إن الملائكة تستمع إلى كلام الله، ثم تتحدث به، وهذا لا يكون إلا في الكلام الذي يسمع، ويقال، وينقل، ويكتب، فكلامه جل وعلا كلام حقيقي، يتكلم به، ويسمعه من أراد جل وعلا أن يسمعه من ملائكته، ثم يرسل به إلى أهل السماء وأهل الأرض، على ما يشاء ربنا جل وعلا.

حديث ابن مسعود رضي الله عنه أيضاً في نفس السياق، يقول: «إذا تكلم الله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر، ح (٧٧٣)، ومسلم، كتاب الصلاة، ح (٤٤٩) من حديث ابن عباس.
(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القرآن، ح (٤٧٣٨).

. . . .

بالوحي سمع أهل السماوات صلصلةً كجر السلسلة على الصفوان»، السلسلة معروفة، سلسلة الحديد إذا جرت على الصفوان يكون لها صوت، «فيفزعون ويرون أنه من أمر الساعة» يعني يخافون أن الله أمر إسرافيل أن ينفخ في الصور، «حتى إذا فزع عن قلوبهم» يعني يفزعون ويخافون فيصعقون من سماع كلام الله، فهم يسمعون الكلام ولكن لا يفقهونه، لكنهم علموا أنهم سمعوا كلام الله، فالتشبيه هنا، في قوله: «كجر السلسلة على الصفوان» تشبيه للصوت الذي سمعوه كأنه جر سلسلة على صفوان، فسمعوا شيئاً علموا أنه هو كلام الله، ولكنهم ما فهموه، فلهذا يصعقون خوفاً من أن يكون الله جل وعلا أمر بقيام الساعة، وذلك لأنه إذا قامت الساعة، حوسبوا فيخافون من الله أشد الخوف مع أنهم يعبدون الله جل وعلا ليلاً ونهاراً، لا يفترون عن العبادة، ولا يعصون الله ما أمرهم، ولكن كل من كان بالله أعلم كان له أخوف، ولأمره أقوم، فهم يخافون مع القيام بما أمروا به أتم القيام، ومثل هذا يجب أن يقال لبني آدم الذين يعصون الله، فالملائكة خِلقَتُهم وقدرتهم أكبر وأتم من بني آدم بكثير، ولا نسبة بينهم في ذلك، ومع ذلك يخافون هذا الخوف، «فإذا فزع عن قلوبهم» يعني: ذهب الفزع عن قلوبهم والخوف، صار بعضهم يسأل بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فعلموا أن هذا قول الله.

فتبين أن الله يتكلم بكلام يسمع، تسمعه الملائكة، فينتهي السؤال إلى جبريل، وجبريل هو الذي يتولى إبلاغ كلام الله، فيقول جبريل: قال الحق، فيقولون كلهم: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيدل على امتثالهم، وأنهم لا يَتَقَصَّوْنَ الأمر، فقط إذا قيل لهم: قال الحق، قبلوا هذا، وقالوا: قال الحق، وهو العلي الكبير، ففيه دلالة ظاهرة على أن الله يتكلم، وأن كلامه تسمعه الملائكة، أما الذي يقول: إن الصوت

عن ابن عباس، قال: «إن الله ﷻ إذا تكلم بالوحي سمعوا مثل سلسلة الحديد على الصفوان، فخروا سُجَّداً، فـ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سَبَإ: ٢٣]، ثم ينزل الشيطان إلى الأرض، فيزيد فيها سبعين كذبة»[١].

عن فروة بن نوفل، قال: كنت جاراً لخَبّاب رضي الله عنه، فخرجنا معه يوماً إلى الجمعة، فأخذ بيدي، فقال: «يا هَناهْ! تقرب إلى الله ما استطعت، فإنك لن تقرب إلى الله بشيء أحبَّ إليه من كلامه»[٢].

للسماء، فهذا بعيد جداً فالصوت الذي يسمع هو كلام الله جل وعلا كما دل عليه ظاهر الحديث.

وقوله: «**فخروا سجداً**» ومعلوم أن الملائكة لا يخرون ولا يسجدون لصوت السماء،؛ لأنه لو كان السجود لصوت السماء لكان السجود لمخلوق، وإنما يسجدون ويخرون لكلام الله جل وعلا؛ خوفاً من الله.

وقوله: «**سبعين كذبة**» هذا ليس على سبيل الحصر، فالمراد التكثير، ولهذا جاء في الحديث الآخر: «يكذب معه مائة كذبة»[٣]، وإنما المقصود التكثير.

كلام خباب رضي الله عنه، يقول فروة: «**كنت جاراً لخباب** رضي الله عنه»، يقول: «**فأخذ بيدي يوماً، وكنا ذاهبين إلى الجمعة، قال: يا هَناهُ**» أي: يا هذا.

قوله: «**تقرب إلى الله ما استطعت، فإنك لن تتقرب إلى الله بشيء أحب**

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد (ص ٦٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في السنة (ص ٢٠)، وفي الزهد (ص ٣٥)، والحاكم (٢/ ٤٤١) وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الأسماء (ص ٢٤١).

(٣) هذا لفظ البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ح (٣٢١٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله، عن حديث عائشة حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله منه، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى من بعض، زعموا أن عائشة... قالت: «لَشَأْني كان أحقرَ في نفسي من أن يتكلم الله فِيَّ بأمرٍ يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها»[١].

عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ أتي بلديغ، فقال: «لو قال: أعوذ

إليه من كلامه» يعني بالقرآن، لأن القرآن هو أحب ما يتقرب به إليه، بتلاوته مع التدبر والعمل، وفي رواية: «وما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه»[٢]، خرج منه يعني تكلم به، وهذا يدل على أن الصحابة ﭫ فهموا هذا على ظاهره، ولا يتأولون ولا يحرفون.

قول عائشة ﭬ: «شأني في نفسي أحقر من أن يتكلم الله في كلاماً يتلى»، والمعنى أن الصحابة مجمعون على أن الله يتكلم حقيقة، ولا إشكال عندهم في هذا، ولا شك ولا تردد، وهكذا المسلمون كلهم، حتى ظهر أهل الضلال والبدع الذين يريدون أن يبدلوا الفِطَر، ويريدون أن يبدلوا دين الله، فأنكروا ما هو أظهر شيء من صفات الله جل وعلا وهو الكلام، كما أنهم أنكروا الصفات الأخرى.

قوله: **«أتي بلديغ»**، لديغ يطلق على من لدغته الحية، ومن لدغته

---

(١) أخرجه البخاري، ح (٢٢٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠)، ومسلم، ح (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦/ ٢٤٤) (٢٢٣٠٦)، والترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب، ح (٢٩١١)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٥١)، وابن بطة في الإبانة (٥/ ٢٣١)، من حديث أبي أمامة ﭬ.

وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر أمره. اهـ. وانظر: السلسلة الضعيفة (٤/ ٤٢٥).

بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم تضرُّه»[١].

العقرب، أو غيرهما من ذوات السموم، وقوله: «**لو قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**»، **لم تضره**»، يعني وإن لدغته لا تضره، وهذا فيه فوائد:

الأولى: أن «لو» هذه ليس منهياً عنها مطلقاً، لأنه جاء النهي عن قول لو، وأنها «تفتح عمل الشيطان»[٢]، ولكن هذا في التحسر عند إصابة شيء، أو وقوع شيء، فيقول «لو» يعتقد أنه يمكن أن يتغير الواقع، يقول: (لو فعلت كذا لم يكن كذا، لو أني فعلت كذا ما صار هذا الذي جرى) فهذا لا يجوز بحال من الأحوال، وهذا هو المنهي عنه، أي إذا اعتقد أن الواقع يمكن أن يتغير، أو يقولها هذا على سبيل التحسر، وسبيل الاعتراض، فهذا أيضاً لا يجوز بحال من الأحوال، فهو من الذنوب ومن الجرائم، أما إذا كان لأجل إظهار حكم وبيانه مثل هذا الحديث، أو لأجل الإخبار عما يعتقده وما سيفعله، كأن يقول: «لو وقع كذا لقلت كذا أو لفعلت كذا»، كقوله ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة»[٣]، وبيان الحكم كقوله ﷺ: «لو كنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمت هذه»[٤]، ومثل هذا.

الثانية: أن الله يتكلم بكلام هو صفته، وأنه يجوز أن يُتعوَّذَ به، وقد علم المسلمون أنه لا يتعوذ بمخلوق، لأنه من تعوذ بمخلوق فقد أشرك،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ح (٢٧٠٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، باب نهي النبي ﷺ على التحريم إلا ما تعرف إباحته، ح (٧٣٦٧)، ومسلم، كتاب الحج، ح (١٢١٦) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري، كتاب التمني، باب ما يجوز من اللو، ح (٧٢٣٨)، ومسلم، كتاب الطلاق، ح (١٤٩٧) من حديث عبد الله بن شداد عن ابن عباس.

....

لأن الاستعاذة عبادة فيجب أن تكون لله.

الثالث: أن لله كلمات، وأنها توصف بأنها تامة، وتمامها من أوجه: تامة في الصدق، وكذلك في الحكم، فهي صدق في الخبر، وعدل في الحكم، وقد تكون أيضاً تامة لا يمكن أن تتخلف، وكلمات الله تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: كلمات دينية أمرية شرعية، يأمر بها وهي دين، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]... إلخ، كل أمر ديني يأتي فهو من كلام الله، يأتي فيه الأمر والنهي.

القسم الثاني: كلمات هي كونية قدرية، وهي التي جاء الاستعاذة أيضاً بها في قوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها»...[1] إلخ، والكلمات الكونية هي التي يكون بها الأشياء، وكلها من صفات الله ﷻ، ويستعاذ بها كاستعاذتك باسم الله وبصفته تعالى وتقدس، فهي من صفات الله.

قوله: «**لم تضره**» يعني لو لدغته لا تضره، وهذا أيضاً جاء في حديث خولة: «إذا نزل أحدكم منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٥١)، وأحمد (٢٤/ ٢٠٠) (ح ١٥٤٦٠)، وأبو يعلى في المسند (١٢/ ٢٧٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٧٢) من حديث عبد الرحمن بن خنيس، مختلف في صحبته. انظر: الإصابة لابن حجر (٤/ ٢٥٤) وقال: «المعتمد على من جزم له بالصحبة». اهـ.

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الفزع: «أعوذ بكلمات الله التامة، من غضبه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يَحْضرون»[(١)].

عن جرير، عن محمد بن إسحاق، بإسناده، إلا أنه قال: «من غضبه، وعقابه، وشر عباده»[(٢)].

عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يُعوِّذ حسناً وحسيناً، فيقول: «أُعيذُكما بكلمات الله التامة، من شر كل شيطان وهامّة، ومن كل عينٍ لامّة». وكان يقول: «كان أبوكما يُعوِّذ بها إسماعيلَ وإسحاق»[(٣)].

من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من ذلك المنزل»[(٤)]، وإذا قدر أنها تلدغه فلا تضره، ولكن يجب أن يقوله عن إيمان وصدق، أما إذا قاله يريد الاختبار والتجربة فلا تنفعه، إذ لا بد أن يكون ذلك مصدقاً جازماً بما قاله المصطفى ﷺ.

قوله: **«من شر عباده»**؛ لأن الشر في العباد، وهذا مثل ما سبق من أن الشر لا يضاف إلى الله، وإنما يأتي على أوجه ثلاثة: إما أن يدخل في عموم المخلوقات كقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، أو أنه يحذف فاعله كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠]، أو أنه يضاف إلى المخلوق كما في هذا الحديث «من شر عباده»، وفي رواية: «من شر ما خلق»، أي: من شر المخلوق، وفي القرآن: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق].

قوله: **«أبوكما»** يعني: إبراهيم عليه السلام، وإن كان جدهم البعيد، ولكن

---

(١) أخرجه أبو داود، ح (٣٨٩٣).
(٢) أخرجه الترمذي، ح (٣٥٢٨).
(٣) أخرجه البخاري، ح (٣٣٧١).
(٤) أخرجه مسلم ح (٢٧٠٨).

....

هو أبوهم فهو ـ أي نبينا ـ ابن لإبراهيم، وهو كما قال ﷺ لما سئل عن مبدأ أمره؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، حينما قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩]، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني أنه خرج منها نور أضاءت لها منه قصور الشام»[١].

فالمقصود: أنه ﷺ هو ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو ولد إسماعيل، وليس من إسماعيل نبي غيره، كان نبياً للعرب، أرسله الله جل وعلا إليهم، وأما ما يذكره بعض العلماء أن خالد بن سنان كان نبياً، لكن أهمله قومه، فهذا ـ والله أعلم ـ لا يصح، جاء في ذلك حديث يروى أنه نبي أضاعه قومه، لأنه كان عندهم في حرة من حراتهم نار تخرج من مكان ما، فقال: سوف أنزل على هذه النار، وبعد كذا وكذا تخرجوني وأخبركم بما سيكون إلى قيام الساعة، فلما نزل فيها أبوا أن يخرجوه، قالوا: لا نخرجه حتى لا يكون عاراً علينا، والله أعلم بهذا، والحديث فيه ضعف[٢].

المقصود: أن نبينا ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ لأن إسماعيل لما جاء به أبوه إلى مكة لم يعد إلى الشام، لهذا قولهم: إن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ح(١٧١٥٠)، والطبراني (٢٠٧٢) و(٢٠٧٣) وابن حبان(١٤/ ٣١٣)والحاكم ح(٣٥٦٦) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٨٠ و٢/ ١٣٠)، والآجري في «الشريعة» ص٤٢١ والبخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٦٨، ١٨٥).

(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة، (٢/ ٤٢١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٥٤) عن سماك بن حرب مرسلاً. قال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٥١): والمرسلات التي فيها أنه نبي لا يحتج به، والأشبه أنه كان رجلاً صالحاً له أحوال وكرامات.

عن أبي أمامة، عن أبي ذر، قال: قلت: أيُ النبيين أولاً يا رسول الله؟ قال: «آدم». قلت: أوَنبياً كان؟ قال: «نعم، مُكَلماً، خلقه الله بيده، وكلَّمه قِبَلاً، فقال: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البَقَرَة: ٣٥]»(١).

الذبيح إسحاق خطأ، لأن الذبيح كان في مكة كما هو معروف، والذي كان في مكة هو إسماعيل، وهو ابنه الكبير.

حديث أبي ذر ﷺ حديث طويل مشهور، وفيه أنه سأله عن النبيين وعددِهم، فقال: «إن الأنبياء مائة ألف وبضعة عشر ألفا، والرسل منهم ثلاثمائة وبضعة عشر، جماً غفيراً»(٢)، وعلى كل حال هذا الحديث ضعيف لا يثبت، والرسل أخبر الله جل وعلا أنه قص منهم عدداً، وعدد منهم لم يقصصهم على رسوله ﷺ، والواجب أن نؤمن بكل رسول أرسله الله جل وعلا ولو لم نعلمه، وسبق أن من كفر برسول فإنه يكفر بالرسل كلها.

وقوله: «**إن آدم نبي مكلم**» يعني أن الله خاطبه بدون واسطة، وهذا معنى كَلَّمه قبلاً، يعني مقابلة قابله فكلمه، فقال له: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥]، شجرة عينها لهما بعينها، وحذره من طاعة الشيطان، وبين لهما أن الشيطان عدو لهما، وأنه سوف يحاول أنه يصده، ولكن لا بد من وقوع القدر الذي قدره الله جل وعلا؛ لأن آدم خلق ليكون في الأرض هو وذريته، فلهذا وقع فيما وقع فيه، وأخرج من

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه أحمد (٣٥/٤٣١) (٢١٥٤٦)، وابن حبان (٢/٧٦، الإحسان) مطولاً، والحاكم (٢/٢٨٨) مختصرا، وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الهيثمي في المجمع (١/١٦٠): فيه المسعودي وهو ثقة، ولكنه اختلط. اهـ. وصحح الألباني ما يتعلق بعدد الرسل: الصحيحة (٦/٣٥٨).

عن عَدِيِّ بن حاتم رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان»[١].

عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، أو الفاجر»[٢].

الجنة، ثم لا يلزم أن تكون الجنة هي جنة الخلد، ولهذا اختلف العلماء فيها اختلافاً كبيراً، وكل جاء بحجج، كما ذكر العلماء ذلك في أماكنه، وكل قول له أدلة[٣].

قوله: «**ما منكم**» الخطاب لكل من اتبع الرسول ﷺ، من المسلمين والمؤمنين، فلا يدخل فيه الكفرة، فإن الله أخبر أنه يوم القيامة لا يكلمهم، ولا ينظر إليهم، وأنهم عن ربهم لمحجوبون، وتكليم الله لكل واحدٍ في آن واحد، في وقت واحد، وكل واحد يرى أنه يكلمه وحده، فهو يكلم جميع عباده على كثرتهم، وهذا يدلك على أن أفعال الله لا يجوز أن تشبه بأفعال المخلوقين الضعفاء.

قوله: «**المسبل، والمنان، والمنفق سلعته**» «المنفق» من النَّفاق، يعني الذي ينفق السلعة ويروجها بالأيمان، إما أن يحلف بأنه أعطي فيها كذا وكذا وهو كاذب، أو يحلف بأنه اشتراها بكذا حتى يرغب الناس فيها وهم لا يدرون، فهذا جزاؤه أن الله لا يكلمه، ولا ينظر إليه، أما المنان والمسبل فأمر ظاهر، لأن الحرمان خير من المن.

---

(١) أخرجه البخاري، ح (٦٥٣٩، ٧٤٤٣، ٧٥١٢) ومسلم، (١٠١٦).

(٢) تقدم.

(٣) انظر: حادي الأرواح لابن القيم (١/ ٤٧ وما بعدها) فقد عقد باباً لهذه المسألة وهو الباب الثاني في اختلاف الناس في الجنة التي أسكنها آدم عليه السلام، وأهبط منها، هل هي جنة الخلد أو جنة أخرى؟ وما بعده من أبواب.

عن عقبة بن بشير بن المغيرة بن بشير الأسدي، قال: سألت محمد بن علي بن الحسين الهاشمي، قال: قلت: يا أبا جعفر، من أول من تكلم بالعربية؟ قال: إسماعيل بن إبراهيم النبي، وهو يومئذ ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنة، قلت: فما كان كلام الناس قبل ذلك؟ قال: العبرانية، قلت: فما كان كلام الله الذي أنزله على رسوله وعباده ذلك الزمان؟ قال: العبرانية[1].

عن جَزْءِ بن جابر الخثعمي، أنه سمع كعب الأحبار، يقول: «لما كلم الله موسى بالألسنة كلها قبل لسانه، طفق موسى يقول: أي رب، ما أَفْقَهَ هذا، حتى كلمه آخر الألسنة بلسانه بمثل صوته، يعني بمثل لسان موسى، وبمثل صوت موسى»[2].

لهذا قال الله جل وعلا: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٣]، فالأذى هو المن، كمن يمن على من أحسن إليه بأن يعدد عليه فيقول: أنا أعطيتك، وأعطيتك، وفعلت، وفعلت. فالمنان توعد بهذا العقاب؛ لأن عطاءه يريده لنفسه، فَيَمُنّ عليه حتى يترفع عليه، ويكون خاضعاً له، ويكون شبه العابد له. والمسبل ورد فيه من الوعيد ما هو معلوم.

قوله: «**العبرانية**» يعني اللغة العبرية، والله أعلم هذه أمور لا ندركها وتحتاج إلى وحي، لا بد فيها من الوحي.

ثم ذكر كلام كعب الأحبار، وكلام كعب الأحبار يحتاج إلى دليل،

---

(١) ابن سعد في الطبقات الكبرى ط العلمية (١/ ٤٢). وساقه ابن الجوزي رحمه الله في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١/ ٣٠٥).

(٢) أخرجه أحمد وابنه في السنة (ص ٦٣)،وابن جرير (٦/ ٢٩، ٣٠)، والبيهقي في الأسماء (ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

....

وكثيراً ما يأتي بأمور لا يجوز أن تصدق، فهو كما قال معاوية رضي الله عنه كما في صحيح البخاري أنه كان ينهى عن سؤال أهل الكتاب، ويقول: «ما لكم تسألونهم، والله ما رأينا أحداً منهم يسألنا، وعندكم كتاب الله غضاً طرياً، ويقول: إن من أصدقهم كعباً، وإننا لنبلو عليه الكذب»، يعني أنه يأتي بشيء لا يصدق.

ولهذا غضب منه أبو هريرة لما حدثه عن النبي ﷺ، فذكر شيئاً من هذه الأشياء، فقال له: أحدثك عن النبي ﷺ وتحدثني عن صحفك[1].

فصار الأمر فيما يقوله كعب أننا لا نصدقه ولا نكذبه، إذا ما كان عندنا ما يكذبه، فنقول: الله أعلم، وهذه الإسرائيليات التي تذكر فيها ضرر كبير على كثير من المسلمين، لأن بعضهم يصدقها ويأخذها كأنها أحاديث، وكأنها أمور مسلمة، هذا لا يجوز، إذا جاء حديث عن كعب أو عن وهب بن منبه، أو نحوهما من الذين أسلموا من أهل الكتاب، ودخلوا في الإسلام، فهذا يجب أن يتوقف فيه، وكذلك عن غيرهم مما ينقل عن أهل الكتاب.

وقد أغنانا الله جل وعلا عن هذا القول الذي يقوله كعب بما أوحاه إلى نبينا ﷺ، وبما قاله رسولنا، والله جل وعلا ما ذكر أنه كلم موسى بالألسن كلها، إنما خاطبه بلسانه، قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

---

(١) هذا الخبر معروف في قصة عمران بن حصين مع بشير بن كعب العدوي، وقد أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، ح (٣٧)، وفيه أن عمران حدثه أن النبي ﷺ أنه قال: «الحياء لا يأتي إلا بخير» فقال بشير بن كعب: إنه مكتوب في الحكمة أن منه وقاراً ومنه سكينة، فقال عمران: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صحفك؟ اهـ.

عن قتادة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ بالقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصّلت: ٤١] أعزه الله، لأنه كلامه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ [فصّلت: ٤٢] وهو إبليس، لا يستطيع أن ينتقص منه حقاً، أو يزيد فيه باطلاً[1].

قال أبو سعيد رحمه الله: فهذه الأحاديث قد رويت، وأكثر منها ما يشبهها، كلها موافقة لكتاب الله في الإيمان بكلام الله، ولولا ما اخترع هؤلاء الزائغة من هذه الأغلوطات والمعاني يردون بها صفات الله، ويبدلون بها كلامه، لكان ما ذكر الله من ذلك في كتابه كافياً لجميع الأمة، مع أنه كافٍ شافٍ إلا لمُتأَوِّلِ ضلالٍ، أو مُتَّبع ريبةٍ، فحين رأينا ذلك ألَّفْنا هذه الآثار عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين من بعدهم، ليعلم من بقي من الناس أن من مضى من الأمة لم يزالوا يقولون في ذلك كما قال الله ﷻ، لا يعرفون له تأويلاً غير ما يتلى من ظاهره أنه كلام الرحمن تبارك وتعالى، حتى نبغ هؤلاء

قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ مطلقاً، ليس إبليس فقط، لأنه الحق، لأنه كلام الله جل وعلا، فهو ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، يعني: لا في أخباره المتقدمة التي يخبر بها، ولا فيما يستقبل من أخباره، وكذلك أوامره، فهو حق في أمره، وفي خبره، وصدق لا يخالف الواقع.

وقوله رحمه الله: «**لكان ما ذكر الله من ذلك في كتابه كافية لجميع الأمة**»، وهو كذلك كافٍ لجميع الأمة، لا نحتاج إلى كلام الناس وغيرهم، ولكن نحتاج إلى فهم، وأخذ ما قال الله، انقياداً لأمر الله بذلك، وأمره بتدبر كلامه، فلا ينفع إلا ذلك.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

الذين اقتربوا لرد كتاب الله ﷻ، وتعطيل كلامه وصفاته المقدسة بهذه الأغلوطات التي لو ظهرت على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه ما كان سبيلُ من يُظهرها بينهم إلا كسبيل أهل الردة، أولها هذه الكلمة الملعونة التي فارقوا بها جميع أهل الصلاة، فقالوا: كلام الله مخلوق. والحجج عليهم من رد ما أتوا به ما ذكرنا من كتاب الله، وروينا من آثار رسول الله ﷺ، ومن بعده.

يعني أن هذا لا يمكن أن يقع.

قوله: «**ائتوا فيه بكتاب ناطق، أو سنة عن المصطفى ﷺ**» معناه: ولن تأتوا بشيء من ذلك، ولن تستطيعوا ؛ لأن كتاب الله حق وقولكم باطل، ولا يمكن للحق أن يدل على الباطل، ويتكلم به، وينطق به، وهذا شيء يجب أن يجزم به ويقطع قطعاً، وإذا قيل: كلام الله مخلوق، وكلام الله صفة له، فهل يكون شيء من الله مخلوقاً؟ تعالى الله وتقدس!

فهذا هو الكفر الصريح، ولهذا كفرهم كثير من العلماء، فذكر ابن القيم أن الطبراني ذكر خمسمائة من العلماء كفروهم بأعيانهم(١)، خمسمائة إمام كفروا الجهمية لقولهم هذا القول، وإذا توقف الإنسان في تكفيرهم بدعوى أنهم لم يفهموا، فهل هذا مقبول؟ هذا قد يكون للمقلدة، الذين يقلدون من يتكلم بالكلام الذي لا يفهمونه، فمثل هذا يتوقف فيه حتى يتبين له الحق، فإذا تبين له يجب أن يكفر، ولكن يقال: هل هم كانوا مسلمين حتى يكفروا؟

الظاهر أنه مثل ما قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ فيما تقدم أنهم يتسترون بالإسلام، ويتعوذون به، إذ لو لم يفعلوا ذلك لقتلوا، فلهذا صاروا يتكلمون بالكلام الذي هو كفر بالله جل وعلا، ويريدون بذلك إفساد

---

(١) في نونيته الكافية الشافية (٤٢).

ثم عليهم حجج كثيرة من الكلام والنظر، لا نحب ذكر كثير منها، تخوفا من ألا تحتملها قلوب ضعفاء الناس، ولكن يكفي مَنْ نَظَرَ فيما ذكرنا من كتاب الله ﷻ، وروينا من هذه الآثار، أن يعلم أن مخالفة هؤلاء للأمة قديماً وحديثاً، فيقول لهم: وجدنا الله تعالى ورسوله ﷺ والأمة بعده سَمَّوْه كلام الله، وزعمتم أنتم أنه خلق الله؟ فكفى بهذا مخالفة لله، ولرسوله، وللأمة من بعده، أو ائتوا فيه بكتاب ناطق، أو أثر عن رسول الله ﷺ، أو أحد من أهل العلم أنه مخلوق، ولن تأتوا به أبداً، وكيف تأثرون الكفر عن رسول الله ﷺ،

العقائد، وسبق أننا قلنا: إن هذه الأمور تدل على أنهم لما واجهوا المسلمين بالجيوش وجهاً لوجه ما استطاعوا أن يقاوموا، فباؤوا بفشل في كل موقف، وكل مواجهة، وأخزاهم الله جل وعلا وخذلهم، ونصر المسلمين، فعند ذلك لجؤوا إلى الحيل والإفساد، كالعادة التي جرت من أهل الفساد، هكذا يتسترون، يدخلون في الإسلام وهم منافقون يبطنون الكفر وينكرون الموافقة، وإنما يريدون أن يخدعوا المسلمين، وأن يفسدوا فيما كان سبباً لنصرهم، والسبب في النصر هو عقيدتهم، واتباعهم لرسول الله ﷺ، فهذا هو أقرب ما يكون لوصفهم وحالهم. وبهذا نعرف لماذا يقولون: إن كلام الله مخلوق، ما الذي دعاهم إلى هذا، ثم يقولون: إن الله لا يُحِبُّ، ولا يُحَبُّ، ثم يقولون: لا يجوز أن يكون محبوباً، ولا يجوز أيضاً أن يُحبَّ أحداً، لأن المحبة هذه أصل الدين، ثم يبطلون كل صفة من صفات الله، إذاً معناه أن المسلمين يعتقدون شيئاً باطلاً، أو كفراً!! لأن عندهم أن مثل هذا كفر زعموا! فهؤلاء بعيد جداً أن يكونوا قصدوا الحق، وإنما كانوا قصدوا حرب الإسلام لظهور هذه الأمور ووضوحها.

قوله: **«تأثرون»** يعني: تروون.

وأصحاب رسول الله ﷺ، وأهل الإسلام بعدهم؟

فذهب بعضهم يحتج بتفاسير مقلوبة، وبمعان لا أصل لها من كتاب ولا سنة، ولا إجماع، إلا الكفر يقيناً.

قلت لبعضهم: دَعُوا هذه الأغلوطات التي نحن بها أعلم منكم، ولن يُنزلكم الله من كتابه بالمنزلة التي يُعتمَدُ فيها على تفسيركم، أو يُقبَل فيها شيء من آرائكم، وقد أتيناكم به منصوصا عن الله وعن

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «**دعوا هذه الأغلوطات التي نحن بها أعلم منكم**» كان بعض مشايخ الدارمي رَحِمَهُ اللهُ ينهاه عن هذا الكلام، فيقول: لا تكلمهم، ولا تخاطبهم، هؤلاء زنادقة، فتكليمك لهم ومخاطبتك لهم وردك عليهم ينشر مذهبهم، ويزيده انتشاراً، فأحسن أن يحتقروا ويتركوا في باطلهم ولا يكلموا، كانت هذه طريقة أكثر العلماء فيهم، فغضب عليه بعض مشايخه، وزجر عن ذلك.

ولكنه يقول: خشينا أن عوام المسلمين يغترون بهم، فتعين علينا أن نرد ونبين الحق، فهذه وجهة نظره، أن هذا حق قد يخفى من هذا الوجه على كثير من المسلمين، فيكون سبب ضلالهم، فانبرى لهم واحتج عليهم.

وقد سلك هذا المسلك أيضاً زميله البخاري، لأنه كان معاصراً له وأيضاً كان مزاملاً له في بعض البلاد، وفي بعض الطلب، فالبخاري لم تكن جرأته كجرأة الدارمي رَحِمَهُ اللهُ بالمواجهة، وبالكلام الذي يقوله هنا، وإنما كان يرد عليهم بالآيات والأحاديث، وجعل ذلك في آخر كتابه الصحيح، ثم لم يكتف بهذا، وألَّف كتاباً سماه: «خلق أفعال العباد»، وفيه الرد عليهم، وعلى غيرهم من أهل الكلام.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «**ولن ينزلكم الله من كتابه..**» هو بهذا يقول: إن الحجة

رسوله وعن الأمة بأجمعها أنه كلام الله حقاً، فهاتوا عن أحد منهم منصوصاً أنه خلق الله كما ادعيتم، وإلا فأنتم المفارقون لجماعة المسلمين قديماً وحديثاً، الملحدون في آيات الله، المفترون على الله وعلى كتابه ورسوله، ولن تأتوا عن أحد منهم.

أرأيتم قولكم: إنه مخلوق، فما بدء خلقه؟ قال الله له: كن، فكان كلاماً قائماً بنفسه بلا متكلم به؟ فقد علم الناس - إلا من شاء الله منهم - أن الله ﷻ لم يخلق كلاماً يُرى ويُسمع بلا متكلم به، ..

ليست المغالطات، وليست الادعاءات، مثل كونكم تدعون أن العقل يقول كذا، وأننا لو قلنا بكذا لكان كذا، هذا لا ننظر إليه ولا نلتفت إليه، وإنما الواجب أن تأتوا بآية من كتاب الله، أو بحديث عن رسول الله ﷺ، فالحجة فيما جاء به الرسول ﷺ، وليس في الدعاوى، والادعاء أن هذا عقل، أو هذا مثلاً وضعٌ، أو ما أشبه ذلك، وهذا حق، يجب أن يكون النص هو الذي يعتمد، لأن العقل لا ضابط له، كل أحد يدعي أن العقل دل على قوله، ولذا فهو لا ينضبط.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أرأيتم قولكم: إنه مخلوق، فما بدء خلقه..**» هم يأتون بشيء يتشبثون به، فيقولون مثلاً: الله جل وعلا يقول: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، والكلام شيء، فهو داخل في هذا، فهذه من العمومات، ويقولون: إننا سمعنا في كتاب الله أن الله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، والجعل هو الخلق، وربما يأتي الجواب عن هذا ولكن حتى لا تفوتنا المسألة نقول: إنهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، ويجعلون قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] دليلاً لهم على خلق القرآن يقولون هذا عام فيدخل فيه القرآن. فيقال لهم: القرآن كلام الله، وكلامه من صفاته والله ﷻ بصفاته أزلي لا أول له، ويقال لهم كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: فما صفة خلقه؟ هل قال له:

. . . .

كن فكان كلاماً قائماً بنفسه بغير متكلم به؟ فهذا غير معقول، أو أنه خلقه في جسم كالشجرة مثلاً فيكون كلاماً للشجرة وليس لله، وعلى هذا إذا قلتم إنه كلام الله كان هذا افتراء وكذباً على الله حيث أضفتم إلى الله كلاماً هو لغيره، وبهذا يتبين بطلان هذه الدعوة الباطلة.

وبهذه الحجة احتج عبد العزيز الكناني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى على بشر المريسي كما في الحيدة، قال: «يلزمك إذا قلت أنه مخلوق إما أن يكون خلقه في ذاته، فهذا محال؛ لأن الله ليس محلاً للحوادث، أو تقول: خلقه قائماً بنفسه، وهذا كذلك محال؛ لأن الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم، أو تقول خلقه في مخلوق مثل الشجرة أو غيرها فيكون كلاماً لذلك المخلوق، فبطلت هذه الدعوى».

وتعلق المبطلون بقوله تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، وزعموا أن (جعل) معناها: خلق مطلقاً، وكذبوا بذلك، فإن معنى جعل يتبين بما بعدها هل هي بمعنى: خلق أو بقى، أو صير، والتي بمعنى صير تتعدى إلى مفعولين كما هو معلوم، بخلاف التي بمعنى خلق فإنها تتعدى إلى مفعول واحد، لقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] يعني خلق الظلمات والنور، فهي تتعدى إلى مفعول واحد فقط. ثم إن ذلك لو طردوه يقال لهم: ما معنى قوله جل وعلا في إخباره عن عباده: ﴿جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، هل معنى جعلتم الله عليكم كفيلاً أي خلقتم الله؟! وكذلك قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: ٩١]، هل معناه خلقوا القرآن؟ لا، وإنما جعلوه حديثاً، وجعلوه مفرقاً في غير ما أنزله الله، ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩] أي: خلقوا الملائكة إناثاً؟ أم اعتقدوا ذلك وقالوا: إنهم أناث؟ وهذا كثير. فالمهم أنه كلام باطل يريدون أن يشبهوا به على المسلمين،

فلا بد من أن تقولوا في دعواكم: الله المتكلم بالقرآن، فأضفتموه إلى الله، فهذا أجور الجور وأكذب الكذب، أن تضيفوا كلام المخلوق إلى الخالق، ولو لم يكن كفراً كان مكذباً لا شك فيه. فكيف وهو كفر لا شك فيه، لا يحق لمخلوق يؤمن بالله واليوم الآخر أن يدَّعيَ الربوبية، ويَدْعوَ الخلق إلى عبادته، فيقول: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤]، و﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢]، ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ [طـه: ١٣]، ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾ [طه: ٤١-٤٢]..........................

وسيأتي الكلام على هذا. فالجعل يطلق على القول ويطلق على الاعتقاد الذي يعتقده المبطل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ في خطاب الله ﷻ لموسى لما خاطبه، هل هذا المتكلم خلق؟ أو هل الشجرة هي التي قالت: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾؟ على حسب ما زعموا، أن الله جل وعلا أخبر أنه كلمه من جانب الطور، من الشجرة التي في جانب الطور، وقال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾، فهل يمكن أن يقول مخلوق: فاعبدني؟ تعالى الله وتقدس، فكلها مغالطات ما عليها من دليل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ من الصنعة، وهي التربية، والتغذية، والرعاية، ولهذا جعله في بيت فرعون، وفرعون كان يحذر أن يكون بهذا المخلوق نهاية ملكه؛ لأنه قيل له: إن نهاية ملكك سيكون على يد رجل من بني إسرائيل، فاحذره على نفسك، فمن حكمة الله أنه تربى في بيته، وكان يأكل من طعامه، فعرفه من الصغر، وتربى عنده. ولهذا قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] يعني وأنت صغير،

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طـه: ٤٦]، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠-٦١].

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٩]، قصده قَتْلُه الرجل وهو قتل الرجل خطأ ؛ لأنه ضربه بيده ما يريد قتله، ولكنه مات، ثم فر منهم لحكمة أرادها الله ﷻ، وهي رعي الغنم، لأن الله ما بعث رسولاً إلا ورعى الغنم[1]، لأن الغنم تشبه بني آدم في ضعفها، وفي إحاطتها، وفي تدبيرها وغير ذلك، فلما أتى بعد الرسالة وتكليف الله له بدعوة فرعون، قال له هذا القول. فقال موسى عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ [الشعراء: ٢٢] نعمة واحدة تمن بها على بني إسرائيل، وقد عبدت بني إسرائيل يعني اتخذتهم عبيداً لك، تسخرهم فيما تريد، ويكون هذا مقابلاً لذلك؟! هذا جور وظلم .

المقصود: أن الكلام الذي جاء به موسى عليه السلام هو كلام الله، سمعه من ربه جل وعلا بلا واسطة، وموسى في الأرض، وربنا فوق عرشه، فوق سبع سماوات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ هذا تفسير للمعية، لما ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾، لأن فرعون طاغية، وقد يفرط ويقتل، ويبطش بكل سهولة، ولا أحد يحاسبه ولا أحد يمنعه، لأنه يقول للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] عالياً عليهم بالبطش والقهر والتسلط، فقال الله جل وعلا له: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ [طه: ٤٦] أنت وأخوك ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، فمفهوم هذا أنه يحفظهما، وأنه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، ح (٢٢٦٢).

قد علم الخلق ـ إلا من أضله الله ـ أنه لا حق لأحد أن يقول هذا وما أشبهه غير الخالق، بل القائل به والداعي إلى عبادته غير الله كافر كفرعون الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. والمجيب له والمؤمن بدعواه أكفر وأكذب.

وإن قلتم: إنه تكلم به مخلوق، فأضفناه إلى الله، لأن الخلق كلهم بصفاتهم وكلامهم لله، فهذا المحال الذي ليس وراءه محال،

يمنعه من فرعون أن يتسلط عليهما، فهو مع موسى وهارون دون فرعون، ليس مع فرعون. وهذا يدلك على أن المعية ليست معناها الاختلاط والامتزاج، وإنما معناها المصاحبة، والمصاحبة تختلف اختلافاً فيما أضيف إليها، لما قال هنا: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ اقتضى ذلك الحفظ والكلاءة، وأنه لا ينالهم شيء من فرعون، فكان فرعون يخاف، فإنه لما ألقى موسى العصا خاف من ذلك، وبدأ يهرب، ولكنه مات مكابراً.

قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ هذا لا يقوله إلا الله جل وعلا، فلا أحد يجرؤ على هذا، أما فرعون فيقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ لأنه علا عليهم، وتسلط عليهم، وصار يفعل ما يريد فيهم، يقتل من يشاء، ويترك من يشاء، فهو من المفسدين، كما قال الله جل وعلا عنه وعن وزرائه.

قوله: «**وإن قلتم: إنه تكلم به مخلوق**» يعني غير الله، تكلمت الشجرة، أو تكلم غيرها.

قوله: «**فأضفناه إلى الله**»، يعني نحن أضفناه وقلنا: إنه كلام الله، لأن الله هو الذي خلق المخلوق، هذا معنى كلامهم، فهو من التشبث بالشيء الذي قد يكون فيه شيء من الإجمال، أو من التعمية، لأن الخلق كلهم بصفاتهم وكلامهم لله، بمعنى أن الله خلقهم، فهذا من المحال

فضلاً على أن يكون كفراً؛ لأن الله ﷻ لم ينسب شيئاً من الكلام كله إلى نفسه أنه كلامه غير القرآن وما أنزل على رسله، فإن قد تم كلامكم ولزمتموه، لزمكم أن تسمُّوا الشعر وجميع الغناء والنوح وكلام السباع والطير والبهائم كلامَ الله! فهذا ما لا يختلف المصلون في بطوله واستحالته.

فما فضل القرآن إذاً عندكم على الغناء والنوح والشعر، إذ كان كله في دعواكم كلام الله؟! فكيف خص القرآن بأنه كلام الله؟ ونسب كل كلام سواه إلى قائله؟ فكفى بقوم ضلالاً أن يَدَّعوا دعوى لا يشك الموحدون في بطوله واستحالته.

وما يزيد دعواكم تكذيباً واستحالة، ويزيد المؤمنين بكلام الله إيماناً وتصديقاً، أن الله ﷻ قد ميز بين من كلم من رسله في الدنيا وبين من لم يكلم، ومن يكلم من خلقه في الآخرة، ومن لم يكلم، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٣]. فميز بين من اختصه بكلامه وبين من لم يكلمه. ثم سمى ممن كلم موسى، فقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النِّسَاء:

الذي لا وجود له، ولا يقع.

يقول: «**هذا من المحال**» وجه كونه محالاً، أنه لا يمكن أن يقول المخلوق: أنا الله، أو يقول: اعبدوني، أو ما أشبه ذلك، أو يقول: أنا ربكم، أو ما أشبه ذلك، فهو محال من هذه النواحي.

تكرر قوله: «**في بُطوله**» ومقصوده بطلانه، وبطوله لغة فصحى، وهو أبلغ من قولك: باطل؛ لأن «بطولاً» مصدر بطل يبطل بطولاً.

«**واستحالته**» أي أنه مستحيل، كل هذه الدعوى مستحيلة، لأنها خلاف ما أخبر الله جل وعلا به، ولا يمكن أن تكون.

١٦٤]، فلو لم يكلمه نفسه إلا على تأويل ما ادعيتم فما فضل ما ذكر الله من تكليمه إياه على غيره ممن لم يكلمه؟ إذ كل الرسل في تكليم الله إياهم مثل موسى، وكلٌّ عندكم لم يسمع كلام الله، فهذا محال من الحجج، فضلاً عن أن يكون رداً لكلام الله وتكذيباً لكتابه، ولم يقل: ﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٣] إلا وإن حالتيهما مختلفتان في تكليم الله إياهم. فمما يزيد ذلك تحقيقا قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٧٧]، يعني يوم القيامة، ففي هذا بيانٌ بيّن أنه لا يعاقب قوماً يوم القيامة بصرف كلامه عنهم إلا وإنه مثيب بتكليمه قوماً آخرين.

قوله: «**فما فضل ما ذكر الله من تكليمه إياه على غيره ممن لم يكلمه**» هذه حجة، وهي أن الله جل وعلا فرق بين رسله، فبعضهم كلمه وبعضهم أوحى إليه.

والمقصود: كلّمه أي: بلا واسطة، وهذا حصل لآدم عليه السلام، وحصل لموسى ولنبينا ﷺ لما عرج به، فإن الله كلمه، كما هو واضح في قصة المعراج، كان يتردد بين موسى وبين ربه، فيقول: «يارب خفف عني»، فيحط عنه... إلخ[1] .

وإذا كان الله فرق بين من كلّمه وبين من أوحى إليه، فيدل هذا على أنه يتكلم حقيقة، وأن كلامه يسمع، والكلام المعقول لا يكون إلا بحرف وصوت، وأما التأويلات الباطلة فهي لا تنحصر في شيء، لأن كُلًّا له تأويله، وكُلًّا له منهج في تحريف كلام الله جل وعلا، وكلام رسوله ﷺ، ولكن المسلم يجب أن يكون مقصوده الحق، وإذا تبين له الحق يجب ألا يعدل عنه لكلام أحد من الناس، ولاسيما إذا كان الذي يتكلم تبين أن

---

(١) تقدم.

ثم قد ميز رسول الله ﷺ بين من يكلمه الله يوم القيامة وبين من لا يكلمه، فمن ذلك ما روينا في هذا الباب عن عَدِي بن حاتم، عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة»[(١)].

والحديث الآخر: ما روينا عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة»[(٢)].

ففي هذين الحديثين أيضاً بيانٌ بيّن على نفس كلام الله ﷻ أنه يكلم أقواماً ولا يكلم آخرين، ولو كان كما ادعيتم كان المثابُ بكلام الله والمعاقبُ به المصروفُ عنه سواءً عندكم. ألا ترى أن أبا ذر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن آدم صلوات الله عليه: أنبياً كان؟ قال: «نعم، مكلّماً»[(٣)].

فهذا ينبئك أنه أراد نفس كلام الله، لا كلام من سواه، ولو كان مكلما بكلام المخلوقين في دعواكم لم يكن فيه كبير فضيلة لآدم على غيره من الخلق، لأن عامة الخلق يكلم بعضهم بعضاً، فهم مكلمون، فما فضل آدم هذا عندكم على من سواه من ذريته؟ وقد قال تبارك وتعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البَقَرَة: ٣٧].

مراده التحريف والتعمية، أو مراده أن يضل الناس، فهذه مصيبة.

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ يعني: أن التلقي يقتضي المشافهة، أي أنه سمع منه الذي تلقاه وقبله، وهذا في الظاهر، ويجوز أن يكون أيضاً التلقي بالإيحاء والإفهام، لكن هذا ليس ظاهراً في التكليم، ولكن الظاهر هو ما أخبر به الرسول ﷺ أي بالنسبة لآدم.

---

(١) تقدم. (٢) تقدم.

(٣) تقدم.



باب الاحتجاج للقرآن أنه غير مخلوق

هذه مسألة أخرى، وهي أخص من الأولى، فالأولى نفي الكلام عن الله تعالى الله وتقدس، فهذا كفر بالله ﷻ، أما هذه المسألة فهي أخص من تلك، وهي فيمن جعلوا القرآن مخلوقاً، ومن المعلوم والمتقرر شرعاً أن القرآن بعض كلام الله جل وعلا، وليس هو كلامٌ الله كله، والله جل وعلا لم يزل يتكلم، ولا أحد يحجر عليه تعالى وتقدس، فإنه إذا أراد أن يتكلم تكلم، فكلامه كما أخبرنا ﷻ بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]، فهو من صفاته.

لهذا يقول العلماء: جنس الكلام أزلي، ومعنى أزلي أنه لا مبدأ له، أي مع الله، لأن صفات الله معه، لا يكون اكتسب الصفة بعد أن لم تكن له تعالى الله وتقدس، فهو قديم أزلي بصفاته، ثم يقولون أيضاً: وأفراده متجددة، أي: أنه إذا شاء أن يتكلم تكلم، وآخر كتاب أنزله هو القرآن، فهو كلامه ﷻ حقيقة، وهؤلاء الجهمية يقولون: إن القرآن مخلوق، وقولهم باطل، ولكن هل هذا القول انتهى وأصبح لا فائدة في ذكره؟ فكانت مقالة قيلت في وقت ما، وأصبح ليس هناك من يقول بها ويعتنقها، فلا فائدة في ذكرها، بل يجب أن تترك؟!

الواقع أنه لا يزال يقول بها كثير من الناس، والمقصود بالناس: العلماء، ليس عامة الناس، فإن عامتهم على الفطرة، إذا سمعوا القرآن، قالوا: هذا كلام الله جل وعلا، فالله يتكلم يخاطبهم، والله فطر الناس

قال أبو سعيد رحمه الله: فمن ذلك ما أخبر الله تعالى في كتابه عن زعيم هؤلاء الأكبر، وإمامهم الأكفر، الذي ادعى أولاً أنه مخلوق، وهو الوحيد، واسمه الوليد بن المغيرة، فأخبر الله عن الكافر دعواه فيه، ثم أنكر عليه دعواه، وردها عليه، ووعده النار إن ادعى أن قول الله قول البشر.

وقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٥]، وقول هؤلاء الجهمية: هو مخلوق، واحد لا فرق بينهما، فبئس التابع، وبئس

على هذا؛ ولكن المقصود العلماء، ومنهم علماء الأشاعرة والماتريدية، فعندهم الكلام هو المعنى القائم بذات الله جل جلاله، بل يقولون: إنه معنىً واحد قائم بذات الله، ولهذا يقسمون الكلام، فيقولون: الكلام ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: كلام لفظي حرفي، يعنون أنه يُتلفظ به، ويكتب بالحروف ويسمع، وهذا ينفونه عن الله جل وعلا.

القسم الثاني: كلام معنوي، وهو الذي يثبتونه لله جل وعلا.

فالأول يجعلونه مخلوقاً، ولهذا يقول الجويني في كتابه «الإرشاد»[(١)]: «لا خلاف بيننا وبين المعتزلة، فالخلاف في مسألة القرآن أو الكلام خلاف لفظي». نحن نتفق معهم. فالمعتزلة يقولون: القرآن مخلوق، وهو قصده أن الكلام الحرفي اللفظي مخلوق، وهذا مثل ما يقول الشيخ هنا: لو أن العالم بذلك يقوله فإنه يكون كافراً، ولكن إذا قامت مثل الشبه والأمور التي تحول بينه وبين معرفة الحقيقة لا يكفر، وإنما يكون هذا ضلالا يجب أن يتنبه الإنسان أن يقع في شيء منه، ويبتعد عنه، ومن قاله مجتهداً يرى أن هذا هو الحق فهذا أمره إلى الله.

---

(١) الإرشاد للجويني (ص ١١٦ ـ ١١٧).

المتبوع، قال الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ [المدّثر: ٢٢-٢٦]. يعني أنه ليس بقول البشر كما ادعى الوليد، ولكنه قول الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، هذا اضطراب واختلاف فكيف يقول: سحر، ثم يقول: قول البشر، وقال غيره: إنه شعر، وأحياناً يقول: إنه جنون، وأحياناً يقول: إنه قول الكهنة، وكل هذا مثل ما قال الله جل وعلا: ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]، فلهذا قال الله جل وعلا: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ [المدثر: ٢٦]؛ لأنه يعرف أنه كلام الله، وليس هذا الكلام إلا تعمية للناس، وصدّاً عن سبيل الله، وعن اتباع الرسول ﷺ، ومع ذلك لم ينطلِ ذلك على العرب، فقد كانوا يعرفونه تماماً، ويميزون بين كلام الله وكلام البشر، فلهذا كان أحدهم إذا سمع الآية تأثر بها وأسلم.

تأمل في قوله جل وعلا: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨]، هنا أمران: أولا، إذا كان الجن لو اجتمعوا هم والإنس، وتعاون بعضهم مع بعض، فإنهم لا يأتون بشيء من مثله، فماذا يكون هذا؟ كلام بشر أو كلام ماذا؟ هذا أمر.

والأمر الثاني: هل هذا التحدي يكون لما في نفس الله؟ وأن الله يتحدى الجن والإنس بما في نفسه؟ كما تقول الأشاعرة: إنه كلام نفسي! فالباطل باطل بأي وجه كان، وأين قلبته ونظرت إليه فهو باطل.

واحتجوا أيضاً بقوله جل وعلا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ [الحاقة: ٤٠]، قالوا: إضافته إلى الرسول دال على أنه ليس قول الله، ورد عليهم

عن مجاهد، في قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾ [المدثر: ١١-١٣] قال: ذلك الوليد بن المغيرة المخزومي، والمال الممدود: ألف دينار، والبنين الشهود: عشرة بنين(١).

قال: فلم يزل النقصان في ماله وولده حين تكلم بما تكلم حتى مات.

أهل السنة، فقالوا: هذه الآية جاءت في موضعين: موضع أضيف إلى الرسول البشري، وموضع آخر أضيف إلى الرسول الملكي، مما يدل على أنه مبلّغ، والقول يكون قولاً لمن قاله مبتدئاً لا لمن قاله مبلغاً، فالقول قول المنشئ المبتدئ، أما المؤدي المبلغ فهو يبلغ ما كلف الله به، ولهذا قال في الآية التي في سورة الحاقة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٤]، ما معنى تقوّل؟ يعني: قال شيئا من عنده لم يؤمر به، ثم قال: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة: ٤٥ ـ ٤٦]. وهذا هو الرسول البشري.

وفي الموضع الثاني: أضافه إلى جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]، فلذلك قال: «أمين» والأمين هو الذي يؤدي ما أمر به تماماً.

قوله: «**عشرة بنين، وألف دينار**» أما عشرة بنين فصحيح، لو كان له عشرة بنين، ولكن هل ماله ألف دينار؟ المال يزيد وينقص ويكثر، ولايلزم أن يكون ألف دينار، ولكن الله أمده بمال، وأنعم عليه، وأمده

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٩/١٥٣، ١٥٤).

قال أبو سعيد: وكذلك صار لأتباعه الذين تلقفوا منه هذه الكلمة خزي وتباب في كل شيء من أمرهم.

بنين، وجعلهم شهوداً، يعني: عنده حاضرين، فإذا كان البنون حاضرين عند والدهم فهذا من أتم النعمة، يقومون بخدمته، وبما يلزم له، ويأمرهم وينهاهم، لكن إذا كانوا غائبين متفرقين فهي وإن كانت نعمة ولكن ليست كالحضور، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾ [المدثر: ١٥]، يعني يزيده من هذه النعم، فأخبر أنه كان لآيات الله عنيداً، فهذا يسمونه: فيلسوف قريش، وكبيرهم ومعلمهم، ومع ذلك كان يحار أحياناً، ولكنهم يصدرون عن رأيه.

وهنا قصه عجيبة ذكرها ابن إسحاق، عن أحد كبرائهم، وهو أبو جهل «أن أبا جهل، وأبا سفيان، والأخنس بن شَرِيق خرجوا ليلة؛ ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته وأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في أنفسهم شيئاً.

ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة.

ثم انصرفوا فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شَرِيقٍ أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا

ومما يُحتَجُّ به أيضاً عليهم من كتاب الله ﷻ قول الله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤] تثبيتاً أنهم لا يفعلونه أبداً.

سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعَمْنا، وحملوا فحَمَلْنا، وأعطَوْا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس بن شَرِيق»(١).

فصار تكذيبهم من باب الحسد، وباب الكبر والعناد، فهم يعلمون، كما قال الله جل وعلا عن آل فرعون إنهم علموا ذلك وتيقنوه، ولكن جحدوه ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤]. ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣]، وهذا كفر الكفار العقلاء، كفرهم كفر الجحود؛ لأن الله أعطى الرسل آيات إذ تأملها العاقل علم أنها حق.

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/٢٠٦ ـ ٢٠٧)، وأسلم الأخنس وأبو سفيان في فتح مكة.

وقـولــه: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

ففي هذا بيان بين أن القرآن خرج من الخالق لا من المخلوقين، وأنه كلام الخالق لا كلام المخلوقين، ولو كان كلام المخلوقين منهم لَقَدَرَ المخلوق الآخر أن يأتي بمثله أو بأحسنَ منه؛ لأنه لم يتكلم مخلوق بحق وباطل من الشعر أو الخطب أو المواعظ أو من كلام الحكمة أو غير ذلك إلا وقد أتى بمثله أو بأحسنَ منه نظراؤه ممن هم في عصره أو من بعده.

وقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾، وفي سورة يونس التي قبلها: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، وفي سورة البقرة قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

والسورة سميت سورة لأن لها أولاً ومبدأً، وهي محددة، فهذا معناه أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بأقصر سورة، وأقصر سورة في القرآن: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]، وأقصر قصة في القرآن: قصة الفيل، آيات معدودة فيها قصة كاملة، وأطول آية في القران: آية الدين.

وفي القرآن آيتان في المصحف كل واحدة جمعت حروف المعجم، في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي سورة الحج وهي قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]، ومافي القرآن غير هاتين الآيتين جمعت الحروف.

وبعض السور لم يرد فيها اسم الجلالة، وفي سور أخرى كل آية فيها اسم الجلالة، وغير هذا، فالقرآن فيه أشياء يصلح أن تصير أحاجيَّ، ولكن هل تكون علماً؟ نعم فيها علم، يسأل فيها الذين يحفظون القرآن، ويترددون فيه، فتجعل كاختبار عندهم أو نحو ذلك.

فهذا قد ثَبَّتَ الله عليه الشهادة أنه لا يأتي بمثله جن ولا إنس؛ لأنه منه، وصدق الله وبلغ رسوله، لم يأتوا بمثله منذ مائتي وخمسين سنة، ولا يأتون بمثله إلى خمسين ألف سنة، فكيف يفعلونه وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾، و﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. ففي هذا بيان بين أنه كلام الخالق نفسه، وأنه غير مخلوق.

قوله: «**خمسين ألف سنة**» يعني: إذا كانت الدنيا هكذا، وهذا في وقته، أما الآنَ فمنذ نزل القرآن إلى الآن كم سنة؟ أكثر من ألف وأربع مئة سنة ولم يستطع أحد أن يأتي بشيء يماثله.

وأما عمر الدنيا وقيام الساعة فلا أحد يدري متى تقوم الساعة، وتنتهي هذه الدنيا، العلم عند الله وحده، يقول جل وعلا: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وإن كان الرسول ﷺ ذكر لنا علامات الساعة، ولكن أول علامات الساعة مبعثه ﷺ، والآن بعثه من قرابة ألف وخمسمائة سنة تقريباً. وقد كتب السيوطي رحمه الله كتاباً يحدد فيه أن الساعة ستقوم في وقت محدد، يقول: لا تتجاوز ألفاً وخمس مئة، يعني لا تزيد عليها![1].

والآن وصلت تقريباً وما بقي إلا شيء قليل، ولم تأت أي آية من الآيات التي أخبر الرسول ﷺ أنها تأتي، أعني من العلامات الكبرى، فالوضع على ماهو عليه، وأما العلامات الصغار فنعم موجودة، والمتوسطة وجد شيء منها، ولكن ما انتهت، ولا تزال تخرج.

وقد ظهرت لبعض المتأخرين كتب يزعمون فيها أن مدة الدنيا، أو عمر الناس أو عمر الأمة كذا، ويذكرون كلاما مجملاً، فمثل هذا

---

(١) الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف، ضمن الحاوي للفتاوي (٢/ ١٠٤).

ومما يحتج به عليهم أنه غير مخلوق من قول رسول الله ﷺ قوله: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شَغَلَه قراءة القرآن عن ذكري ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضلُ كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[(١)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرحمن على سائر خلقه»[(٢)].

عن أبي عبد الرحمن، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه». قال أبو عبد الرحمن: فهذا الذي أجلسني هذا المجلس، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الخالق على المخلوق، وذلك أنه منه[(٣)].

قال أبو سعيد: ففي هذه الأحاديث بيان أن القرآن غير مخلوق؛ لأنه ليس شيء من المخلوقين من التفاوت في فضل ما بينهما كما بين الله وبين خلقه في الفضل؛ لأن فضل ما بين المخلوقين

لا يجوز، وفيه خطر بالقول على الله بلا علم، والقول على رسوله ﷺ، وبعضهم قد يعين أشياء غير معينة جاء ذكرها في الأحاديث، كما وقع من بعضهم، فهذه الأمور التي أخبر بها الرسول ﷺ لايجوز تحديد زمنها ولا تنزيلها على الواقع.

قوله: «**قال أبو عبد الرحمن**» هو أبو عبد الرحمن السُّلمي.

---

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ح (٥٠٢٧).

يستدرك، ولا يستدرك فضل الله على خلقه، ولا يحصيه أحد، وكذلك فضل كلامه على كلام المخلوقين، ولو كان كلاماً مخلوقاً لم يكن فضل ما بينه وبين سائر الكلام كفضل الله على خلقه ولا كعشر عشر جزء من ألف ألف جزءٍ ولا قريباً ولا قريباً، فافهموه، فإنه ليس كمثله شيء، فليس ككلامه كلام، ولن يؤتى بمثله أبداً.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: «لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دَوِيٌّ كَدويِّ النحل، يقول: يا رب منك خرجت وإليك أعود، أُتلَى ولا يعمل بي، أتلى ولا يعمل بي».

قول عبد الله بن عمرو: «لاتقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل» يقول يأتي ثم يذهب، ـ أي القرآن ـ الله أعلم بهذا ؛ لأن مثل هذه الأحاديث إذا صحت عن رسول ﷺ، فالقول فيها أنها من الأمور التي لا نعرف حقيقتها ؛ لأن الكلام صفة المتكلم، وأما الأحاديث التي جاء فيها أن القرآن يحتج، ويقول لصاحبه: إني أظمأته، وأتعبت جوارحه، ولا يزال يحتج حتى يلبسه التاج[1]، فهذا ثواب القرآن، وليس هو القرآن، ثواب قراءته، وعمل العامل نفسه، وأما هذا فلا يتأتى تأويله بذلك، وهل يكون هذا الحديث ثابتاً؟ الله أعلم بثبوته.

---

(١) في الباب أحاديث، من أشهرها حديث بريدة ﷺ مرفوعاً، وفيه «إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب. فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك..» الحديث.

أخرجه أحمد (٣٨/ ٤١) (٢٢٩٥٠) واللفظ له، والدارمي (٤/ ٢١٣٥)، وابن ماجه مختصراً، كتاب الأدب، باب ثواب القرآن، ح (٣٧٨١)، والحاكم (١/ ٧٤٢) (٢٠٤٣)، وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال ابن حجر في المطالب (١٤/ ٣٢٤): إسناده حسن. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٥٩): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وقال البوصيري في المصباح (٤/ ١٢٦): رجاله ثقات.

عن عمرو بن دينار: أدركت أصحاب النبي ﷺ فمن دونهم منذ سبعين سنة يقولون: «الله الخالق، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله، منه خرج، وإليه يعود»[(١)].

عن معاوية بن عمار، قال: قيل لجعفر بن محمد: القرآن خالق أو مخلوق؟ قال: «ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله».

عن علي بن مضاء ـ مولى خالد القسري ـ قال: سمعت ابن المبارك بالمصيصة، وسأله رجال عن القرآن، فقال: «هو كلام الله غير مخلوق»[(٢)].

عن بقية بن الوليد، يقول: «القرآن كلام الله غير مخلوق».

عن عيسى بن يونس، يقول: «القرآن كلام الله غير مخلوق

عن القاسم الجزري، يقول: «القرآن كلام الله غير مخلوق».

قوله: «**منه خرج**» يعني: أنه جل وعلا تكلم به.

قوله: «**وإليه يعود**»، يعني: صفة له، أو أنه كما جاء في الآثار: أنه يرفع في آخر الزمان، إذا ترك الناس العمل به رفع، فلا يبقى في المصاحف حرف واحد، ولا في صدور الناس، وهذا من علامات قيام الساعة أيضاً.

قولهم: «**القرآن كلام الله غير مخلوق**» كل مسلم يجب أن يقول هذا القول: إن القرآن هو كلام الله جل وعلا، وإن لم يعتقد ذلك فهو على باطل؛ لأن القرآن هو صفة الله وهو كلامه الذي تكلم به، والكلام معنىً، يكتب بالحروف، ويقرأ بالأصوات، والكلام إذا تكلم به المتكلم

(١) أخرجه البيهقي، في سننه (١٠/ ٢٠٥)، وفي الأسماء (ص ٢٤٥).
(٢) أخرجه البخاري، في خلق أفعال العباد (١٠٩)، والآجري (ص ٧٧).

حدثنا محمد بن منصور، حدثنا علي بن المضاء، حدثنا هشام بن بهرام، قال سمعت المعافى بن عمران، يقول: «القرآن كلام الله غير مخلوق». قال هشام: وأنا أقول كما قال المعافى. قال علي: وأنا أقول كما قال هشام، قال محمد بن منصور: وأنا أقول كما قالوا خمسين مرة. قال أبو سعيد: وأنا أقول كما قالوا سبعين مرة. قال القرشي: وأنا أقول كما قالوا. قال الأزدي: وأنا أقول كما قالوا عدد أيام الدهر من أوله إلى آخره، وبه ألقى الله ﷻ ورسوله ﷺ. قال أبو روح: وأنا أقول بعدد من يبصر ومن لا يبصر. وقال شيخنا أبو عبد الله: وأنا أقول بعدد جميع الخلائق.

سمعت محمد بن منصور، يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام حدثان ما استخلف جعفر، فقلت له: إن ناسا يقولون: القرآن

سمع منه وحفظ وكتب، وهو كلام الله جل وعلا، تكلم به وأسمعه جبريل، جاء به كما سمعه من الله، وألقاه على محمد ﷺ، وحفظه ووعاه، ثم علمه أصحابه ولم يترك منه حرفاً واحداً، حتى الأمر الذي وجه إليه في قوله: ﴿قُلْ﴾، فهو أمر له، علمنا إياه، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾، وغير ذلك، فكل هذا يدل على أنه بلغ كل ما سمعه من جبريل وجاء به، وقد سئل عن معنى «قل»، فقال: «قيل لي: قل، فقلت لكم كما قيل لي»[١].

قوله: «**حدثان ما استخلف جعفر**» يعني: قريب من وقت استخلافه.

---

(١) عن زر بن حبيش قال: سألت أبي بن كعب عم المعوذتين، فقال: سألت رسول الله ﷺ، فقال: «قيل لي، فقلت» فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ.
أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله «الله الصمد»، ح (٤٩٧٦) واللفظ له، وأخرجه الحميدي في مسنده (١/ ٣٦٧) ولفظه: «قيل لي: قل، فقلت».

مخلوق، فقال بوجهه هكذا، كأنه أعرض، فقلت: أليس كلام الله غير مخلوق؟ قال: «نعم». ثم قلت له مرة أخرى، فقال: «نعم».

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «القرآن أحب إلى الله من السماوات والأرض وما فيهن»[١].

قال أبو سعيد: فهذا ينبئك أنه نفس كلام الله وأنه غير مخلوق؛ لأن الله ﷻ لم يخلق كلاماً إلا على لسان مخلوق، فلو كان القرآن مخلوقاً كما يزعم هؤلاء المعطلون، كان إذاً من كلام المخلوقين، وكل هذه الروايات والحكايات والشواهد والدلائل قد جاءت وأكثر منها في أنه غير مخلوق، ثم إحاطة علم العلماء وعقول العقلاء بأن

والمَرائي لا يعتمد عليها في إثبات حكم أو نفي حكم، وإنما يستأنس بها، ويستشهد بها على أنها معاضدة ومعاونة فقط، فالمنامات عمدة أصحاب القبور الذين يعبدون القبور، وقد أغنانا الله جل وعلا بما في كتابه وأحاديث رسوله ﷺ، ولكن إذا جاءت موافقة للحق، فهي كما قال ﷺ: «إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[٢]، فتكون حقاً، ولكن لا يعتمد عليها أيضاً في إثبات حكم ولا في نفيه.

قوله: «**ثم إحاطة علم العلماء وعقول العقلاء...**» معنى هذا الكلام: أن في علم العلماء، وعقول العقلاء كلام الخالق لا يكون مخلوقاً أبداً، وأما على دعواهم فإنه كان قبل أن يخلق الكلام ناقصاً، تعالى الله وتقدس، مضطراً إلى الكلام، لأن الله يخلق بالكلام، لا يخلق بشيء

---

(١) أخرجه الدارمي في السنن (٢/ ٤٤١).

(٢) عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ، قال: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة». أخرجه البخاري، كتاب التعبير، بابٌ الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءً من النبوة، ح (٦٩٨٧)، ومسلم، كتاب الرؤيا، ح (٢٢٦٤).

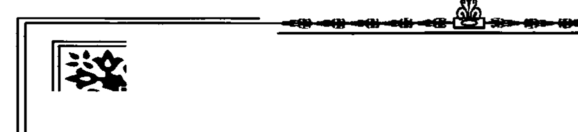
كلام الخالق لا يكون مخلوقاً أبداً، إذاً كان في دعواهم قبل أن يخلق الكلام منقوصاً مضطراً إلى الكلام، حتى خلقه وكملت ربوبيته وتمت وحدانيته بمخلوق في دعواهم!

آخر، فهل هو لم يك يخلق، ولم يك يتكلم حتى جاء الخلق، فيكون قبل ذلك ناقصاً، تعالى الله وتقدس، وما الذي جعله يتكلم بعد أن لم يكن متكلماً؟ فهذا لا يمكن، ولا يكون.

فلا بد أن نقول: إن الله بكلامه وسائر صفاته أزلاً أبداً لم يستجد له شيء بعد وجود الخلق، أو بعد أن لم يكن، تعالى الله وتقدس، فإن له الكمال المطلق دائماً وأبداً، ولا يكون في وقت من الأوقات خالياً من صفة من صفاته تعالى الله وتقدس.

ولكن الصفات كما هو معلوم صفات تتعلق بذاته، هذه ملازمة له أبداً كالحياة، والعلم، والقدرة وغيرها، وصفات تتعلق بمشيئته، كالخلق، والكلام، وما أشبه ذلك، فالكمال أن يكون متعلقاً بمشيئته إذا شاء أن يفعل ذلك فعله، وإذا شاء ألا يفعله لم يفعله، وهذا التقسيم حسب ما فهمه العلماء من صفات الله ﷻ.







باب الاحتجاج على الواقفة

قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللهُ: ثم إن ناساً ممن كتبوا العلم بزعمهم، وادّعَوْا معرفته، وقفوا في القرآن! فقالوا: لا نقول مخلوق هو ولا غير مخلوق، ومع وقوفهم هذا لم يرضوا حتى ادعوا أنهم ينسبون إلى البدعة من خالفهم وقال بأحد هذين القولين!

فقلنا لهذه العصابة: أما قولكم: مبتدع، فظلم وحيف في دعواكم حتى تفهموا الأمر وتعقلوه، لأنكم جهلتم أي الفريقين أصابوا السنة

قوله: «**الاحتجاج على الواقفة**» يعني: الاحتجاج على الشكاك، وهم من يشك هل كلام الله مخلوق أم غير مخلوق؟

فالشاك له حكم القائل بأنه مخلوق، لأن الواجب أن لايتوقف الإنسان؛ بل يجزم جزماً بلا تردد أنه صفة لله، وصفات الله لا تكون مخلوقة، تعالى الله وتقدس.

«**الحيف**» هو الجور.

وليس هذا في هذا القول فقط، بل كل قول أو فعل يخالف له هذا الحكم، فلا يجوز للإنسان أن يقدم عليه حتى يعلم، وإنما يقدم عليه الذين لا يعقلون، أو الذين يتساهلون بأمر الله، أو أنهم لا يتصورون أن الله جَلَّ جَلَالُهُ سوف يسألهم، سواءٌ كان ذلك عاماً أم خاصّاً، وسواءٌ كان يتعلق بفرد أم بالأمة أم غير ذلك، أما إذا كان يتعلق بالأمة مثل الفتاوى العامة التي تظهر من بعض الناس، فهذه أمرها شديد إذا كانت على

والحق، فيكون من خالفهم مبتدعة عندكم، والبدعة أمرها شديد، والمنسوب إليها سيئ الحال بين أظهُرِ المسلمين، فلا تعجلوا بالبدعة حتى تستيقنوا وتعلموا أحقاً قال أحد الفريقين أم باطلاً؟

وكيف تستعجلون أن تنسبوا إلى البدعة أقواماً في قول قالوه، ولا تدرون أنهم أصابوا الحق في قولهم ذلك أم أخطؤوه، ولا يمكنكم في مذهبكم أن تقولوا لواحد من الفريقين: لم تصب الحق بقولك، وليس كما قلت، فمن أسفه في مذهبه وأجهل ممن ينسب إلى البدعة أقواماً يقول: لا ندري أهو كما قالوا أم ليس كذلك، ولا يأمن في مذهبه أن يكون أحد الفريقين أصابوا الحق والسنة، فسماهم مبتدعة، ولا يأمن في دعواه أن يكون الحق باطلاً والسنة بدعة؟ هذا ضلال بين وجهل غير صغير.

وأما قولكم: لا ندري مخلوق هو أم غير مخلوق، فإن كان ذلك منكم قلة علم به وفهم فإن بيننا وبينكم فيه النظر بما يدل عليه الكتاب والسنة ويحتمل بالعقول، وجدنا الأشياء كلها شيئين: الخالق

خلاف الحق، وسوف يوقف هذا المفتي، ويسأل عن قوله.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «**وكيف تستعجلون أن تنسبوا إلى البدعة أقواماً في قول قالوه..**» يعني: أنه يكون شاكاً لايدري هل هو صحيح أو غير صحيح، ثم يقول: إنه مبتدع!! هذا معناه.

قوله: «**وأما قولكم: لا ندري مخلوق، أو غير مخلوق**» زعموا أنهم لا يدرون هل هو كلام الله؟ أم ليس كلام الله، فهم متوقفون، هذا الكلام ليس مستقيماً، إذا زعموا أنه كلام الله، فهذا هو الحق، فلا يرد عليهم في ذلك، ولكنهم زعموا أنهم لا يعرفون هل هو مخلوق أم غير مخلوق، فتوقفوا.

بجميع صفاته، والمخلوقين بجميع صفاتهم، فالخالق بجميع صفاته غير مخلوق، والمخلوق بجميع صفاته مخلوق. فانظروا في هذا القرآن، فإن كان عندكم صفة المخلوقين، فلا ينبغي أن تشكوا في المخلوقين وفي كلامهم وصفاتهم أنها مخلوقة كلها لا شك فيها، فيلزمكم في دعواكم حينئذ أن تقولوا كما قالت الجهمية، فلتستريحوا من القال والقيل فيه، وتغيروا عن ضمائركم. وإن كان عندكم هو صفة الخالق وكلامه حقاً، ومنه خرج، فلا ينبغي لمصلٍّ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يشك في شيء من صفات الله وكلامه الذي خرج منه أنه غير مخلوق، هذا واضح لا لَبْسَ فيه إلا على من جهل العلم أمثالكم. وما فرقُ بينكِم، وبين من قال: هو مخلوق إلا يسير، يزعم أولئك أنه كلام الله مضاف إليه مخلوق، وزعمتم أنتم أنه كلام الله، ولا تدرون مخلوق هو أو غير مخلوق.

فإذا لم تدروا لم تأمنوا في مذهبكم أن يكون أولئك الذين قالوا: مخلوق، قد أصابوا من قولكم، فكيف تنسبونهم إلى البدعة وأنتم في شك من أمرهم؟

فلا يجوز لرجل أن ينسب رجلاً إلى بدعة بقول أو فعل حتى يستيقن أن قوله ذلك وفعله باطل ليس كما يقول، فلذلك قلنا: إن فرق ما بينكم يسير، لأن أولئك ادعوا أنه مخلوق، وزعمتم أنتم أنه كلام الله، ومن زعم أنه غير مخلوق فقد ابتدع وضل في دعواكم.

فإن كان الذي يزعم أنه غير مخلوق مبتدعاً عندكم، لا تشكون فيه أنه لَمَخلوقٌ حقاً لا شك فيه، ولكن تستترون من الافتضاح به مخافة التشنيع، ....

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: **«ولكن تستترون من الافتضاح به مخافة التشنيع»** يقصد

وجعلتم أنفسكم جُنّةً ودُلْسة للجهمية عند الناس، تصوِّبون آراءهم وتحسنون أمرهم وتنسبون إلى البدعة من خالفهم.

والحجة على هذه العصابة أيضاً جميع ما احتججنا به من كتاب الله في تحقيق كلام الله، وما روينا فيه من آثار رسول الله ﷺ فمن بعده، أن القرآن نفس كلام الله وأنه غير مخلوق، فهي كلها داخلة عليهم كما تدخل على الجهمية؛..............................

بذلك أن قولهم: إننا نتوقف، فهذا يدل على أنهم متيقنون أنه مخلوق، يعني: أن قولهم كقول الأولين، ولكنهم تستروا بهذا خوفاً من الشناعة، إلا أن هذا ليس هو الظاهر لأن هؤلاء جهلة، هم جهلوا فتوقفوا، والجهل ليس حجة لأحد، فالذي يجهل الشيء يجب ألا يتكلم فيه، لا يقول: مخلوق ولا غير مخلوق، يسكت، وإذا لم يتكلم استراح غيره من الرد عليه، ولكن إذا تكلم فقال: أنا لا أقول: مخلوق ولا غير مخلوق، قالوا: هذا باطل، وهذا يساوي قول الذين قالوا: إنه مخلوق، لأن الحق واضح، ولا يجوز أن يشك فيه، أو يتردد فيه، فإذا شككت فأنت مثل الذي صرّح، لا فرق بينكما.

قوله: «**جُنة**» معنى ذلك أنهم يتسترون بكم، ويجتَنُّون بكم.

قوله: «**دُلسة**» أي أنكم تدلسون على غيركم في مذهب الجهمية وأنتم على مذهبهم بهذا؛ لأن هذا لا يجوز أن يشك فيه، والشك فيه ضلال بين، وهو يلحق الشاك بمن لم يشك، ويقول: إنه مخلوق.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «**جميع ما احتججنا به من كتاب الله في تحقيق كلام الله...**» يعني: كل ما سبق هو حجة على هؤلاء، وغير ما سبق مما لم يذكره، فالحجج على هؤلاء لا حصر لها، لأن الحق الذي جاء به المصطفى ﷺ واضح، من كتاب الله، ومن أحاديثه التي يبين بها

لأن كل من آمن بالله، وصدقه في قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وفي قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، فأيقن بأنه كلامه حقاً كما سماه أصدق القائلين، لزمه الإيمان بأنه غير مخلوق؛

كلام الله، كما أمره جل وعلا أن يوضح للناس ما نزل إليهم، وقد فعل ﷺ.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ يعني: يسمع كلام الله ممن بلغه، فهذا شامل لكل أحد، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾، يعني طلب أن تجيره وتمنعه؛ حتى يأتي، ويتحقق من دعوتك، أمره جل وعلا أن يجيره.

﴿فَأَجِرْهُ﴾، يعني: أن يمنع ويحمى حتى يسمع كلام الله، يسمعه من الرسول الذي يبلغه ذلك، ثم بعد ذلك إذا سمع يجب أن يبلغ مكانه الذي جاء منه.

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ يعني: الذي يأمن به من قومه، فهذا واجب.

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ هذا في مسألة وعد الله ﷻ، فإن الله رضي عن أهل الحديبية، وأثابهم فتحاً قريباً، وهو خيبر، فهي خاصة لهم، فلما علم الذين تخلفوا أنهم سيذهبون إلى خيبر، كما هو وعد الله ﷻ أرادوا أن يتبعوهم، فقال الله جل وعلا: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥]، بعد أن قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، يعني: وعده الذي وعده أهل الحديبية خاصة، وهم أهل بيعة الرضوان. وقد سبق الاستدلال بهذه الآية على أن القرآن لو كان مخلوقاً لأمكن تبدله وتغييره؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وليس معنى ذلك الصفات التي تقع فيه، ويكون فيها تغيير له كما قال جل وعلا

لأن الله تبارك وتعالى لم يجعل كلاماً مخلوقاً لنفسه صفة وكلاماً، ولم يُضف إلى نفسه كلام غيره؛ لأنه أصدق القائلين. ولا يقاس كلام الله ببيت الله وعبد الله..

في أمر الشيطان: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]، فتغيير خلق الله في الصفة، وليس بكونه يقلب من حالة إلى أخرى، أو من مخلوق إلى مخلوق، هذا لا أحد يستطيعه.

فلهذا جاء ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [النساء: ١١٩]، التبكيت: هو التقطيع والتشقيق، يعني يشقون ويقولون: هذه سائبة، وما أشبه ذلك من فعل الجاهلية، وهي وُلدت ليس فيها قطع، بل كانت كاملة، وإنما غيروا خلق الله في ذلك بأنفسهم، وكذلك ما ذكر مما يفعله بعض النساء من وصل الشعر، وإضافة شيء ليس من خلق الله ﷻ، كأظفار جديدة وكالنمص وغيره مما جاء في الحديث أنه تغيير لخلق الله[1]، وليس خلق الله بالقلب، أن يقلب مثلا الرجل حماراً أو كلباً أو ما أشبه ذلك، هذا ليس بإمكان أحد.

فالمقصود: أنه كما قلتم: إنه مخلوق، إذاً فلا يمكن تغييره وتبديله، والكلام يمكن تغييره وتبديله، لأنه قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥].

قوله: «**ولا يقاس كلام الله ببيت الله، وعبد الله**» يعني الشيء الذي يضاف إلى الله على نوعين: إما أن يكون المضاف عيناً قائمة بذاتها، أو يكون معنىً لا يقوم بذاته. فالعين القائمة مثل: رسول الله، ومثل

---

(١) ورد في تغيير خلق الله بالنمص والوصل ونحوهما أحاديث، منها: حديث ابن مسعود رضي الله عنه المتفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ ح (٤٨٨٦)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، ح (٢١٢٥).

وخلق الله وروح الله؛ لأن الخلق ليس من الله ولا من صفاته، وكلامه صفته ومنه خرج، ....

عبد الله، ومثل بيت الله، ومثل ناقة الله، فالاضافة في هذه إلى الله ليست إضافة صفة إلى موصوف، وإنما هي إضافة مخلوق إلى خالقه، ثم الاضافة لها معنى خاص، مثل كونه فيه عبادته لله، وفيه دليل على عبودية الله، وفيه أنه يأمر بأمر الله ونحو ذلك. أما إذا كان المضاف إليه معنىً، مثل: الرحمة، ومثل العلم، ومثل الغضب، ومثل الرضا، وما أشبه ذلك، فهذا لا بد أن يكون صفة، لأنك لن تشاهد علماً يقوم بنفسه، ولا تشاهد جهلاً يقوم بنفسه، ولا تشاهد سمعاً موجوداً قائماً بنفسه، فإذاً مثل هذا يكون إضافة صفة إلى موصوف، والأول إضافة مخلوق إلى خالقه.

ولا يشكل علينا قوله جل وعلا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠]، ما معنى رب العزة؟

هل نقول: رب العزة يعني: صاحب العزة؟ أي الذي له العزة كلها، سمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً وَهُم في جنازة يقول: اللهم رب القرآن اغفر له، فقال: مه! القرآن كلام الله، ليس مربوباً[(١)]، المربوب مخلوق، فهذا يدل أنه كلام الله ؛ لأن القرآن صفته وكلامه تعالى وتقدس.

وقوله رحمه الله: «وروح الله» روح الله يراد بها الروح المخلوقة من الله فهي كما قال المؤلف رحمه الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، كما أطلق ذلك على عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، يعني: من الله، والله جل وعلا يقول في آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢]،

---

(١) أخرجه ابن بطة، في الإبانة (٥/ ٢٧٠)، واللالكائي، في شرح أصول الاعتقاد (٢/ ٢٥٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٥٩٠).

فلا يضاف إلى الله من الكلام إلا ما تكلم به. ولو جاز أن ينسب كلام مخلوق إلى الله فيكون لله كلاماً وصفة، كما يضاف إليه بيت الله وعبد الله، لجاز أن نقول: كل ما يُتَكَلَّمُ به آناء الليل والنهار من حق أو باطل أو شعر أو غناء أو نوح، كلام الله! ....

والمقصود بالروح في هذه الآية الريح، فهي من الله جل وعلا، وهي التي كانت بها الحياة، ثم وجدت في ذريته. وهي التي جاء السؤال بقوله جل وعلا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ [الإسراء: ٨٥]، يعني: يسألونك ما هي على القول الصحيح: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، فالروح غير معلومة لنا، مع أنها تخرج وتدخل وتذهب، ويأخذها الملائكة ويجعلونها في كفن، ويصعدون بها، فوصفت بالذهاب والمجيء، ومع ذلك ما ندري ما هي، فإذا كان الإنسان لا يعرف الذي في بدنه، فكيف يتصور أنه يعرف حقائق صفات الله جل وعلا!!

وقد حاول الناس أن يعرفوا شيئاً منها فما استطاعوا، حتى إنه قيل: إن بعض الكفار حاولوا عند احتضار الإنسان أن يشاهدوا شيئاً، فوضعوا زجاجاً على المحتَضَر، يريدون أنهم إذا خرجت الروح يشاهدون منها شيئاً، فما استطاعوا أن يعرفوا شيئاً، ولن يستطيعوا، فهذا كما قال الله ﷻ: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ فلا أحد يعرف منها شيئاً، فإذا كان لا يعرف هذا مع أنها بهذه الصفات فكيف يحاول الإنسان أن يعرف حقائق الصفات التي هي صفات الله جل وعلا؟!!

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ولو جاز أن ينسب كلام مخلوق إلى الله فيكون لله كلاماً وصفة..**» يعني: أنه لو كان كما قلتم: إن القرآن مخلوق، وأن معنى كونه مخلوقاً أنه خلقه مثل ما خلق الإنسان وغيره، لصح أن يضاف إلى الله كل مخلوق خلقه الله جل وعلا، فيضاف إليه على أنه صفة، فهذا باطل قطعاً، لا يقول به إلا ضال.

فما فضل القرآن في هذا القياس على سائر كلام المخلوقين إن كان كله ينسب إلى الله، ويقام لله صفة وكلاماً في دعواكم؟ فهذا ضلال بين، مع أنا قد كفينا مؤنة النظر بما في كتاب الله من البيان، وفي الأثر من البرهان، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ: احتججنا بهذه الحجج وما أشبهها على بعض هؤلاء الواقفة، وكان من أكبر احتجاجهم علينا في ذلك أن قالوا: إن ناساً من مشيخة رواة الحديث الذين عرفناهم عن قلة البصر بمذاهب الجهمية سئلوا عن القرآن، فقالوا: لا نقول فيه بأحد القولين، وأمسكوا عنه إذ لم يتوجهوا لمراد القوم؛ لأنها كانت أغلوطة وقعت في مسامعهم لم يعرفوا تأويلها، ولم يُبْتَلَوْا بها قبل ذلك، فكَفُّوا عن الجواب فيه وأمسكوا.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **«والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»** هذا الذي يجب على الإنسان أن يرجع إليه دائماً، ويسأل ربه جل وعلا أن يهديه إلى ما اخْتُلِف فيه من الحق، فإن لم يهده الله فلن يهتدي بقوته ولا بنظره ولا بعلمه، إذا وكل إلى نفسه ضل.

قوله: **«إن ناساً من مشيخة رواة الحديث الذين عرفناهم عن قلة البصر بمذاهب الجهمية سئلوا عن القرآن»** بيان هذا الكلام أنه يقول: إنهم احتجوا علينا بأن بعض المحدثين توقفوا، فقالوا: لا نقول مخلوق، ولا غير مخلوق، فيقول الواقفة: نحن نتبعهم، وأبو سعيد يقول: هذا لا يدل على الشك؛ لأنهم قد يكونون بعدم ردهم على هؤلاء يقصدون هجرهم واحتقارهم، وهذه عادة كثير من السلف.

وكان بعضهم يُحرّج إذا سمع صاحب بدعة يقول: لا تكلمه، ولا ترد عليه، فإن كلامك معه ينشر مذهبه ويجعل الناس يلتفتون إليه، بخلاف ما

فحين وقعت في مسامع غيرهم من أهل البصر بهم وبكلامهم ومرادهم ممن جالسوهم وناظروهم وسمعوا قبح كلامهم، مثل من سمينا، مثل جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، وابن المبارك، وعيسى بن يونس، والقاسم الجزري، وبقية بن الوليد، والمعافى بن عمران، ونظرائهم من أهل البصر بكلام الجهمية، لم يشكوا أنها

إذا تركته ولم تلتفت إليه احتقاراً له، وطلباً لموت مذهبه، فإنه أولى، هذا معروف عند السلف، لأن هذا رأي كثير منهم، فيجوز أنهم أرادوا هذا. أما إذا كانوا كما قال هؤلاء المحتجون من أن توقفهم في هذا وقولهم: لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق، أنه للشك، ويقول: أنا أتبعهم، وهذا دليل لي، فيقال له: غيرهم من الأئمة الكبار الذين عرفوا بإمامتهم وعلمهم صرحوا بأن هذا كفر، وأن كلام الله ﷻ لا يجوز أن يشك فيه، بل يجب أن يعلم الإنسان أنه صفة له، ولا يتردد في ذلك، وسمى منهم ابن المبارك وغيره، من العلماء مثل الإمام أحمد.

وقوله: «**أهل البصر**»، يعني: النظر الذي يكون صادراً عن بصيرة وعلم واستدلال، يكون ظاهراً، أما الذي ليس عنده بصر وليس عنده علم في المعقول والمنقول فهو ليس حجة، فلا يجوز أن يتبع في ذلك. ولكن إذا سكت الإنسان عن شيء لا يعلمه فليس ملوماً، ولا يكون سكوته هذا حجة لأن يتبع في سكوته بذلك، فإذا كان السكوت من أجل إماتة هذا القول وهجره واحتقار صاحبه، فهذا أمر، وإن كان لأجل التردد أو التوقف، وكونه لا يدري هل هذا حق أو غير حق، فهذا جاهل، والجاهل لا يكون حجة على العالم، وإنما العالم هو الذي يحتج به.

ثم الرجوع في هذا وفي غيره من جميع ما يجب على العبد أن يعتقده أو يعمل به إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وهذا يتوقف عليه الإيمان، كما قال الله جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

كلمة كفر، وأن القرآن نفس كلام الله كما قال الله تبارك وتعالى، وأنه غير مخلوق إذ رد الله على الوحيد[1] قوله: إنه قول البشر وأصلاه عليه سقر، فصرحوا به على علم ومعرفة أنه غير مخلوق، والحجة بالعارف بالشيء، لا بالغافل عنه القليل البصر به، فتعلق هؤلاء فيه بإمساك أهل البصر ولم يلتفتوا إلى قول من استنبطه وعرف أصله، فقلنا لهم: إن يك جبن هؤلاء الذين احتججتم بهم من قلة بصر، فقد اجترأ هؤلاء، وصرحوا ببصر، وكانوا من أعلام الناس وأهل البصر بأصول الدين وفروعه حتى أكفروا من قال: مخلوق، غير شاكين في كفرهم ولا مرتابين فيهم.

شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، فجاءت «ما» وهي تدل على أن كل خلاف يحدث، سواءٌ كان في الحكم الظاهر، أم الباطن، وسواءٌ كان في الأحكام التي تصدر على الناس، أم الأحكام التي تكون في نفس الإنسان، من العقائد، أم غيرها، ولا يخرج عنها شيء، لأن الشجار هو الخلاف، ﴿شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: حصل بينهم فيه خلاف وشجار ونزاع، وهذا يكون في العقائد أكثر منه في الأحكام وفي المعاملات. فالمقصود أن الآية تعم.



---

(١) هو الوليد بن المغيرة، وصفه بالوحيد لقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾.

باب الاحتجاج في إكفار الجهمية

قال أبو سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ناظرني رجل ببغداد منافحاً عن هؤلاء الجهمية، فقال لي: بأية حجة تكفرون هؤلاء الجهمية، وقد نهي عن إكفار أهل القبلة؟ بكتاب ناطق تكفرونهم؟ أم بأثر؟ أم بإجماع؟

من المعلوم أن التكفير لا يكون إلا بما في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وهذا أجمع عليه أهل العلم، وتكفير الجهمية اشتَهَر عن كثير من أهل العلم، ذكر اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب شرح أصول الاعتقاد[1] عن عدد كثير من العلماء النص على تكفير الجهمية.

قال عبد الله بن الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمهما الله ـ: «أما الجهمية فالمشهور من مذهب أحمد، وعامة أئمة أهل السنة تكفيرهم؛ فإن قولهم صريح في مناقضة ما جاءت به الرسل، من الكتاب والسنة، وحقيقة قولهم: جحود الصانع، وجحود ما أخبر به عن نفسه، وعلى لسان رسوله ﷺ، بل وجميع الرسل»[2].

وما ذكره من مناظرة هذا البغدادي فإنه لا يزال كثير من الناس على ما قاله، ولا سيما المتأخرين؛ لأن أكثرهم اعتقد بعض أصول الجهمية، أو أكثرها، مثل اعتقاد أن إثبات الصفات على ظاهرها يقتضي التجسيم والتشبيه، فأنكروا علوَّ الله تعالى وغيره مما ثبت بالكتاب والسنة،

---

(١) شرح أصول الاعتقاد (٢/ ٢٥٣ وما بعدها).
(٢) الدرر السنية (١٠/ ٢٤٤).

فقلت: ما الجهمية عندنا من أهل القبلة، وما نكفرهم إلا بكتاب مسطور، وأثر مأثور، وكفر مشهور.

والعقل، كما أنكرته الجهمية، وزعموا أن جهم بن صفوان إمام أهل التنزيه، إذ يزعمون أن من أثبت ما أخبر الله به عن نفسه على ظاهره، يفهم من النص، أنه مشبه أو مجسم. وقد دافع عن جهم بن صفوان القاسمي في كتابه تاريخ الجهمية، وزعم أنه داعية للكتاب والسنة، ناقم على من أعرض عنهما وأنه مجتهد في مسائل صفات الله ﷻ، فكيف يستحل نبزه بالدهرية؟[(١)] وزعم كذلك أنه لم يقتل لأجل مقالته، وإنما لأنه خرج مع الحارث بن سريح، ومثل رأي القاسمي قال به بعض المتأخرين كما سبق. انظر مثلاً رسالة خالد العلي «جهم بن صفوان، ومكانته في الفكر الإسلامي»[(٢)].

قوله: «**ما الجهمية عندنا من أهل القبلة، وما نكفرهم إلا بكتاب مسطور، وأثر مأثور، وكفر مشهور**» هذا هو قول أهل السنة، كما سبق في قول عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله.

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس فما رأيت أضل في كفرهم منهم [يعني الجهمية]، وإني لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم»[(٣)].

وقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أيضاً: «ما أبالي صليت خلف الجهمي الرافضي أم صليت خلف اليهود والنصارى، ولا يسلم عليهم، ولا يعادون، ولا يناكحون، ولا يشهدون، ولا تؤكل ذبائحهم»[(٤)].

---

(١) تاريخ الجهمية والمعتزلة (ص ١٨).
(٢) رسالة ماجستير، من جامعة بغداد.
(٣) خلق أفعال العباد (٢٤).
(٤) خلق أفعال العباد (٢٢).

أما الكتاب فما أخبر الله ﷻ عن مشركي قريش من تكذيبهم بالقرآن، فكان من أشد ما أخبر عنهم من التكذيب أنهم قالوا: هو مخلوق، كما قالت الجهمية سواء، قال الوحيد، وهو الوليد بن المغيرة المخزومي: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدّثّر: ٢٥].

وهذا قول جهم: إن هذا إلا مخلوق، وكذلك قول من يقول بقوله، وقول من قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، و﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [صٓ: ٧]. معناهم في جميع ذلك ومعنى جهم في قوله يرجعان إلى أنه مخلوق، ليس بينهما فيه من البون كغَرْز إبرة، ولا كقَيْس شعرة، فبهذا نكفرهم كما أكفر الله به أئمتهم من قريش، فقال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ [المدّثّر: ٢٦]. إذ قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدّثّر: ٢٥].

لأن كل إفك وتقوّل وسحر واختلاق وقول البشر، كله لا شك في شيء منه أنه مخلوق، فاتفق من الكفر بين الوليد بن المغيرة وجهم بن صفوان الكلمة، والمراد في القرآن أنه مخلوق، فهذا الكتاب الناطق في إكفارهم.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: «إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية»[1].

وكلام أهل السنة في تكفيرهم كثير وصريح في ذلك.

وبين **الإمام الدارمي** رحمه الله وجه الاستدلال بالقرآن على كفر الجهمية، وهو أن قول الوليد بن المغيرة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٥] مثل قول الجهمية أنه مخلوق، وقد توعد الله ﷻ من قال ذلك أن يصليه

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٠/ ٢٤٤).

وأما الأثر فيه؛ فما حدثنا سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، وجرير بن حازم، عن أيوب، عن عكرمة، أن علي بن أبي طالب ﷺ، أتي بقوم من الزنادقة، فحرّقهم، فبلغ ذلك ابن عباس، فقال: أما أنا فلو كنت لقتلتهم، لقول رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه».

ولما حرّقتهم؛ لنهي رسول الله ﷺ: «ولا تعذبوا بعذاب الله»[1]. زاد سليمان في حديث جرير: فبلغ عليّاً ما قال ابن عباس ﷺ، فقال: ويحَ ابنِ أم الفضل، إنه لَغَوَّاص على الهَنات»[2].

قال أبو سعيد: فرأينا هؤلاء الجهمية أفحشَ زندقةً وأظهرَ كفراً وأقبحَ تأويلاً لكتاب الله وردِّ صفاته فيما بلغنا عن هؤلاء الزنادقة الذين قتلهم علي ﷺ وحرّقهم.

سقر، فهو كفر يتحقق قائله أن يكون مع الكفار في سقر.

ومثله قول المشركين: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤]، وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧].

فقول الجهمية كقول الكافرين في القرآن، فيكون حكمهم سواء، وبهذا يتبين كفر الجهمية، ومن سلك مسلكهم، فقول البشر مخلوق، والسحر، والإفك، والكذب هو قول البشر، كما أن البشر مخلوقون هم وأقوالهم، فمن قال إن القرآن مخلوق فلا فرق بينه وبين المشركين الذين ذكر الله تعالى أقوالهم في القرآن.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٧)، وأبو داود (٤٣٥١)، والترمذي (١٤٥٨)، والنسائي (٤٠٦٠)، والبيهقي في الكبرى (١٦٨٥٨)، وغيرهم، من طرق عن أيوب، به، دون الزيادة.

(٢) أخرجه بهذه الزيادة الفسوي، في المعرفة والتاريخ (١ / ٥١٦)، والبيهقي، في الكبرى (١٦٨٥٩).

فمضت السنة من علي وابن عباس في قتل الزنادقة، لأنها كفر عندهما، وأنهم عندهما ممن بدل دين الله، وتأوّلاً في ذلك قول رسول الله ﷺ، ولا يجب على رجل قتلٌ في قولٍ يقوله حتى يكون قولُه ذلك كفراً، لا يجب فيما دون الكفر قتل إلا عقوبة فقط، فذاك الكتاب في إكفارهم، وهذا الأثر.

ونكفرهم أيضاً بكفر مشهور، وهو تكذيبهم بنص الكتاب، أخبر الله تبارك وتعالى أن القرآن كلامه، وادعت الجهمية أنه خلقه، وأخبر الله تبارك وتعالى أنه كلّم موسى تكليماً، وقال هؤلاء: لم يكلمه الله بنفسه، ولم يسمع موسى نفس كلام الله، إنما سمع كلاماً خرج إليه من مخلوق. ففي دعواهم دعا مخلوق موسى إلى ربوبيته، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طه: ١٢]، فقال له موسى في

قوله: «**فذاك الكتاب في إكفارهم، وهذا الأثر**» استدل على كفرهم بإحراق علي رضي الله عنه الزنادقة الذين ادعوا فيه الإلهية فحرّقهم بالنار، فالجهمية زنادقة حيث زعموا أن صفة الله مخلوقة، فهم أعظم زندقة وأظهر كفراً من أولئك، فلم يؤمنوا بالله وآياته، حيث جعلوا كلامه مخلوقاً، وأنكروا صفاته وأسماءه، وكذبوا نص القرآن بأنه كلام الله ﷻ، وإنكار أن القرآن كلام الله ﷻ كفر ظاهر. ومثل ذلك رد صفات الله، مثل العلم والسمع، والبصر، واليد والرحمة، والرضا، والغضب، وغير ذلك من صفات الله ﷻ، فلا يكون في كفر الجهمية إشكال لدى أهل العلم، وقد نص كثير من أئمة السلف على تكفير الجهمية، مثل الإمام أحمد والشافعي، والإمام أبي حنيفة، وغيرهم كثير[1].

(١) انظر حكاية أقوالهم في خلق أفعال العباد للبخاري، وشرح أصول الاعتقاد للالكائي، والسنة، لعبد الله بن الإمام أحمد، وغيرها.

دعواهم: صدقت، ثم أتى فرعون يدعوه أن يجيب إلى ربوبية مخلوق كما أجاب موسى في دعواهم، فما فرق بين موسى وفرعون في مذهبهم في الكفر، إذاً فأيُّ كفر أوضحُ من هذا.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النّحل: ٤٠]. وقال هؤلاء: ما قال لشيء قط قولاً وكلاماً: كن فكان، ولا يقوله أبداً، ولم يخرج منه كلام قط، ولا يخرج، ولا هو يقدر على الكلام في دعواهم، فالصنم في دعواهم والرحمن بمنزلة واحدة في الكلام، فأيُّ كفر أوضحُ من هذا.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المَائدة: ٦٤]. و﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [صٓ: ٧٥]، و﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمرَان: ٢٦]، وقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفَتْح: ١٠]، قال هؤلاء: ليس لله يد، وما خلق آدم بيديه، إنما يداه نعمتاه ورزقاه، فادعوا في يدي الله أوحش مما ادعته اليهود، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقالت الجهمية: يد الله مخلوقة، لأن النعم والأرزاق مخلوقة لا شك فيها، وذاك محال في كلام العرب فضلاً أن يكون كفراً؛ لأنه يستحيل أن يقال: خلق آدم بنعمته، ويستحيل أن يقال: في قول الله تبارك وتعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عِمرَان: ٢٦] : بنعمتك الخير؛ لأن الخير نفسه هو النعم نفسها، ومستحيل أن يقال في قول الله ﷻ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفَتْح: ١٠] : نعمة الله فوق أيديهم، وإنما ذكرنا هاهنا اليد مع ذكر الأيدي في المبايعة بالأيدي، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفَتْح: ١٠].

. . . .

ويستحيل أن يقال: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المَائدة: ٦٤] : نعمتاه، فكأن ليس له إلا نعمتان مبسوطتان، لا تحصى نعمه، ولا تستدرك، فلذلك قلنا: إن هذا التأويل محال من الكلام فضلاً أن يكون كفراً.

ونكفرهم أيضاً بالمشهور من كفرهم أنهم لا يثبتون لله تبارك وتعالى وجهاً ولا سمعاً ولا بصراً ولا علماً ولا كلاماً ولا صفةً إلا بتأويل ضلال، افتَضَحوا وتبينت عوراتهم، يقولون: سمعه وبصره وعلمه وكلامه بمعنى واحد، وهو بنفسه في كل مكان، وفي كل بيت مغلق، وصندوق مقفل، قد أحاطت به - في دعواهم - حيطانهم وأغلاقها وأقفالها، فإلى الله نبرأ من إله هذه صفته، وهذا أيضاً مذهب واضح في إكفارهم.

ونكفرهم أيضاً أنهم لا يدرون أين الله، ولا يصفونه بأين، والله قد وصف نفسه بأين، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، و﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عِمران: ٥٥]، و﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [المُلك: ١٦]، ونحو هذا، فهذا كله وصف بأين. ووصفه رسول الله ﷺ بأين، فقال للأَمَةِ السوداء: «أين الله؟». فقالت: في السماء، قال: «من أنا؟». قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»[1].

والجهمية تكفُرُ به، وهذا أيضاً من واضح كفرهم، والقرآن كله ينطق بالرد عليهم، وهم يعلمون ذلك، أو بعضهم، ولكن يكابرون ويغالطون الضعفاء، وقد علموا أنه ليس من حجة أنقضُ لدعواهم من

....

(١) تقدم تخريجه.

القرآن، غير أنهم لا يجدون إلى رفع الأصل سبيلاً مخافة القتل والفضيحة، وهم عند أنفسهم بما وصف الله به فيه نفسه جاحدون. قد ناظرنا بعض كبرائهم، وسمعنا ذلك منهم منصوصاً مفسراً.

ويقصدون أيضاً بعبادتهم إلى إله تحت الأرض السفلى، وعلى ظهر الأرض العليا، ودون السماء السابعة العليا. وإله المصلين من المؤمنين الذين يقصدون إليه بعبادتهم: الرحمن الذي فوق السماء السابعة العليا، وعلى عرشه العظيم استوى، وله الأسماء الحسنى، تبارك اسمه وتعالى، فأيُّ كفر أوضحُ مما حكيناه عنهم من سوء مذاهبهم، ما زاد ماني وشمعلة الزنديقان.

قال أبو سعيد: فقال لي المناظر الذي ناظرني: أردت إرادة منصوصة في إكفار الجهمية باسمهم، وهذا الذي رويت عن علي ﷺ في الزنادقة. فقلت: الزنادقة والجهمية أمرهما واحد، ويرجعان إلى معنىً واحد ومراد واحد، وليس قومٌ أشبهَ بقوم منهم بعضهم ببعض، وإنما يشبه كل صنف وجنس بجنسهم وصنفهم، فقد كان ينزل بعض القرآن خاصاً في شيء، فيكون عاماً في مثله، وما أشبهه. فلم يظهر جهم وأصحاب جهم في زمن أصحاب رسول الله ﷺ وكبار التابعين، فيروى عنهم فيها أثر منصوص مسمّى، ولو كانوا بين أظهرهم مُظْهرينَ آراءهم لقُتلوا كما قَتَلَ علي ﷺ الزنادقة التي ظهرت في عصره، ولقتلوا كما قتل أهل الردة، ألا ترى أن الجعد بن درهم أظهر بعض رأيه في زمن خالد القَسْري، فزعم أن الله تبارك وتعالى لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، فذبحه خالد بواسطَ يوم الأضحى على رؤوس

....

من حضره من المسلمين، لم يَعِبْه به عائب، ولم يطعن عليه طاعن، بل استحسنوا ذلك من فعله وصوبوه. وكذلك لو ظهر هؤلاء في زمن أصحاب رسول الله ﷺ وكبار التابعين ما كان سبيلهم عند القوم إلا القتل، كسبيل أهل الزندقة، وكما قَتَلَ علي رضي الله عنه من ظهر منهم في عصره وأحرقه، وظهر بعضهم بالمدينة في عهد سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فأشاروا على والي المدينة يومئذ بقتله.

ويكفي العاقلَ من الحجج في إكفارهم ما تأولنا فيه من كتاب الله، وروينا فيه عن علي وابن عباس، وما فسرنا من واضح كفرهم، وفحش مذاهبهم شيئاً شيئاً، فأما إذ أبيتم أن تقبلوا إلا المنصوص فيهم، المقصود بها إليهم بِجِلاهُم وأسمائهم، فسنروي ذلك عن بعض من ظهر ذلك بين أظهرهم من العلماء

حدثني محمد بن المعتمر السجستاني أبو سهل، وكان من أوثق أهل سجستان وأصدقهم، عن زهير بن نعيم البابي، أنه سمع سلام بن أبي مطيع يقول: «الجهمية كفار»(١).

وسمعت محمد بن المعتمر، يقول: سمعت زهير بن نعيم، يقول: سئل حماد بن زيد وأنا معه في سوق البصرة، عن بِشرِ المَريسي، فقال: «ذاك كافر»(٢).

قال أبو سعيد: وبلغني عن يزيد بن هارون، أنه قال: «الجهمية

....

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد، في السنة (٩)، وأبو بكر الخلال، في السنة (١٧١٦)، وابن بطة، في الإبانة الكبرى (٣٣٦)، واللالكائي، في شرح أصول الاعتقاد (٥١٧).

(٢) أخرجه المصنف كذلك، في النقض على المريسي (١٤٤).

كفار، وقال: حَرَّضت غير مرة أهل بغداد على قتل المريسي»[(١)].

حدثنا يحيى الحِمّاني، ثنا الحسن بن الربيع، قال: سمعت ابن المبارك، يقول: «من زعم أن قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] مخلوق فهو كافر»[(٢)].

سمعت محبوب بن موسى الأنطاكي، يذكر أنه سمع وكيعاً، يُكْفِر الجهمية.

وحُدِّثتُ عن سفيان الثوري، عن حماد بن أبي سليمان، أنه كفر من زعم أن القرآن مخلوق[(٣)].

وسمعت يحيى بن يحيى، يقول: «القرآن كلام الله، من شك فيه، أو زعم أنه مخلوق فهو كافر»[(٤)].

وسمعت الربيع بن نافع أبا توبة يكفر الجهمية.

قال أبو سعيد: فهؤلاء الذين أكفروهم في آخر الزمان، وعلي بن أبي طالب وابن عباس في أول الزمان، وأنزلاهم منزلة من بدل

وقال ابن القيم: «وشهداء الله في أرضه، من جميع أقطار الأرض يشهدون عليهم بالضلالة، والحيرة، والكذب على الله، ورسوله، وكتابه،

---

(١) رواه الخطيب موصولاً، في تاريخه (٧ / ٥٣١).

(٢) رواه لابن المبارك: البخاري، في خلق أفعال العباد (ص ٣١).

(٣) رواه موصولاً بسنده ابن الجعد، في مسنده (٣٥٣)، والبخاري، في خلق أفعال العباد (ص ٢٩)، والتاريخ الكبير (٤ / ١٢٧)، وعبد الله بن أحمد، في السنة (٢٣٩)، وابن بطة، في الإبانة (٤٠٦)، واللالكائي، في شرح أصول الاعتقاد (٣٩٣)، والخطيب، في تاريخ بغداد (١٥ / ٥٢٢)

(٤) أخرج معناه ليحيى: اللالكائي، في شرح أصول الاعتقاد (٢ / ٢٨٩)، والبيهقي، في الأسماء والصفات (٥٥٩)، من طريق محمود بن غيلان، وابن أبي حاتم، كما في العلو، للذهبي (٤٥٦). ونقله البخاري عنه، في خلق أفعال العباد (ص ٣٧).

دينه، فاستحقوا القتل بتبديله.

ويرمونهم بالعظائم، ويشهدون عليهم بالكفر والإلحاد»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعلماء قد تنازعوا في تكفير أهل البدع والأهواء، وتخليدهم في النار، وما من الأئمة إلا من حكي عنه في ذلك قولان، كمالك والشافعي وأحمد وغيرهم، وصار بعض أتباعهم يحكي هذا النزاع في جميع أهل البدع، وفي تخليدهم حتى التزم تخليدهم كل من يعتقد أنه مبتدع بعينه، وفي هذا من الخطأ ما لا يحصى، وقابله بعضهم، فصار يظن أنه لا يطلق كفر أحد من أهل الأهواء، وإن كانوا قد أتوا من الإلحاد وأقوال أهل التعطيل والاتحاد.

والتحقيق في هذا: أن القول قد يكون كفراً كمقالات الجهمية الذين قالوا: إن الله لا يتكلم ولا يرى في الآخرة؛ ولكن قد يخفى على بعض الناس أنه كفر فيطلق القول بتكفير القائل، كما قال السلف: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، ومن قال: إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر.

ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم عليه الحجة كما تقدم، كمن جحد وجوب الصلاة والزكاة، واستحل الخمر والزنا وتأول، فإن ظهور تلك الأحكام بين المسلمين أعظم من ظهور هذه، فإذا كان المتأول المخطئ في تلك لا يحكم بكفره إلا بعد البيان له واستتابته، كما فعل الصحابة في الطائفة الذين استحلوا الخمر، ففي غير ذلك أولى وأحرى. وعلى هذا يخرج الحديث الصحيح: في الذي قال: «إذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني في اليم، فوالله لئن قَدَرَ الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين»[٢]، وقد غفر الله لهذا مع ما حصل له من

---

(١) الصواعق المرسلة (ص ١٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري ح(٣٤٧٨) ومسلم ح(٢٧٥٦).

....

الشك في قدرة الله، وإعادته إذا حرّقوه»[١]

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلم والإيمان والهدى فيما جاء به الرسول وأن خلاف ذلك كفر على الإطلاق، فنفي الصفات كفر، والتكذيب بأن الله يرى في الآخرة، أو أنه على العرش، أو أن القرآن كلامه، أو أنه كلم موسى، أو أنه اتخذ إبراهيم خليلاً، كفر، وكذلك ما كان في معنى ذلك، وهذا معنى كلام أئمة أهل السنة وأهل الحديث.

والتكفير العام كالوعيد العام يجب القول بإطلاقه وعمومه. وأما الحكم على المعين بأنه كافر أو مشهود له بالنار، فهذا يجب الوقوف على الدليل المعين، فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه وانتفاء موانعه»[٢].

ولهذا كان شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يقول لبعض من يخاطبهم، ممن سلك مسلك الجهمية: «لو وافقتكم كنت كافراً؛ لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال»، ونحو هذا الكلام، وذلك لوجود الجهل عندهم[٣].

وما ذكر الإمام الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ من الأدلة على ما حكم به عليهم في هذا الباب كاف في ذلك، وهكذا ما تقدم، مشهوراً عنهم، وكثير في كلامهم. والله أعلم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦١٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨).

(٣) ونصه: «ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن يكون الله تعالى فوق العرش لما وقعت محنتهم، أنا لو وافقتكم كنت كافراً؛ لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال، وكان هذا خطاباً لعلمائهم، وقضاتهم، وشيوخهم، وأمرائهم» انظر: الرد على البكري (ص ٢٥٣).

حدثنا الحِّماني، ثنا إبراهيم بن منصور العلاف، وأثنى عليه هو ومن حضر المجلس خيراً، قال: لما كان أيام المحنة، فأُخرج النفر إلى المأمون فامتُحنوا ورُدُّوا، لَقيتُ أعرابياً، فقال لي: ألا أحدثك عجباً؟ قلت: ما ذاك؟ قال: رأيت في المنام كأن نفراً ثلاثين أو أكثر جيء بهم من قِبَلِ المشرق أو المغرب، فنظرت إليهم فإذا بطونهم مشققة، ليس في أجوافهم شيء، فقيل: هؤلاء الذين كفروا بالقرآن. والأعرابي لا يدري ما المحنة، وما سببهم.

قوله: «**أيام المحنة**»، المقصود بها محنة القول بخلق القرآن.

قوله: «**رأيت في المنام**» المَرَائي ـ كما سبق ـ لا يعتمد عليها، ولكنها يستشهد بها ويعتضد بها، ولكن لا يعتمد عليها، فهي كما قال الله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، البشرى فسرت بالمَرَائي الحسنة، التي يراها المؤمن أو تُرى له(١).

والرسول ﷺ قال: «الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءْ من النبوة»(٢)، فالرؤيا أمثال يضربها الملك الموكل بالرؤية، وكانت مرائي الناس على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: فيما يزاوله الإنسان في حياته، إذا نام يرى أنه يعمل، سواءٌ أكان يلعب، أم يشتغل، وبعض الناس يكون مشغولاً بالقراءة فإذا نام يقرأ، وبعض الناس يكون مشغولا باللعب، وقلبه متعلق به، فإذا نام رأى أنه يلعب، وهكذا، وهذا الذي قال العلماء: إنه أمر مخيف، لأن الإنسان إذا حضره الموت، فالنوم يكون مثل الموت، قريباً منه، ولذا قد

---

(١) عن ابن عباس مرفوعاً: «لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له». أخرجه مسلم، كتاب الصلاة ح (٤٧٩).

(٢) تقدم.

....

يأتيه هذه الأشياء عند الموت، وهذا كثير جداً في الناس، فالإنسان إذا حضره الموت يصور له الشيء الذي استولى على قلبه.

ولهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ[١]: قيل لرجل عند الموت، قل: لاإله إلا الله، فصار يمد يده، ويقول: فُلَيْسٌ لله، لأنه كان مشغولاً بسؤال الناس، وذكر أشياء من هذا القبيل كثيرة.

القسم الثاني: تخويفات من الشيطان، يلعب الشيطان بالإنسان ويخوفه، وهذا الذي جاء فيها الحديث: «الرؤيا الحسنة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، وليتفل ثلاثاً، ولا يحدث بها أحدا، فإنها لن تضره»[٢]، فهذا من الشيطان.

القسم الثالث: هي الرؤيا التي تكون من الملك، أي ضرب أمثال، وهذه قد تكون واضحة لا تحتاج إلى تفسير، مثل هذه التي ذكرها، وقسم يحتاج إلى تفسير لا يفهم من ظاهرها، وهذه هي الرؤيا، وهي من ملك من الملائكة موكل بهذه الأشياء يضربها للناس، وقد تكون الرؤيا مبشرة، وقد تكون منذرة، لأنها قسم من أقسام النبوة، والأنبياء يأتون مبشرين ومنذرين، يبشرون من أطاعهم بالخير والجنة، ومن عصاهم بالشقاء والنار، فهي كذلك تكون من هذا القبيل. فيجب على الإنسان إذا رأى رؤيا أن يتفقد نفسه، ويرى هل هو ممن يبشر، أو ممن ينذر. فعلى كل حال هي لا تخلو إما أن تكون موعظة، أو تكون بشارة. وهذه الرؤيا التي ذكرها ظاهرة، لأن الذي ليس في قلبه شيء من القرآن يكون قلبه

---

(١) الداء والدواء (ص ٩١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ح(٢٢٥٨٣) والبخاري ح (٦٩٨٥) ومسلم ح (٢٢٦١).

حدثنا الزهراني أبو الربيع، قال: كان من هؤلاء الجهمية رجل، وكان الذي يُظهِرُ من رأيه الترفض وانتحال حب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال رجل ممن يخالطه ويعرف مذهبه: قد علمت أنكم لا ترجعون إلى دين الإسلام ولا تعتقدونه، فما الذي حملكم على الترفض وانتحال حب علي؟

قال: إذا أصدُقُك أنا، إن أظهرنا رأينا الذي نعتقده رمينا بالكفر والزندقة، وقد وجدنا أقواماً ينتحلون حب علي ويظهرونه ثم يقعون بمن شاؤوا، ويعتقدون ما شاؤوا، ويقولون ما شاؤوا، فنُسِبوا إلى الترفض والتشيع، فلم نر لمذهبنا أمراً ألطفَ من انتحال حب هذا الرجل، ثم نقول ما شئنا، ونعتقد ما شئنا، ونقع بمن شئنا، فلأن يقال لنا: رافضة أو شيعة، أحب إلينا من أن يقال: زنادقة كفار، وما عليٌّ عندنا أحسنَ حالاً من غيره ممن نقع بهم.

وجوفه خرِباً، مثل ما مثل ﷺ بذلك[1]، فالذي يقول بخلق القرآن لا يخلو من ذلك.

قوله: «**وصدق هذا الرجل**» هذا يقول: إنه صدقه، وهذه عقيدتهم، ولهذا يقول العلماء: إن هذا المذهب ملجأ لكل زنديق؛ لأنه كما قال هذا الرجل: يفعل الذي يشاء، ويتستر بأنه يحب أهل البيت وأنه يتبعهم.

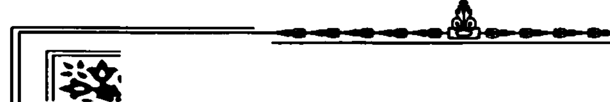
---

(١) عن أبي موسى رضي الله عنه مرفوعاً: «ومثل المنافِقِ الَّذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وفي رواية ريحها مر وطعمها مر». أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق، ح (٧٥٦٠)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، ح (٧٩٧).
وعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «إنَّ االرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب». أخرجه أحمد (٣/ ٤١٧) (١٩٤٧)، والدارمي (٤/ ٢٠٨٣)، والترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب، ح (٢٩١٣)، وقال: حسن صحيح. والحاكم (١/ ٧٤١)، وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: فيه قابوس وهو لين، وضعفه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٥/ ٨٢).

قال أبو سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وصدق هذا الرجل فيما عبر عن نفسه ولم يراوغ، وقد استبان ذلك من بعض كبرائهم وبصرائهم، أنهم يستترون بالتشيع، يجعلونه تثبيتاً لكلامهم وخبطهم، وسُلّماً وذريعة لاصطياد الضعفاء وأهل الغفلة، ثم يبذرون بين ظهراني خبطهم بذر كفرهم وزندقتهم ليكون أنجع في قلوب الجهال وأبلغ فيهم، ولئن كان أهل الجهل في شك من أمرهم، إن أهل العلم منهم لعلى يقين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

....





باب قتل الزنادقة والجهمية

واستتابتهم من كفرهم

ختم الكتاب بهذا العنوان: بقوله (**باب قتل الزنادقة والجهمية واستتابتهم من كفرهم**)، يعني الزنادقة غير الجهمية.

والزنادقة هم المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وإذا تبين أنه على هذا المذهب، ولم يتب ويرجع عنه يقتل، وإذا تاب فباطنه يوكل إلى الله جل وعلا، والمهم أن الناس ليس لهم إلا الظاهر.

أما ما في القلوب وما تنطوي عليه، وما يفعل بالخفاء، فهذا ليس إلى الناس، بل هو إلى الله جل وعلا، وهو الذي يحاسب عليه.

والمقصود هنا: أنه جعل الجهمية كالزنادقة المنافقين النفاق الأكبر، يقول: إنهم يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا، وهذا القتل لا يكون إلا من ولي الأمر، أو من ينيبه، كالقضاة ونحوهم، وليس إلى آحاد الناس، فلا يجوز لأحد أن يقول: هذا زنديق، أو هذا جهمي، فأنا أستتيبه أو أقتله، فالاستتابة تكون ممن بيده الأمر، ويوكل إليه ذلك.

ولهذا كان السلف إذا ظهر لهم شيء من ذلك أخذوه إلى القاضي، أو إلى الأمير، وقالوا: إنه يقول كذا وكذا حتى يثبت له ذلك، ثم هو يعمل الشيء الذي يكون على وفق الشرع حسب اجتهاده ونظره، فالمقصود أن هذا مقيد وليس مطلقاً لكل أحد.

عن سويد بن غَفَلَة، أن علياً رضي الله عنه، قتل زنادقة ثم أحرقهم، ثم قال: صدق الله ورسوله[١].

عن عكرمة، أن علياً رضي الله عنه أتي بقوم من الزنادقة فحرّقهم، فبلغ ذلك ابن عباس، فقال: أما أنا فلو كنت لقتلتهم، لقول رسول الله ﷺ، ولما حرّقتهم، لنهي رسول الله ﷺ. قال رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه». وقال: «لا تعذبوا بعذاب الله»[٢].

قول سويد: «قتل زنادقةً ثم أحرقهم» يعني بالزنادقة هنا الذين قالوا له: أنت إلهنا، فهم كانوا يصلون وكانوا يعملون ما يعلمون، ولكنهم في الباطن كفروا.

وقوله ﷺ: «لا تعذبوا بعذاب الله» اختلف في هذا هل هو منسوخ أو باقٍ على إحكامه؟ لأن أبا بكر حرّق من حرقه، وخالد بن الوليد وجد رجلاً يفعل به الفاحشة فحرقهما، الفاعل والمفعول به[٣]. ووقع من بعض الصحابة شيء من ذلك، ولكن ابن عباس أنكر هذا، واستدل بأن الرسول ﷺ نهى عن ذلك وقال: «لا يعذب بالنار إلا الله».

وفي المسند وعند أبي داود عن حمزة الأسلمي أَنَّ رسول اللهِ ﷺ أَمَّره عَلَى سريّةٍ، فخرجت فِيهَا فقال: «إِن أخذتم فلاناً فأحرقوه بالنار»، فلما وليت ناداني فقالَ: «إِن أخذتموه فاقتلوه فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار»[٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، كما في المجمع (٣/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: لا يعذب بعذاب الله، ح (٣٠١٧).

(٣) البيهقي في السنن الكبرى، (٨/ ٤٠٥) وقال: مرسل.

(٤) أخرجه احمد (٢٥/ ٤٢١) (١٦٠٣٤)، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، ح (٢٦٧٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٢٢).

فبلغ علياً ما قال ابن عباس، فقال: ويْحَ ابنِ أم الفضل، إنه لَغوَّاص على الهَنات(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: بعثنا رسولُ اللهِ ﷺ في بَعْثٍ، وقال لنا: «إنْ لقيتم فلاناً وفلاناً ـ لِرجلينِ من قريش سماهُما ـ فحرّقوهما بالنارِ»، قالَ: ثم أتيناه نُودعه، حين أردنا الخروجَ، فقال: «إني كنت أمرتكم أنْ تحرّقوا فلاناً وفلاناً بالنار، وإن النار لا يُعذبُ بها إلا الله، فإن أخذتموهما فاقتلوهما»(٢).

وأرسل النبي ﷺ أحد الصحابة إلى رجل تزوج زوجة أبيه، بعد أن مات أبوه، وهذه كانت عادة الجاهلية، كان إذا مات الرجل، فإن ولده الكبير يأخذ زوجته، التي هي ليست أمه، إنما هي زوجة أب، ففعل هذا الرجل هذا في الإسلام، فأرسل الرسول ﷺ رجلاً من الصحابة معه راية، وأمره بضرب عنقه وأخذ ماله(٣).

وأما فعل علي، وفعل أبي بكر، وفعل خالد رضي الله عنهم، فإنه يدل على أن هذا جائز، أو أن هذا منسوخ والله أعلم.

قوله: «**الهنات**» يعني بها الأمور التي فيها خطأ، أو فيها مؤاخذة، وهذا يدل على أن علياً رضي الله عنه ليس عنده علم بهذا من الرسول ﷺ، وإنما هذا غضب منه لله عز وجل.

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التوديع، ح (٢٩٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣٠/٥٢٦) (١٨٥٥٧)، وأبو داود، كتاب الحدود، باب في الرجل يزني بحريمه، ح (٤٤٥٧)، وغيرهما، ولفظه: عن البراء قال: لقيتُ عَمِّي ومعه رايةٌ، فقلت: أين تريدُ؟ قال: بعثني رسولُ الله ﷺ إلى رجل نكح امرأةَ أبيه، فأمرني أن أضْربَ عنقَه، وآخذ ماله.

قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ: فالجهمية عندنا زنادقة من أخبث الزنادقة، نرى أن يستتابوا من كفرهم، فإن أظهروا التوبة تركوا، وإن لم يظهروها تركوا، وإن شهدت عليهم بذلك شهود فأنكروا ولم يتوبوا قتلوا، كذلك بلغنا عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سن في الزنادقة.

عن أبي إدريس، قال: أتي علي بن أبي طالب بقوم من الزنادقة فأنكروا، فقامت عليهم البينة فقتلهم، وقال: «هذا قد استتبته فاعترف بذنبه فخليت سبيله.

عن حبيب بن أبي حبيب قال: خَطَبَنا خالد بن عبد الله القَسْري بواسطَ يوم الأضحى، فقال: أيها الناس ارجعوا فَضَحُّوا، تقبل الله منا ومنكم، فإني مُضَحٍّ بالجعد بن درهم؛ إنه زعم أن الله تبارك وتعالى لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، سبحانه وتعالى عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه[1].

قوله: «**نزل**» يعني: من المنبر، وذبحه بالسكين وجعله أضحية، يقول ابن القيم: «فشكر له العلماء صنيعه هذا، لأنه استشارهم قبل ذلك، فأشاروا عليه أن يقتله»[2].

وخالد بن عبدالله القسري رَحِمَهُ اللَّهُ كان أحد أمراء بني أمية، وكان الأمراء في ذلك الوقت لا يُؤمّر إلا من كان يحسن الخطابة، ويحسن الصلاة بالناس، فإذا كان لا يحسن ذلك لا يكون أميراً، وكان الأمير هو الذي يتولى الخطابة، ويتولى الصلاة، وخالد عرف بأنه (قصاب الزنادقة)، ولهذا تسلطوا عليه بالكلام، والرمي بالبهت، وقالوا: إن أصله يهودي، أو أصله نصراني، وزعموا أنه بنى كنيسة لأمه، وكل هذا باطل

---

(١) تقدم.

(٢) في النونية (ص ٨).

عن خلف بن خليفة الأشجعي، قال: أتي خالد بن عبد الله القسري برجل قد عارض القرآن، فقال: قال الله في كتابه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ [الكافِرون: ١-٣]. وقلت أنا ما هو أحسن منه: إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، ولا تطع كل سافه وكافر. فضرب خالد عنقه وصلبه، فمر به خلف بن خليفة وهو مصلوب فضرب بيده على خشبته، فقال: إنا أعطيناك العمود، فصل لربك على عود، فأنا ضامن لك ألا تعود(١).

وكذب، وإنما لأنه كان يقتل الزنادقة وكثيراً من الأدباء من هذا القبيل، ولهذا ذكروا ذلك فيه كذباً وانتقاماً لما كان يفعله(١).

قوله: «**العمود**» يعني: لأنه مصلوب عليه، وفي رواية: (إنا أعطيناك العود، فصل لربك من قعود)، ليس من عود، (فأنا ضامن لك ألا تعود)، فهذا يعني به: أنه مثل قولك، فهذا قول لا يُعجِز أحداً، فكيف تعارض به قول رب العالمين؟ فهو مثل قرآن مسيلمة.

والشاهد في هذا: أن الأمراء كانوا يقتلون المتلاعبين الزنادقة، الذين يلعبون بدين الله، وهو دليل على كفرهم ولعبهم بما هو حق، وسواء كان هذا من باب الضحك واللعب، أم كان من باب الجد، فكله كفر، فلا يجوز للإنسان أن يمزح بشيء فيه دين الله، أو في ذكره ﷻ، أو في ذكر رسوله ودينه، لأن الله ﷻ ذكر قوماً قالوا كلاماً فكفرهم بعد إيمانهم، قال ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، نخوض يعني: نذكر كلاماً لا حقيقة له، ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ

---

(١) وانظر البداية والنهاية (١٠/ ٢١).

(٢) تقدم ذكر واقعة ذبح الجعد والإشارة إلى ترجمة خالد بن عبد الله القسري.

....

وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦]. فأثبت جل وعلا أنهم كانوا مؤمنين فكفروا بهذا القول، وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، يقول: إنهم قالوا: ما رأينا كقرائنا هؤلاء [يعنون: الصحابة رضي الله عنهم، والرسول ﷺ] أرغب بطوناً، وأكذب ألسناً، وأجبن عند اللقاء، يقول: فضحكوا، فقال أحد الصحابة الذين معهم: كذبتم، ولكنكم منافقون، لأبلغن رسول الله ﷺ، فصار بعضهم يلوم بعضا، ويقول أحدهم: والله لَوَدِدْتُ أننا نقاضى كل واحد يضرب مائة سوط، ولا ينزل فينا قرآن، يقول: ذهب، فلما وصل إلى رسول الله ﷺ يخبره وجد القرآن قد نزل عليه بهذه الآيات، يقول: فرأيت أحدهم جاء إلى النبي ﷺ بعد ما رحل ناقته وركب عليها، وهو يقول: يا رسول الله! والله ما كنا جادين، إنما كنا نذكر الكلام الذي نقطع به الطريق، ونزيل عنا وعثاءه، فهو لا يزيد على قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، يقول: كأني أنظر إلى الحجارة تنكب رجليه، والرسول لا يلتفت إليه ولا يزيده على هذا القول[1] .

فهذا يخبر أنه ما قال ذلك جاداً، وأنه إنما قاله ليُريح نفسه من التعب، لأنه من المعروف أن الإنسان إذا وجد شيئاً يضحكه ويفرحه فإنه يرتاح شيئاً ما من التعب، يقول: إنهم قالوا هذا مزاحاً، ومع ذلك كفروا بعد إيمانهم، وإن كان فيهم من هو منافق.

المقصود: أن هذا الفعل الذي قاله هذا الرجل (يعارض القرآن معارضة يرى أنها مثله، أو يقول: أحسن منه)، سواءٌ كان من باب

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير (١٤/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩).

حدثنا موسى بن إسماعيل، قال: قلت لإبراهيم بن سعد: ما تقول في الزنادقة، ترى أن نستتيبهم؟ قال: لا، قلت: فبم تقول ذلك؟ قال: كان علينا وال بالمدينة فَقَتَل منهم رجلاً ولم يستتبه، فسُقِط في يده، فبعث إلى أبي، فقال له أبي: لا يَهِيدَنَّك؛ فإنه قول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤] قال: السيف ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٣ ـ ٨٤]. قال: السيف، فقال: سنته القتل.

وسمعت الربيع بن نافع أبا توبة الحلبي، يقول: ناظرت أحمد بن حنبل رحمه الله في قتل هؤلاء الجهمية، فقال: يستتابون، فقلت له: أما خطباؤهم فلا يستتابون، وتضرب أعناقهم.

حدثنا يحيى بن بكير المصري، ثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، أن النبي ﷺ قال: «من غير دينه فاضربوا عنقه»[١].

قال مالك: معنى حديث النبي ﷺ فيما نرى والله أعلم، أنه من خرج من الإسلام إلى غيره، مثل الزنادقة وأشباهها، فإن أولئك يقتلون ولا يستتابون، لأنه لا تعرف توبتهم، وأنهم قد كانوا يسرون

الجد، أم أنه يريد أن يضحك الناس، وهذا هو الظاهر، ومع ذلك قتله وصلبه، والصلب معناه: أنه بعد قتله يربط على خشبة أو شيء في مجامع الناس حتى يتعظوا، ويقال: إن هذا فعل كذا وكذا ففعل به ذلك، فيكون موعظة.

قوله: «**ولا يستتابون**» الاستتابة تعني: تطلب التوبة منهم، يقال لهم: توبوا، وبعض العلماء يقول: يضيق عليهم، يقول: لا يطعمون

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، ح (٢٩٨٧).

الكفر ويعلنون بالإسلام، فلا أرى أن يستتاب هؤلاء، ولا يقبل قولهم، وأما من خرج من الإسلام إلى غيره وأظهر ذلك فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وذلك أنه لو أن قوماً كانوا على ذلك، رأيت أن يُدْعَوا إلى الإسلام ويستتابوا، فإن تابوا قبل ذلك منهم، وإن لم يتوبوا قتلوا. قال مالك: ولم يعن بهذا الحديث من خرج من اليهودية إلى النصرانية، ولا من النصرانية إلى اليهودية، إنما عنى بذلك من خرج من الإسلام إلى غيره فيما نرى، والله أعلم.

ولا يسقون، يتركون حتى يقال لهم: نطعمكم ونسقيكم، أو يتركون ثلاثة أيام، وبعد الثلاثة إذا لم يتوبوا يقتلون، ولكن من الذي يفعل هذا؟ لايفعل ذلك إلا الإمام، أو من ينيبه الإمام.

وقد يحتج محتج ويقول: الرسول ﷺ لم يقتل المنافقين مع علمه بأنهم منافقون، فنقول: هل هذا دليل على أنهم لا يقتلون؟

الجواب أن يقال: المنافق إذا لم يظهر النفاق لا يقتل، فما دام من المسلمين، يصلي ويصوم وإن كان مبطناً للكفر، وإن كان في باطنه كافراً بالإسلام، وبدين الإسلام، وبالرسول، فهذا أمره إلى الله، وهذا الذي كان في عهد النبي ﷺ، وإن كان الرسول ﷺ يعلم أنهم منافقون.

وقد أخبر الله ﷻ عنهم أن في المدينة منافقين، وحولها، وأنهم مردوا على النفاق، وقال: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠١]، فقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ معناه أن ثمة أناساً يعلمون.

ولهذا أخبر حذيفة رضي الله عنه بأمثالهم، وقال له: لاتخبر أحداً، فلو كان المنافق يقتل مطلقاً لما أقر هؤلاء، وقد كان عمر رضي الله عنه إذا مات الرجل ينظر إلى حذيفة رضي الله عنه، هل يصلي عليه أم لا، فإن صلى عليه حذيفة صلى عليه عمر، وكان يقول له: أسألك بالله، هل سماني لك رسول الله من

. . . .

المنافقين؟ يقول: لا، ولا أزكي غيرك أحداً[١]. يعني: لو سئلت ما قلت ذلك. والسبب في هذا: أنه ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، وكان أمامه في طريقه في الليل عقبة في جبل، لايسلكها إلا بعير واحد، فقال ﷺ للناس: «أنا سالك هذه العقبة فلا يذهب معها أحد»، ثم أمر حذيفة رضي الله عنه أن يقود ناقته، وعمار أن يسوق الناقة، فانتهز المنافقون الفرصة، فكمنوا له في عرض الجبل لينفروا به الناقة حتى يسقط ويموت بزعمهم، فلما صار في أثناء الطريق، قاموا في وجه الناقة وهم متلثمون، وصار حذيفة يضربهم بالعصا، حتى هربوا وخافوا أن يكتشفوا فهربوا. فقال له ﷺ: «هل عرفت القوم؟». قال: ما عرفتهم، ولكن عرفت راحلة فلان وفلان، لأنهم كانوا متلثمين (مغطين وجوههم)، فأخبره بأسمائهم، وأسماء غيرهم، قال: «فلان منافق، وفلان منافق»، وقال له: «لا تخبر أحداً»[٢] ولهذا يسمى «صاحب السر»، أي أن الرسول ﷺ أسر إليه ذلك، فهذا دليل على أنهم بقوا على نفاقهم، وكان حذيفة إذا مات أحد منهم لا يصلي عليه، لأنه يعرف أنه منافق، كما قال الرسول ﷺ، والله أعلم.

وشيخ الإسلام رحمه الله له رأي في هؤلاء في بعض كتبه، يقول في «منهاج السنة»: إن الله جل جلاله يقول: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠]، يقول: إنهم تابوا، ولو لم يتوبوا لأغرى الله جل جلاله بهم نبينا ﷺ، وقتلهم، ولكن لما لم يحصل ذلك دل على أنهم

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٨١) ولفظه: عن زيد بن وهب قال: مات رجل من المنافقين فلم يصل عليه حذيفة رضي الله عنه، فقال عمر رضي الله عنه: أمن القوم هو؟ قال: نعم. فقال عمر رضي الله عنه بالله منهم أنا؟ قال: لا ولن أخبر به أحداً بعدك».

(٢) القصة في السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٥٦) عن ابن إسحاق.

قال أبو سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ: فأي كفر أعظمُ من كفر قوم رأى فقهاء المدينة مثل سعد بن إبراهيم ومالك بن أنس أنهم يقتلون ولا يستتابون؛ إعظاماً لكفرهم، والمرتد عندهم يستتاب ويقبل رجوعه، فكانت الزندقة أكبر في أنفسهم من الارتداد ومن كفرِ اليهود والنصارى.

ولذلك قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأَنْ أحكيَ كلام اليهود والنصارى أحب إلي من أن أحكي كلام الجهمية».

حدثناه الحسن بن الصباح البغدادي، عن علي بن شقيق، عن ابن المبارك.

قال أبو سعيد: وصدق ابن المبارك، إن من كلامهم ما هو أوحش من كلام اليهود والنصارى، فلذلك رأى أهل المدينة أن يقتلوا ولا يستتابوا.

تابوا[1]، ولكن الظاهر أنهم لم يتوبوا؛ لفعل عمر وحذيفة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

المقصود: أن المنافق لا يقتل حتى يبوح بنفاقه، ويكفر بالله جَلَّ جَلَالُهُ، فعند ذلك يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، واختلف العلماء في ذلك، كما هو معروف في كتاب حكم المرتد في كتب الفقه[2]، منهم من يقول: يستتاب، ومنهم من يقول: لا يستتاب؛ لأن النفاق لا يتاب منه، إذ هو يظهر خلاف ما يبطن، فكيف يصدق؟

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**مثل سعد بن إبراهيم**» هذا سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وكان قاضي المدينة، وهذا وقعت له قصة عجيبة مع الخليفة، وكان القاضي في ذلك الوقت أكبر من الأمير، وهو الذي

---

(١) انظر منهاج السنة (٢/ ٤٣)، والصارم المسلول (ص ٣٤٨).

(٢) انظر: المغني (٩/ ٦)، والبحر الرائق لابن نجيم (٥/ ١٣٦).

ولذلك قال أبو توبة لأحمد بن حنبل : أما خطباؤهم فلا يستتابون، وتضرب أعناقهم؛ لأن الخطباء اعتقدوا ديناً في أنفسهم على بصر منهم بسوء مذاهبهم، وأظهروا الإسلام تعوُّذاً وجُنّةً من القتل، ولا تكاد ترى البصير منهم بمذهبه يرجع عن رأيه.

قال أبو سعيد: وذهبت يوماً أحكي ليحيى بن يحيى كلام الجهمية لأستخرج منه نقضاً عليهم، وفي مجلسه يومئذ الحسين بن عيسى البسطامي، وأحمد بن يونس القاضي، ومحمد بن رافع، وأبو قدامة السرخسي، فيما أحسب، وغيرهم من المشايخ، فزبرني بغضب وقال: اسكت، وأنكر علي المشايخ الذين في مجلسه، استعظاماً أن أحكي كلام الجهمية، وتشنيعاً عليهم، فكيف بمن يحكي عنهم ديانة؟! ثم قال لي يحيى: القرآن كلام الله، من شك فيه أو زعم أنه مخلوق فهو كافر.

يأمر وينهى في البلد.

قوله: «**الخطباء**» يعني بهم الدعاة، أي دعاتهم الذين يدعون لمذهبهم، يقول: فالدعاة لا يستتابون، بل يقتلون دون استتابة، أما الذين يتبعون هؤلاء فقد يكون فيهم المغرر به، ويكون فيهم الذي يحسن الظن بهم، فلا بد من استتابتهم، فلا بد من بيان الباطل، وبيان الحق، فالإنسان الذي يكون قصده الحق قد يغتر بمن يرى أنه من العلماء، فهم يرون أنهم علماء، وقد يقال: إنهم من العماء، فلا يقتل تابعهم، حتى يستتاب.

قوله عن «يحيى بن يحيى» هذا أحد العلماء، وهو ينكر عليه أن يذكر كلامهم؛ لأن ذكر كلامهم ينشره، ويجعله ينتشر بين الناس، فكونه يترك ذلك أولى وأقرب حتى يموت، فليس كل مبطل يحتاج إلى الرد عليه؛ لأنه إذا رد على كل مبطل تعبت نفسه، كما يقال: ليس كلما نبح كلب

عن محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الزنديق قال: يقبل قوله إذا رجع، ولا يقتل، واحتج فيهم بـ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾الآية [المنافقون: ١] الآية. فأمره الله ﷻ أن يدع قتلهم لما يظهرون من الإسلام، وكذلك الزنديق إذا أظهر الإسلام كان في هذا الوقت مسلماً، والمسلم غير مبدل. قال رسول الله ﷺ: «ألا شققت عن قلبه؟»[(١)].

ألقمته حجراً.

قوله: «**والمسلم غير مبدل**» يعني: غير مبدل في الظاهر، أي لا يدخل في قوله: «من بدل دينه»، أي أنه مسلم في الظاهر، منقاد، يصلي ويصوم، ويكون مع المسلمين، يؤدي الشعائر ظاهراً، فهو مسلم في الظاهر، ويكفي هذا، أما الباطن فإلى الله جل وعلا.

أما قوله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن أسامة رضي الله عنه: «ألا شققت عن قلبه» وذلك أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين، وإنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلاً من المسلمين قصد غفلته، قال: وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله، فقتله، فجاء البشير إلى النبي ﷺ فسأله فأخبره، حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: «لم قتلته؟» قال: يا رسول الله، أوجع في المسلمين، وقتل فلاناً وفلاناً، وسمى له نفراً، وإني حملت عليه، فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله! قال رسول الله ﷺ: «أقتلته؟» قال: نعم، قال: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله، استغفر لي، قال: «وكيف

(١) الحديث أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، ح (٩٦).

قال أبو سعيد ﷺ: وأنا أقول كما قال الشافعي: أن تقبل علانيتهم إذا اتخذوها جُنَّة لهم من القتل، أسروا في أنفسهم ما أسروا، فلا يقتلوا، كما أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جُنة، فلم يؤمر بقتلهم.

والزنديق عندنا شر من المنافق، ....

تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة»(١).

فمعناه أن هذا في الكافر الأصلي، إذا قال: لا إله إلا الله، يجب أن يُكف عنه، حتى يرى ما يعمل، هل يلتزم، أو لا يلتزم؟! إن التزم فهو مسلم، وإن لم يلتزم يقتل.

وقوله: «أشققت عن قلبه؟» يعني أن ما في القلوب ليس لنا، وأن الذي في القلوب إلى الله، هو الذي يتولاه ويحاسبه، ومثل هذا قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»(٢).

وقوله: «وحسابهم على الله» يعني: إذا كانوا صادقين فالله يجزيهم على قولهم وأعمالهم، وإذا كانوا كاذبين أظهروا خلاف ما أبطنوا، فهذا إلى الله، هو الذي يعاقبهم عليه، وهو الذي يحاسبهم.

قوله: **«والزنديق عندنا شر من المنافق»** ما هو الزنديق إذاً؟ الزنديق قالوا: إنه المنافق، والزنديق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام، أي يبطن المخالفة ويظهر الموافقة، ولكن بعض العلماء يفسر الزنديق بأنه

---

(١) أخرجه البخاري ح(٤٢٦٩) ومسلم، كتاب الإيمان، ح (٩٧).
(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر. أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾، ح (٢٥)، ومسلم، كتاب الإيمان ح (٢٢).

فلربما كان المنافق جاحداً بالرسول والإسلام، مقراً بالله ﷻ، مثبتاً لربوبيته في نفسه، والزنديق معطل لله، جاحد بالرسل والكتب .

وما يعرف في الإسلام زنادقة غير هؤلاء الجهمية، وأي زندقة بأظهر ممن ينتحل الإسلام في الظاهر، وفي الباطن يضاهي قوله في القرآن قول مشركي قريش الذين ردوا على الله ورسوله، فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [صٓ: ٧]. و﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٣]. و﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدَّثر: ٢٥]. كما قالت الجهمية سواء: إن هذا إلا مخلوق. ولهم في ذلك أيضاً أئمة سوء أقدم من مشركي قريش، وهم عاد قوم هود، الذين قالوا لنبيهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الشُعَرَاء: ١٣٧-١٣٨]. فأي فرق بين الجهمية وبينهم حتى نجبن عن قتلهم وإكفارهم؟

ولو لم يكن عندنا حجة في قتلهم وإكفارهم إلا قول حماد بن زيد، وسلام بن أبي مطيع، وابن المبارك، ووكيع، ويزيد بن هارون، وأبي توبة، ويحيى بن يحيى، وأحمد بن حنبل، ونظرائهم، رحمة الله عليهم أجمعين، لَجَبُنَّا عن قتلهم وإكفارهم بقول هؤلاء، حتى نستبرئ ذلك عمن هو أعلم منه وأقدم، ولكنا نكفرهم بما تأولنا فيهم من كتاب الله ﷻ، وروينا فيهم من السنة، وبما حكينا عنهم من الكفر الواضح المشهور، الذي يعقله أكثر العوام، وبما ضاهوا مشركي الأمم قبلهم بقولهم في القرآن، فضلاً على ما ردوا على الله ورسوله من تعطيل صفاته، وإنكار وحدانيته، ومعرفة مكانه، واستوائه

الملحد، وهذا ظاهر ما يريده الدارمي رحمه الله أنه يفرق بين الزنديق والمنافق[1].

---

(١) ينظر: الإيمان الأوسط لابن تيمية (الفتاوى ٧/ ٤٧١).

على عرشه بتأويل ضلال، به هتك الله سترهم، وأبدى سوءتهم، وعبّر عن ضمائرهم، كلما أرادوا به احتجاجاً، ازدادت مذاهبهم اعوجاجاً، وازداد أهل السنة بمخالفتهم ابتهاجاً، ولما يخفون من خفايا زندقتهم استخراجاً.

قوله: «**بتأويل**» التأويل عندهم في لسانهم: التفسير، فقوله: «تأولنا» يعني: مافسرنا، وفسر لنا، وإن كان التأويل يأتي، ويقصد به عدة معان، منها: التفسير، لما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]، تأويلاً: عاقبة، أي أحسن عاقبة، والعاقبة هي تفسير الشيء.

وجاء قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣]، هنا التأويل: التفسير، وهذا كثير في لسان السلف، ابن جرير في تفسيره يقول: «القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا»، فهذا مشهور.

القسم الثاني من التأويل هو: حقيقة الشيء، كما قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، فقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ يعني: يوم القيامة، أي يأتي الشيء الذي أخبروا به، فهذا تأويله، وقد يدخل فيه أيضاً العمل، كما قالت عائشة ﵂: كان رسول الله ﷺ يقول: في ركوعه وسجوده بعد ما نزل قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر]، كان يقول في الركوع والسجود: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن[1]. أي

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود، =

....

يعمل بما أمر به.

أما التأويل الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر لا يدل عليه إلا بقرينة، أو بدليل آخر، فهذا اصطلاح حادث، ما كان عند السلف ولا يعرفونه، وإنما حدث للمتأخرين، وهو المقصود عندهم بالتأويل إذا قالوا التأويل، وهو الذي يقول الأشاعرة: إذا جاءت أمور مشتبهة عندهم، مثل الصفات فيجب أن تؤول أو تفوض، فيجب أن نقول: رحمة الله: إنعامه، أو إحسانه، أو هي الإنعام والإحسان، وغضبه إرادته وانتقامه، وعذابه، أو هي الانتقام والعذاب، أي قد يفسرونه بأحد الشيئين:

إما شيء مخلوق، أو بالإرادة، والإرادة لو سئلوا عنها، ما هي الإرادة؟ هل تصفون الله بالإرادة؟ امتنعوا، وقالوا: الإرادة هي الميل إلى الشيء الذي يلائم، فهذا لايجوز أن نصف الله جل وعلا به، إنما هذا للمخلوق.

فالمقصود: أنه على هذا يكون التأويل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قسمان متفق عليهما ودل القرآن عليهما.

أما القسم الثالث فما هو حكمه؟ هل يقبل أم لا؟ قد يقال: إن القرينة إذا كانت صحيحة فإنه يؤخذ بها، ولكن هل هذا موجود فيما يدعونه من التأويل؟

قد يقال: إن من أمثلة التأويل المقبول بعض أحاديث في الأحكام، مثل: «الجار أحق بصقبه»[1] في الشفعة، فظاهره يدل هذا على أن الجار

= ح(٨١٧)، ومسلم، كتاب الصلاة، ح (٤٨٤).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحيل، باب احتيال العامل ليهدى له، ح (٦٩٨٠)، ومسلم، من حديث أبي رافع رضي الله عنه.

....

يشفع، ولكن جاء ما يفسر هذا، فقال: «فإذا وقعت بالحدود، وصرفت الطرق فلا شفعة»[١] في نفس الحديث، فدل على أن الجار، المقصود به الشريك، لأن الحدود تفصل بين الحقوق، فهذا ليس مقصوداً بتأويل المتكلمين، لأن هذا يدل عليه دليل من نفس النص، ولكن المقصود التأويل الذي يجعلون له دليلاً من العقل، وهل يكون العقل دليلاً على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ؟!

ومن أمثلة التأويل الفاسد تأويلهم مثلاً الرضا والغضب والرحمة والسخط إلى شيء يفسرونه به، كقولهم: الغضب: إرادة الانتقام، ويوجبون هذا التأويل بدليل العقل، ودليل العقل لا ضابط له، وهذا من الباطل، بل من الذي لا يجوز أن يقال.

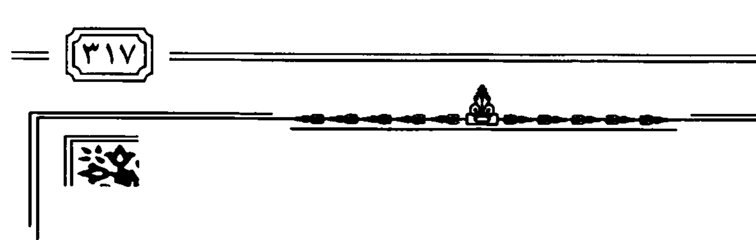
فيجب أن نأخذ بكتاب الله، وبما كان عليه السلف، من الصحابة رضي الله عنهم، وأتباعهم بإحسان.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.



---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب بيع الأرض والدور مشاعاً غير مقسوم، ح (٢٢١٤) من حديث جابر رضي الله عنه.



الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

